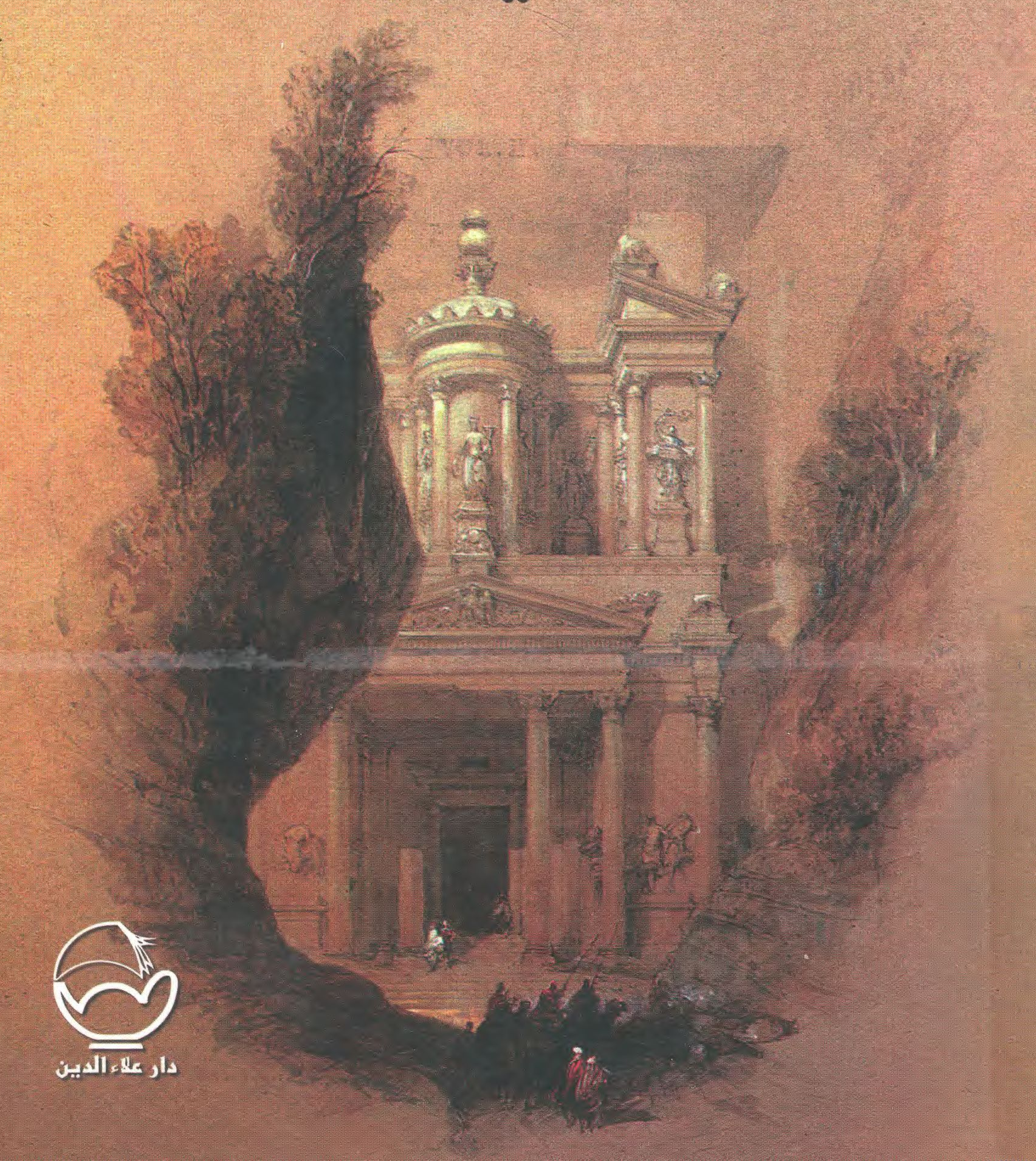
محمد الخطيب

الدين والأسطورة
عند العرب في الجاهلية



دار علاء الدين

الدين والأسطورة

عند العرب في الجاهلية

محمد الخطيب

الـــدين والأســـطورة

عند العرب في الجاهلية



منشـورات دار علاء الـديـن

- **الدين والأسطورة**

عند العرب في الجاهلية

- تأليف: **محمد الخطيب**
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين.**

- الإدارة والإشراف العام: **م. زويا ميخائيلينكو.**
- التدقيق اللغوي: **صالح جاد الله شقير**
- الغلاف: **م. محمد طه**
- المتابعة الفنية والإخراج:

أسامة راشد رحمة

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

المقدمة

إن تاريخ الأديان ذو فائدة كبيرة بالنسبة لمن تروقه استعادة الماضي. ذلك أننا هنا لسنا تجاه أحداث تافهة أغلب الأحيان، نعيد إليها الحياة، بل أمام أعظم ما تصوره الناس من الأفكار النبيلة، وأعقد ما شعروا به من العواطف السامية تجاه الحياة الإنسانية، والعالم، وما وراء الطبيعة.

ومن جهة أخرى فإن دراسة الأديان يمكن أن تساعد على حل مشكلات فلسفية مثيرة: فما هي الطبيعة الحقيقية للعاطفة الدينية، وما هو جوهر هذه العاطفة؟ وما هو أصلها؟ وأي قيمة يستطيع الفكر الحر أن يهبها اليوم للدين؟.

والفكرة التقليدية السائدة اليوم حول الدين، وعلى الأقل في أوربا، هي أنه «العبادة التي نتوجه بها إلى مقام الألوهية».[1]

ولكن إذا كنا نفهم من كلمة الألوهية، إلهاً وحيداً، شخصياً، خلق السماء والأرض، فإننا نلاحظ أن هذا التعريف لا ينطبق إلا على عدد محدود من الأديان: كديانة امنحوتب الرابع في مصر، ومزدكية زرادشت في فارس- على أن هذه الأخيرة تقبل بوجود إله آخر، هو أصل الشر- وكالديانة اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

ولا ينطبق هذا التعريف على الأديان العديدة المتعددة للآلهة، كديانة المصريين والهندوس، واليابانيين، والجرمن، والسلت، والإغريق، والرومان.

وعلى ذلك فإنه يمكن توسيع نطاق التعريف السابق، وإضافة الآلهة المتعددة إلى الإله الواحد. فنقول مثلاً مع المؤرخ الكاثوليكي للأديان، الأب لاغرانج Lagrange: «إن الدين فيما اتفقت عليه الإنسانية جمعاء، يبدأ بعبادة الإله الواحد، أو الآلهة المتعددة».[2]

ويناسب هذا التعريف جملة الأديان الوحيدة الإله، أو المتعددة الآلهة، المذكورة سابقاً. ولكنه لا ينطبق على الأديان البدائية، كالطوطمية أو الإحيائية، ولا على الديانات الصينية، والكونفوشية، والطاؤوية Taoism ولا على البوذية التي هي ديانة ملحدة.

١- تعريف قاموس لاروس. Etudes Syr Les religions

٢- Semitiques Cparis, Gabalda, 1903. 2es, 15

والدين في المجتمعات البدائية هو الرباط الأساسي الذي يربط بين الناس، وهو رباط الانتماء. وتتخذ الحالة الدينية في كل مكان شعوراً عاطفياً بالانتماء أو الانتساب إلى قدرات وقوى توجد خارج نطاق الأشياء المتجسدة، وهذه القوى تتحكم إلى حد بعيد بمصائر البشر، ويمكن للبشر أن يتحكموا فيها إلى حد ما. وهذه القوى غير المتجسدة هي قوى ما وراء الطبيعة، أو قوى روحية.

وأقصر تعريف للدين هو أنه اعتقاد فيما وراء الطبيعة، أو هو كما عرفه تايلور بأنه «الاعتقاد في الكائنات الروحية».

أما سير جيمس فريزر فقد قام بمقارنة مختلف الأديان والممارسات السحرية في مستويات ثقافية في أجزاء العالم المختلفة، واستخلص من ذلك تعريفاً للدين ذكره في كتابه «الغصن الذهبي» يقول فيه: «الدين هو الاعتقاد في وجود قوى عليا تعلو قوى الإنسان وتستطيع أن توجه العالم الطبيعي وحياة الإنسان وتضبطها. وعلى ذلك يقوم الإنسان باستعطافها واسترضائها».

وبهذا الصدد يلاحظ دوركهايم أن هذه الصيغ نظرت إلى الدين كما لو كان كياناً أو كلاً لا يتجزأ، بينما الحقيقة أنه مكوَّن من مجموعة من الأجزاء، فهو نسق مركب من الأساطير والعقائد، أو المذاهب والطقوس والاحتفالات الدينية «الشعائر». والآن فإن الكل لا يمكن أن يعرف إلا في علاقته بأجزائه.

ومن ثم فإن الطريقة المنهجية السليمة هي أن نحاول أن نتعرف على الظواهر المتعددة التي يتضمنها الدين، قبل أن نتناول النسق الديني كوحدة متكاملة. ويرى دوركهايم أن هذا المنهج يوقفنا على حقيقة مهمة ألا وهي أن هناك ظواهر دينية متعددة لا تندرج تحت دين محدد، وهي التي تكوّن ما يسمى «بالفلكلور»، وفي المجتمعات الأوربية نجد أن المسيحية حاولت أن تمتص هذه العقائد وتستوعبها، وقد اكسبتها الطابع المسيحي. وعادة ما تنطوي الظاهرة الدينية على فئتين أساسيتين وهما: العقائد Beliefs والطقوس Rituals حيث تتكون الأولى من الآراء والأفكار، بينما تتضمن الثانية أساليب وأنماط العمل والسلوك.

ويمكن أن تتميز الطقوس عن الممارسات اللانهائية الأخرى، كالممارسات الأخلاقية مثلاً بتلك الطبيعة الخاصة المميزة لموضوعاتها. فالعقائد الأخلاقية تصف بعض طرق السلوك، تماماً كما تفعل «الطقوس» ولكنها تتميز بفئة مختلفة تماماً من الموضوعات. ولذلك فإذا ما أردنا أن نصف «الطقوس» ذاتها يجب أن نصف موضوعها أي مضمونها. والآن فإن الطبيعة الخاصة لهذا الموضوع تتركز في العقائد. ولا تُعرف الطقوس إلا بعد تعريف العقائد.

إن كل العقائد الدينية المعروفة- سواء في ذلك البسيطة منها والمركبة- تعكس لنا صفة مشتركة. فهي تتضمن تصنيفاً لكل الأشياء- الواقعية والمثالية- التي يفكر فيها الإنسان، إلى فئتين أو مجموعتين وهما: المدنس Profane والمقدس Sacred. ومن ثم يكون تقسيم العقائد إلى نوعين: نوع يتضمن كل ما هو مقدس، ونوع يشير إلى ما هو مدنس، وهذه هي الصفة المميزة للفكر الديني. إن العقائد الدينية هي تلك التمثلات التي تعبّر عن طبيعة الأشياء المقدسة والعلاقات التي تدعمها سواء بين بعضها والبعض الآخر، أو بينها وبين الأشياء المدنسة. أما الطقوس فهي قواعد السلوك التي تصف ما يجب أن يكون عليه سلوك الإنسان تجاه هذه الموضوعات المقدسة.

إن عالم الأنثروبولوجيا الذي يقوم بدراسة أنماط الخبرة الإنسانية العظيمة التباين كما يراها اليوم، ليجد صعوبة بالغة في محاولة تركيب صورة متكاملة لتاريخ تلك الخبرة. على أن هناك شيئاً واحداً يكون واضحاً جلياً في دراستنا للخبرة الدينية آلا وهو أن الكون يصور للناس على أنه سر غامض، وعلى أنه كون من قوى خفية ولكنها مقتدرة وفعالة. ونحن نجد أن الأفراد يحاولون جاهدين أن يربطوا أنفسهم بتلك القوى القديرة أو ينتسبوا إليها.

ونحن نشير إلى هذه الخبرة الذاتية البدائية باسم «الخبرة الدينية» أو «الروحية». ولكي يجعل الإنسان الكون مفهوماً بالنسبة إليه فهو يخلقه من جديد على أساس من خبرته الذاتية أي أنه يستأنس العالم. أي أنه يرى أن العالم يوجه بشكل إنساني نحو مكافأة أولئك الذين أدوا ما طلب إليهم من التزامات، وحرمان أولئك الذين فشلوا في أداء التزاماتهم.

فهو يعتقد أنه لم يعد يعيش في كون ميكانيكي أعمى، وهذا التفكير الذي هو من قبيل التمني والذي تتضمنه كل ديانات العالم، ويتخذ شكلاً سلوكياً في أساطير الأقدمين وفي علوم اللاهوت، وشكلاً تصورياً في الأساليب الدينية من استرحام الآلهة واسترضائهم وإقامة علاقات الوئام معهم، يعتبر من أعظم ابتكارات العقل البشري.

ويلازم هذه الأساليب الدينية واقع حتمي يدفع المؤمن إلى العمل طبقاً لمقتضيات معتقداته وتبعاً لطبيعة ومعنى الكون كما يتكشف له. والدافع إلى العمل بهذا الأسلوب يكوّن المضمون الخلقي والاجتماعي لكل الخبرة الدينية التي تكاد تكون موجودة في كل المجتمعات البشرية في العالم أجمع، وهي: السحر: وهو محاولة إجبار أو استرضاء أو إلزام قوى ما وراء الطبيعة، والتبجيل: وهو خليط من الرهبة والحب والإعجاب التي يقدمها الإنسان إلى قوى ما وراء الطبيعة. والعرافة: أي التنبؤ بالغيب أو بالمستقبل.

والتضحية: أي التحكم بواسطة الهدية وفيها يُرغم الإنسان القوة، أو أنه يبغي مجرد إرضاء قوى ما وراء الطبيعة.

والتمائم والأحجبة: وهما جانبان من جوانب السلوك الديني. فمعاملة القوة فوق الطبيعية على أنها صفة لأشياء معينة تجعل من تلك الأشياء تمائم، وإذا ما عوملت الأشياء على أنها موطن أو منزل للأرواح أصبحت فيتشات «أشياء مقدسة». والصلاة: وهي الاتصال بقوى ما وراء الطبيعة عن طريق الكلام. وهناك بالإضافة على ذلك الاعتقاد في الأرواح الحارسة والجن والملائكة والأرواح الشريرة وغيرها.

والإجبار أو الإكراه والاسترضاء هما طرفا النقيض في السلوك الديني الذي يقيم الشخص بواسطته علاقة بقوى ما وراء الطبيعة، وبين هذين النقيضين توجد كل درجة ممكنة من درجات الإكراه والاسترضاء أو منهما معاً. والأساليب المذكورة هي صور السلوك التي توجد في كل ما نلم به من نظم دينية.

وبصورة عامة نجد كل المجتمعات تعتقد فيما تسميه عالم ما فوق الطبيعة بدرجات وأشكال مختلفة، وأن هذا العالم الغيبي عالم غير عادي لا يخضع لمنطق أو عقل، وإنما يخضع للتقبل والإيمان الكامل بكل ما فيه من أشياء تبدو متناقضة. ويقوم الدين- «في صوره المختلفة»- بتنظيم العلاقة بين الناس والحياة الطبيعية عامة وبين تلك القوى الغيبية، ومحاولة الحصول على مساعدتها من أجل نجاح نشاطات الناس ورغباتهم.

ولعل أبرز ما يميز معتقدات العرب في الجاهلية هو هذا الاعتقاد البسيط الساذج المتمثل في عبادة حجارة لا تضر ولا تنفع.

والسذاجة بنت الجهل، والجهل يحمل في طياته، وكما هو معلوم، الكثير من مظاهر الميل إلى تصديق الخرافة والأسطورة.

إنها مظاهر الحياة الجاهلية التي تشبه إلى حد بعيد مظاهر الحياة ذاتها عند جميع الشعوب والمجتمعات في طور بدواتها من قبل أن تصل إلى طور النضج الفكري والتكامل العقلي. فالعقل العربي في جاهليته، كان على وجه العموم عقلاً قاصراً عن إدراك الحقائق الكلية وفهم العقائد والإيديولوجيات المعقدة.

إنه عقل كبلته قيود المادة فاكتفى بما يحيط به من ظواهر محسوسة دون النفاذ إلى ما وراء الطبيعة، ولا استعياب لحقائق الوجود المجردة والكلية والإلهية.

السذاجة هي الغالبة على تفكير البدوي، والعادة هي المسيطرة على العقل، والبدوي بالتالي عاجز عن احتمال فكرة الله خالصة مجردة من التمثيل بأي شيء مما هو قريب إليه

وملامس له. وعقيدة الجاهليين- وهذا ما نثبته من خلال ممارسة طقوس عبادتهم- عقيدة غير ثابتة الأركان، ولا تقوم على أساس واضح من أسس الإيديولوجية الواعية. وإنما هي مجرد عقيدة بدائية تنسجم إلى حد بعيد مع حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية البعيدة عن التخصص والتقدم والعمق والشمول.

من هنا فإن عاطفة المشركين الدينية وكما سيتضح لك، عاطفة تشبه إلى حد بعيد تلك العاطفة الدينية التي سيطرت على أفئدة المجتمعات البشرية الأخرى في طور بداوتها وبدء تحضرها وتطورها.

إن ديانة العرب قبل الإسلام، كانت تتميز بالتشتت والتجزؤ نظراً لكونها ديانة قبلية تعتمد في المقام الأول على المعبود الخاص بكل قبيلة، سواء تمثل هذا المعبود في الأصنام والأوثان أو في الكواكب وظواهر الطبيعية، أو في الأرواح التي تسكن هذه الأشياء جميعاً. وهي في مجملها عبادات مورست بشكل ساذج وسطحي من قبل العرب. ومعنى هذا أن العرب لم يكن لديهم إحساس ديني عام يمكن أن يجمع شملهم ويقترب بهم من درجة التوحيد الديني أو حتى الالتفاف حول عدد رئيسي للمعبودات بدلاً من تشتتها وتبعثرها بهذا الشكل. فهذا الإحساس الديني الجماعي هو الذي تقوم الدول والحضارات- ضمن ما تقوم- على أساسه نظراً لاشتماله على وعي الأمة بذاتها وتميزها عن غيرها، وعن قدرتها على أن يكون لها دور مؤثر في الكون من حولها، بمعنى أن يكون لها ذات تاريخية خاصة.

جزيرة العرب وسكانها في القديم

غالباً ما يطلق على البقعة الجغرافية التي تواجد عليها العرب، اسم جزيرة العرب. ويعلل الجغرافيون تسميتها بالجزيرة بقولهم: «لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أطرافها وأقطارها فصاروا فيها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك لأن الفرات يقبل من بلاد الروم ماراً ببلدة قنسرين ثم ينحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى إذا قارب البصرة اتحد بدجلة وصبا معاً في خليج عمان من بحر الهند، ويأخذ البحر في ذلك الوضع مضرياً طائفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها إلى بلاد عمان والشجر وحضرموت إلى تهائم اليمن، ويمضي إلى ساحل مكة وساحل المدينة ثم ساحل الطور وخليج أيلة وخليج القلزم والنيل حتى بحر الروم الذي تقع عليه سواحل الأردن وبيروت وسواحل دمشق وسواحل قنسرين وهي الناحية التي آقبل منها الفرات منحطاً إلى أعلى أطراف الجزيرة وسواد العراق».[1]

وللجزيرة العربية التي تقع بين آسيا وأفريقيا من الاتساع والصفات المميزة والخصائص ما يجعلها جديرة بأن تكون قارة لوحدها. ويمكننا أن نصف بلاد العرب بأنها هضبة مرتفعة لا يقل ارتفاع أي جزء فيها عن ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر. والقسم الأكبر من هذه الهضبة هو واحات وأغوار تتجمع فيها الأمطار، وهذا ما اصطلح على تسميته بالبادية. آما الوديان والمنحدرات فهي قليلة، وكثيراً ما تقع على الأطراف. وأما الجبال والتلال والأراضي الصخرية فإنها غالباً ما تقع شمالي غربي الجزيرة العربية على تخوم بلاد الشام، ومحاذاة ساحل البحر الأحمر. وفي الغالب يبدو آن سطح جزيرة العرب يتجه انحداراً من الغرب إلى الشرق، وبين الغرب والشرق تقع مساحات شاسعة من الهضاب والصحارى والدارات. ويمكن تقسيم طبيعة بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام:

١- راجع معجم البلدان لياقوت الحموي، وصفة جزيرة العرب للهمداني.

١- المناطق الصخرية في الشمال، أي جنوبي بادية الشام حيث مملكة الأنباط.

٢- المناطق الخضراء، وهي المسماة بلاد العرب السعيدة، أو اليمن السعيد.

٣- المناطق الصحراوية، وهي تشكل غالبية الأراضي، وهي تتوزع في الشمال والوسط والجنوب. ونظراً إلى كون الأرض الصحراوية هي السواد الأعظم من بلاد العرب، فإنها تتنوع وتختلف من موضع لآخر.

١- الحرات:

وهي الصحراء ذات الحجارة السوداء المنخورة وكأنها محروقة بالنار. هذه الحجارة مستديرة الشكل، ومنها المستطيل، وهي جميعها تكونت بفعل ما قذفته البراكين من جوفها. هذه أراضٍ كثيرة في بلاد العرب، وهي تمتد من شرقي حوران حتى المدينة.

٢- الدهناء:

وهي الصحراء التي تمتد من صحراء النفوذ شمالاً إلى حضرموت جنوباً، ومن اليمن غرباً إلى عمان شرقاً. وتقدر مساحتها بـ ٥٠ ألف ميل مربع، وتعرف الأجزاء الجنوبية منها بالربع الخالي. وهي أراضٍ جافة وخالية من الأمطار والمياه، ومع ذلك فإذا حصل وسقطت فيها الأمطار نبت فيها العشب.

٣- النفوذ:

وهي الصحراء التي تمتاز برمالها الناعمة اللينة والتي يصعب على المرء اختراقها، وتعلو كثبانها أحياناً نحو ١٥٠م، وتمتد على مساحة كبيرة حيث يبلغ طولها نحو ٤٥٠ كلم من الشمال إلى الشرق، وعرضها نحو ٢٥٠ كلم من واحة الجوف إلى نجد.[١]

ويقسم العرب بلادهم خمسة أقسام كبرى هي:

١- اليمن:

سميت اليمن يمناً لأنها- على حد قول البعض- تقع على يمين الكعبة، أو لأنها بلاد اليُمن والخير والبركة على حد قول الآخرين. وكان القدماء يسمونها بلاد العرب السعيدة أو اليمن الخضراء.

١- اديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام - د.سميح دغيم، بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٩٥- ص ١٥- ١٦.

ويقول الهمداني: «وسميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها» ويمتد اليمن على طول المحيط الهندي يحدها الحجاز من الشمال والبحر الأحمر من الغرب.

وتتكون من عدة أقسام أهمها حضرموت وشحر وعمان ونجران، وأهم مدنها صنعاء، وتشتهر شحر بإنتاج البخور، وشهرة اليمن قديمة جداً ويذكر «استرابون» أن شهرة اليمن وغناها بالخيرات أغرت الاسكندر المكدوني بغزوها، ولكنه أجل مشروعه هذا لما بعد عودته من الهند، وما لبث أن عاجلته المنية ولم ينفذ رغبته.

واليمن مدينة بخصبها وازدهارها إلى الجبال المنتشرة على قسم كبير من سطحها، هذه الجبال التي تصد الرياح الموسمية فتهطل عليها المطار وتحيي الزروع والأشجار المختلفة.

٢- الحجاز:

وسمي بالحجاز لأنه يقف كحاجز بين نجد وتهامة، ويقال أيضاً أنه سمي بهذا الاسم لأنه يحجز بين اليمن والشام وفيه سلسلة جبال السراة التي تمتد من اليمن إلى الشام.

ومكة والمدينة أهم مدن الحجاز ففي أولاهما الكعبة وهي مكان ولادة الرسول الكريم، والمدينة هي مكان هجرته ويؤوي ترابها جسده الطاهر.

وتسمى مكة «بكة» أيضاً وهي قديمة جداً عرفها اليونان باسم Macoraba. أما المدينة فتعرف أيضاً باسم طيبة وكانت تسمى قبل هجرة الرسول إليها بيثرب. وإلى الشمال منها يقع جبل أُحُد المشهور.

٣- تهامة:

ويطلق هذا الاسم على الأرض الممتدة من غرب جبال السراة إلى ساحل البحر الأحمر. وسميت بهذا الاسم من التَّهَم وهو شدة الحر وركود الريح. وتسمى أيضاً بالغور وذلك لأن أرضها منخفضة. ومنها تمر القوافل التجارية التي تسلك الطريق العربي الذي يمتد متاخماً للبحر الأحمر. وأهم مدنها جدة التي بناها عثمان بن عفان وهي ميناء مكة، وينبع وهي ميناء المدينة.

٤- نجد:

وتشمل المنطقة التي تقع شرقي الحجاز وتمتد حتى الخليج العربي، وقد سميت نجد بهذا الاسم بسبب ارتفاع أرضها. ويتصور الكثير من الناس أن نجداً قاحلة تماماً، وهذا خطأ إذ إن نجداً تشتهر بمراعيها التي تُربى فيها أشهر الخيول العربية.

٥- العروض:

وتعرف باليمامة، وقد سميت بالعروض لأنها تعترض ما بين نجد واليمن. وأما تسميتها باليمامة فراجع إلى أن اليمامة أشهر مدنها وتعتبر البحرين في تقسيمنا آنف الذكر جزءاً من العروض وتسمى أيضاً بهجر.

ويبدو أن نجداً واليمامة كانتا في الماضي غنيتين بمزروعاتهما ويقال أنهما كانتا تسدان حاجة العرب من القمح.[1]

المناخ:

إن الطقس في معظم أجزاء الجزيرة يقترب من الاعتدال، إلا أن الصيف فصل قائظ في الجزيرة تبلغ الحرارة فيه في بعض الأمكنة «٥٠» درجة مئوية. وفي المناطق الرطبة يتشكل الضباب ويكثر الندى، بينما تظل الشمس مشرقة طول فصول السنة في الأقسام الداخلية من الجزيرة، ولا تغيب إلا نادراً بسبب العواصف أو سقوط زخات من المطر. وهكذا نرى أن طقس الجزيرة ليس سيئاً إلى الدرجة التي يصوره بها الكثيرون. وفي الخريف يعتدل الطقس ويصبح جميلاً لا قسوة فيه. أما الشتاء فمعتدل في معظم المناطق، ما عدا المناطق المرتفعة التي يكون الطقس فيها شديد البرودة ويكلل الثلج رؤوس الجبال، والمناطق الشمالية التي تتميز بالرياح الباردة.

وتهب على الجزيرة رياح تختل باختلاف المناطق والبحار التي تجاورها. وتسود الصحارى أرض الجزيرة العربية بسبب قلة سقوط الأمطار لاسيما في أواسط البلاد. وقد تتحبس أحياناً لمدة طويلة فتؤدي إلى أضرار هائلة، حيث تجف الأعشاب فلا تجد الإبل مرعى لها، وقد يهلك الكثير من البدو وهم يفتشون عن المياه للشرب.

وفي المناطق الغربية والجنوبية، فإن الأمطار تتساقط بغير انتظام، مما يؤدي أحياناً إلى سيول جارفة، تحدثت عنها كتب المؤرخين مثل السيل الذي ذهب بعاصمة اليمامة.[2]

بيد أن هناك أراضٍ خصبة كتلك الموجودة في بلاد اليمن وحضرموت في الجنوب، وجبال الطائف قرب مكة، والمدينة المنورة في الشمال، واليمامة في الجنوب الشرقي. وأكثر المناطق نصيباً من الأمطار هي المناطق المعرضة للرياح الموسمية.

١ـ د. نبيه العاقل. ـ تاريخ العرب القديم والعصر الجاهل ـ جامعة دمشق ١٩٨٢ـ ص ٢٥ـ ٢٧.

٢ـ اديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، د.سميح دغيم، بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٩٥، ص ١٧

المياه:

على الرغم من أنه لا يوجد في الجزيرة العربية نهر كبير دائم الجريان، فإن بعض أجزاء الوديان في الجنوب تظل ممتلئة بالماء طوال السنة وذلك بسبب وقوعها في منطقة الرياح الموسمية التي تجلب الأمطار الموسمية الغزيرة.

وأشهر وديان الجزيرة العربية هو وادي السرحان ويبلغ طوله ٣٠٠ كم تقريباً وعرضه بين ٥٠- ٧٠ كم وتصب فيه وديان صغيرة على طول مجراه. وهناك واد آخر اسمه وادي الحمض يصب بالبحر الأحمر وترفده روافد من الشرق تنبع من حرات خيبر، وبعد مسافة قصيرة باتجاه الشرق يقع منبع وادي الرُمة الذي يصب القسم الأسفل منه المعروف باسم الباطن في الخليج العربي قرب البصرة.

والباطن هذا الذي قلنا إنه يتصل بوادي الرمة تقطعه صحراء الدهناء في بعض أقسامه. وتنحدر من جبال السراة ثلاثة وديان كبيرة وتقترب من وادي الدواسر وتصب فيه مياهها في أوقات الفيضان، ولكن ما تلبث مياه الدواسر هذا أن تغيب في رمال الربع الخالي.

ومن جبال اليمن تسيل وديان كثيرة باتجاه الجنوب حتى تصل إلى الشاطئ المجاور لعدن ومن بينها وادي تُبان وبنى وغيرها. ومن المرتفعات الجنوبية لمنطقة الجول ينبع وادي ميفعة ووادي حجر. ووادي حجر هذا هو النهر الوحيد الدائم الجريان في الجزيرة العربية، ولكن هذا النهر لا يعد من الأنهر الطويلة إذ إن طوله لا يتجاوز المئة كيلومتر. وهناك وديان كثيرة أخرى في الجنوب أهمها وادي حضرموت الذي تغذيه وديان صغيرة كثيرة تنبع من شمال وجنوب الجَوْل، ووادي سمائل الذي يصب في خليج عمان، ووديان الباطنة وغيرها.

وإلى جانب هذه الوديان يوجد في الجزيرة العربية عدد من البحيرات يقع أهمها في مناطق الخَرجْ والأفلاج. وتتشكل هذه البحيرات أيضاً في بعض الواحات كواحة الحسا بنتيجة تجمع مياه السقاية. وليس كل هذه البحيرات مليء بالماء، فبعضها جافة ولا تمتلئ بالماء إلا في فترات تساقط المطار.

والمصدر الثالث للمياه في الجزيرة العربية هي الآبار التي يوجد عدد كبير منها في الصحارى «حتى الربع الخالي مثلاً» والتي يستقي منها البدو.

والمصدر الأخير للماء في الجزيرة هي العيون التي توجد في الواحات والتي تقوم حولها في العادة حياة مستقرة وفي بعض الواحات الكبيرة تقوم عدة قرى تحيطها في الغالب أشجار النخيل. وتبلغ مساحات بعض هذه الواحات الكبيرة عشرات أو مئات الكيلومترات المربعة. وأهم هذه الواحات الحسا وفيها مدينتان كبيرتان هما الهفوف والمبرّز، وواحة بيشة وأهم مدنها الروَشَن ونمِران.

نباتات الجزيرة:

إن جفاف الهواء وملوحة التربة يحولان دون نمو النباتات وازدهارها وأشهر النباتات في الحجاز النخيل، أما القمح فيزرع في اليمن وفي بعض الواحات كما يزرع الشعير والذرة في بعض المناطق والأرز في عمان والحسا. وفي الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي يعيش شجر اللبان ولاسيما في مهرة.

وقد كان للبان دور مهم في تجارة اليمن والجنوب بشكل عام منذ أقدم العصور. وينبت الصمغ العربي في منطقة عسير، أما شجرة البن التي تشتهر في اليمن فقد دخلت إلى بلاد العرب في القرن الرابع عشر الميلادي. وقد دخلت أشجار الكرمة إلى الجزيرة في نحو القرن الرابع الميلادي وأشهر مناطق الكرمة في الطائف ويستخرج منها الشراب المعروف بنبيذ الزبيب، وأما الخمرة التي يرد ذكرها في الشعر الجاهلي فقد كانت تستورد من سورية والعراق. والواحات الخصبة في الجزيرة تنتج الفواكة والرمان والمشمش واللوز وقصب السكر والبطيخ والبرتقال وغير ذلك.

حيوانات الجزيرة العربية:

أشهر أنواع الحيوانات البرية التي تعيش في الجزيرة العربية هي النمر والفهد والضبع والذئب والثعلب والضب. أما الأسد الذي تكثر الإشارة إليه في الشعر القديم فقد انقرض الآن ولم يعد له وجود.

أما الحيوانات الأليفة فأشهر ما ويوجد منها في الجزيرة الإبل والخيل والشياه والماعز والحمير والبقر والجاموس والبغال والقردة والنسانيس والكلاب. ومن الطيور الكواسر في الجزيرة العقاب والبازي والصقر والبوم، هذا إلى جانب الهدهد والقبرة والعندليب والحمام والقطا والغراب والبجع وغير ذلك.[1]

إن أهمية العوامل الطبيعية تبدو جلية واضحة ليس فقط في مسألة تقسيم العمل ووجوه المعاش وتكوّن المجتمعات، بل أيضاً في طبيعة التفكير وتكوّن البنى الذهبية وتفتح الآفاق المعرفية.

١ـ د. نبيه العاقل. ـ تاريخ العرب القديم والعصر الجاهل. جامعة دمشق ١٩٨٢، ص١٩ـ ٢٤.

الساميون والعرب:

ثمة صفات مشتركة يتميز بها معظم سكان الشرق الأوسط منذ القديم، وهذه الصفات المشتركة عامة بين الذين يعيشون في هذه المنطقة وتميزهم عن سكان البلاد الأخرى المجاورة. وهذه الخصائص المشتركة لا تقتصر على ناحية واحدة فحسب بل نرى أن اللغات التي يتكلم بها هؤلاء السكان تشترك في كثير من الخصائص والقواعد، كما أن عاداتهم الاجتماعية وأفكارهم السياسية وطرق معاشهم فيها الكثير من التشابه، مما حمل الكثير من العلماء على القول بأن هذا التشابه راجع إلى تحدرهم من أصل واحد دعوه بالجنس السامي. وأقدم ذكر للساميين يرد في سفر التكوين «١٠- ١١» في التوراة حيث نقرأ أنه كان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد تحدر منهم البشر بعد الطوفان، وهؤلاء الأولاد هم سام وحام ويافث، والساميون حسب هذه الرواية هم أحفاد سام بن نوح وقد سكنوا في منطقة الشرق الأوسط وتكاثروا وانقسموا إلى أقسام فرعية وقبائل.

وعلى الرغم من أنه من العسير علينا أن نجزم بالقيمة التاريخية لقصة التوراة وأولاد نوح، فإن هذه القصة توضح قدم الخصائص المشتركة التي يتميز بها سكان الشرق الأوسط. غير أن ما جاء في التوراة عن أصل الساميين ظل مقبولاً عند الناس واعتمد عليه النسابون العرب في كتبهم عن الأنساب وفي تصانيفهم للقبائل العربية، وسنعود لرأي النسابين العرب في فقرة قادمة من بحثنا هذا.

وتجدر الإشارة هنا أن رأي المستشرق الفرنسي «أرنست رينان» في أصل الجنس السامي، فقد ألف هذا المستشرق في منتصف القرن الماضي كتباً عن أديان الساميين ذكر فيه أن الساميين منحدرون من أصل واحد يتميز أفراده بتشابه لغاتهم وعقليتهم ونظرتهم الجزئية غير المجملة إلى الأشياء وتأثرهم بالغيبيات وميلهم إلى البساطة في التفكير وإلى الوحدانية في الدين، ويعلل ظهور الأديان الموحدة الثلاثة الكبرى بينهم بأنه أمر متناسق مع طبيعة تفكيرهم. ويؤكد رينان أن الصفات التي تتميز بها العقلية السامية ترجع إلى عوامل بيولوجية موروثة من الجنس الذي ينحدرون منه ولذلك فهو يعتبرهم مختلفين أساساً عن الآريين. وليس من شك في أن رينان كان متأثراً بالنظريات القومية التي كانت تسود القرن التاسع عشر، وبالروح الاستعمارية التي سادت أوربا في هذا القرن والتي جعلتهم يعتقدون باختلاق التركيب البيولوجي بين الساميين والأوربيين الآريين، وبالتالي اعتقدوا بتفوق الأوربيين العقلي وبأحقيتهم في حكم من هم دونهم عقلياً من الشعوب.

غير أن علماء الأنثروبولوجيا ودارسي الشعوب لم يوافقوا رينان على نظريته هذه، وبرهنوا بما لا يقبل الشك أنه ما من شعب يمكنه أن يبرهن على صفاء دمه وذلك لأن عملية تمازج الشعوب كانت عملية مستمرة منذ أقدم العصور بسبب الهجرات والتزاوج مما أدى إلى اختلاط دماء الأمم المختلفة بعضها ببعض. وهكذا فشعوب الشرق الأوسط لم تكن معزولة عن غيرها كما أنها لم تحافظ على نقاء دمها. يضاف إلى هذا أن اختلاف الشعوب في التفكير والنظر إلى الأمور لا ينتج عن صفات عرقية بل يرجع إلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية لهذا الشعب، كما يرجع إلى الموقع الجغرافي الذي يفرض ظروفاً مناخية وغيرها لها دور كبير في تكوين تفكيره. وحين نتحدث عن جنس ما فإننا لا ندعي صفاء دمه التام، ولكننا نقصد الصفات المشتركة التي تميز حضارته بكل مجالاتها. وأهم حقل تظهر فيه الخصائص المشتركة للجنس الواحد هو حقل اللغة، وهذا التشابه اللغوي هو أهم ما يميز الساميين.[1]

وهكذا نرى أن الأسس اللغوية هي نقطة الاستناد في تقسيم الشعوب، ويضاف إلى هذه الأسس اللغوية المميزات الحضارية المشتركة. وما عدا هذا فالشعوب تتمازج وتختلط وليس لجنس أن يدعي صفاء دمه.

والساميون يتكلمون بلغات مختلفة ولكنها ذات خصائص مشتركة كثيرة تميزها عن غيرها من اللغات وتحمل على الاعتقاد بأنها من أصل واحد. وأهم هذه الخصائص وجود عدد كبير من الكلمات المشتركة الأساس فيها الفعل الماضي. ويتشابه في هذه اللغات تصريف الأفعال، وأصول الكلمات مكونة في الغالب من ثلاثة أحرف، والفعل هو أساس الجملة وعليه يتوقف الاسم والضمير. وليس في هذه اللغات إلا صيغتان هما صيغة التأنيث والتذكير، وليس فيها صيغة ثالثة كالـ Neuter Gender في الإنكليزية، إلى غير ذلك من الصفات المشتركة في حقل اللغة كالكلمات الدالة على القرابة الدموية والأعداد، وبعض أسماء أعضاء الجسم، وكلها تتشابه تشابهاً يكاد يكون تاماً. والقرابة أو التشابه اللغوي ليس إلا مظهراً واحداً من مظاهر الوحدة الجنسية بين الساميين، هذه الوحدة التي تتجلى في النظم الاجتماعية المتشابهة والعقائد الدينية واتقاد المخيلة وقوة الشعور الفردي والقسوة وغير ذلك.

وقد ظهرت نظريات متعددة في أصل الساميين من أقدمها نظرية المستشرق الإيطالي «إغناس غويدي» الذي قارن بين اللغات السامية المتعددة فوجد أن أغلب الكلمات التي تدل

١ـ د. نبيه العاقل. ـ تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي. جامعة دمشق ١٩٨٢، ص ٧ـ ٨.

على السهول والمياه والنباتات مشتركة بين هذه اللغات، فاستنتج من ذلك أن هذه اللغات كان يتكلم بها في الأصل أقوام يسكنون في مناطق سهلية غزيرة المياه والنبات، ومن هذا وصل إلى القول بأن العراق هو مهد الساميين لأنه أقرب منطقة تتوفر فيها هذه الظواهر الطبيعية. وقال بهذه النظرية أيضاً آخرون متأثرين برواية العهد القديم التي تقول إن سفينة نوح رست بعد الطوفان على الجودي في شمال العراق، ومن هناك انتشر الناس وتكاثروا.

والاعتراض الذي يمكن أن يثار في وجه هذه النظرية هو أن «غويدي» لا يشرح لنا كيف ولماذا تتم عملية غير معقولة كعملية هجرة الناس من منطقة خصبة كالعراق إلى منطقة قاحلة كالجزيرة العربية. يضاف إلى هذا أن التاريخ يعلمنا أن الناس كانوا يهاجرون من الجزيرة العربية إلى العراق لا العكس. وهذا أمر منطقي يمليه الواقع الجغرافي للمنطقتين. يضاف إلى هذا أن «غويدي» لم يطلع على الدراسات الجيولوجية والجغرافية الحديثة لتي أثبتت أنه كان في الجزيرة العربية مناطق وفيرة المياه كثيرة المزروعات.[1]

والنظرية الثانية في أصل الساميين هي نظرية «بارتون». وقد درس هذا العالم اللغة الحامية وقارنها بالسامية فوجد تشابهاً بينهما في بعض الكلمات والصيغ، فاستنتج من هذا التشابه أن الساميين والحاميين انحدورا من أصل واحد ثم تفرعوا إلى شعبين. وادعى أن أنسب منطقة ملائمة لسكنى «الأصل» الذي انحدر منه الساميون والحاميون هو شرق آفريقيا في منطقة الصومال وارتيريا حيث يسهل عبور الساميين إلى بلاد العرب عن طريق باب المندب وكذلك انتشار الحاميين في أفريقيا. ومعلوم تاريخياً أنه قامت صلات وعلاقات خلال العصور بين اليمنيين وأفريقيا الشرقية مما أكسب سكان هذين الإقليمين صفات لغوية وجسدية متشابهة.

والتسليم بهذه النظرية غير ممكن فالكلمات والقواعد المشتركة بين اللغتين السامية والحامية أقل مما يكفي لحملنا على الاعتقاد بأصلهما المشترك.

والنظرية الثالثة في أصل الساميين هي نظرية «وينكلر وكايتاني» التي تقول إن الجزيرة العربية كانت أرضاً خصبة في تاريخها القديم وأنها مهد العرق السامي. ويبني هذان العالمان نظريتهما على ما اكتشف من وجود آثار مياه ونباتات في الجزيرة. ففي شباط من عام ١٩٣١ تمكن إنجليزي اسمه «برترام توماس» من آن يخترق الربع الخالي فوجد بقايا بحيرة عند منخفض «أبو بحر» وآثار نباتات وحيوانات عند جبل العترا. يضاف إلى هذا آن وادي الرمة ما

١- د. نبيه العاقل. - تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي. جامعة دمشق ١٩٨٢، ص ٩- ١٠.

زال مليئاً بالصخور الرسوبية والحصى مما يدل على أنه كان في القديم مجرى نهر غزير المياه، كما أن الفيلة كانت تعيش في الألف الثانية قبل الميلاد في سورية وأن الأسود كانت كثيرة في العراق وشمال الحجاز. ويقول علماء الجيولوجيا إن مناخ العالم في العصور القديمة لم يكن كما هو عليه اليوم، ففي عصر الميوسين كان مناخ الجزيرة العربية يشبه مناخ الهند اليوم من حيث الدفء وكثرة الرطوبة وغزارة الأمطار وكلها عوامل تساعد على سكنى البشر. لذلك كله يرجح هذان العالمان أن الساميين كانوا يقطنون في الأصل الجزيرة العربية، فلما تغير المناخ تدريجياً وبدأ الجفاف يغزو أرضها تناقص عدد السكان وانتقلوا إلى حياة البداوة وهاجر عدد منهم إلى أطراف الجزيرة حيث الخصب والماء الوفير.

وتحظى هذه النظرية بالقبول، وأهم الحجج التي يوردها مؤيدو هذه النظرية هي التالية:

١- إن العرب منذ أقدم العصور كانوا أوفر الأمم حظاً من الصفات والعادات الاجتماعية التي يتصف بها الساميون، ولغتهم أقرب اللغات إلى الأصل السامي وأنقاها.

٢- الصحارى تشغل الجزء الأكبر من الجزيرة العربية. وحين يزداد عدد السكان عن طاقة الأرض واحتمالها وما يستطيع إنتاجه من مواد الغذاء، كان على الفائضين أن يبحثوا لهم عن مجال حيوي يمدهم بالغذاء ووسائل المعاش، ولم يكن باستطاعتهم أن يجدوا هذا المجال الجديد ضمن الجزيرة أو في قلبها بسبب الطبيعة الصحراوية السائدة في أغلب أجزاء الجزيرة الداخلية، لذلك كانوا يسلكون طريق الساحل الغربي للجزيرة فينطلقون نحو الشمال إلى سيناء ومنها إلى وادي النيل الخصيب. وقد سلك هذا الطريق، طريق إفريقية الشرقية، فريق من الساميين نحو سنة ٣٥٠٠ ق. م واستقروا في مصر مع سكانها الحاميين وتمازجوا معهم، وظهر من هذا المزيج المصريون القدماء الذين ساهموا بقسط وافر في الحضارة الإنسانية. وفي نفس الفترة أي نحو أواسط الألف الرابع قبل الميلاد هاجر الأكاديون الذين استوطنوا العراق وكونوا الدولة الأكادية التي استطاعت في زمن الملك سرجون الأول آن توحد العراق وأن تمد نفوذها إلى أعالي دجلة. ولما حل الساميون في وادي الرافدين الذي كان يسكنه السومريون المتحضرون، كانوا في حالة بداوة وجهل ولكنهم ما لبثوا أن تعلموا من السومريين فن بناء المنازل ووسائل الري والكتابة وغير ذلك. ومن اختلاط السومريين غير الساميين بالموجة السامية الجديدة نتج البابليون الذين قدموا للحضارة الإنسانية الكثير من ميراثها الثقافي.

ونحو منتصف الألف الثالثة ق. م «٢٥٠٠ ق. م» حدثت هجرة سامية أخرى حملت العموريين إلى الهلال الخصيب، كما حل الكنعانيون والفينيقيون غربي الشام وفلسطين.

وبين سنتي ١٥٠٠- ١٢٠٠ ق. م هاجر الآراميون «السريان» على الشمال وحلوا في منطقة سورية ولبنان.

ونحو سنة ٥٠٠ ق. م حل الأنباط في الأرض الواقعة إلى الشمال الشرقي من شبه جزيرة سيناء في منطقة وادي موسى وأنشأوا عاصمتهم البتراء. كما حل التدمريون في الصحراء السورية وأنشأوا حضارة مزدهرة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم.

وفي القرن السابع للميلاد اندفعت الموجة الأخيرة من قلب الجزيرة العربية فخرج العرب يحملون راية الإسلام، ونشروا الدين الجديد في بقاع واسعة من المعمورة.

وقد أدت هذه الهجرات إلى نتيجتين:

أولاً: تخلي هؤلاء المهاجرين البداة عن بداوتهم واستقرارهم.

ثانياً: اصطدام مؤسساتهم الحضارية ونظمهم الاجتماعية بنظم الأمم الجديدة التي عاشوا إلى جوارها.

وقد نتج عن هذا التصادم ظهور مدنيات جديدة متقدمة على حضارة الصحراء التي اندفع منها الساميون. ولابد لنا هنا من أن نذكر أن الدراسة العميقة لهذه الهجرات تبين لنا بوضوح قوة اللغة السامية وقدرتها على البقاء، إذ إنه في كل مرة كانت تصطدم فيها هذه اللغة بلغة أخرى كانت تثبت أنها أقدر على البقاء منها وأنها أكثر ملاءمة لحاجات الحياة.[1]

أصل العرب:

لقد وضع النسابون العرب نظاماً مفصلاً دقيقاً يشرح أصل أمتهم. وعلى الرغم مما في هذا النظام من بعض النقاط الضعيفة أو الغامضة، والفجوات التي لا يمكن سدها، والمتناقضات التي لا يتم معها انسجام النظام ولاسيما بالنسبة للفترة القديمة من تاريخ الأمة العربية، فإن النظام بمجموعه يبدو متماسكاً ومقبولاً. ولا تأتي قيمة هذا النظام من كونه نظرية وضعها علماء الأنساب العرب وعلينا نحن في الوقت الحاضر أن ندرسها ونتعرف عليها، بل تأتي من كونه كان الإطار الذي انتظم وأثر في الحياة السياسية والاجتماعية للأمة العربية خلال مراحل تاريخها منذ الجاهلية حتى ما بعد قيام الإسلام.

يرى النسابون العرب، أن العرب «عرق» لا جماعة من الناس فقط يتكلمون لغة واحدة. ويتألف هذا العرق من عدد من الرجال والنساء لا حصر لهم ينحدرون من أحد جدين «قحطان

١- د. نبيه العاقل. - تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي. جامعة دمشق ١٩٨٢، ص ١١-١٢.

وعدنان» لا نعلم ما إذا كانا- أي هذين الجدين- يمتان لبعضهما بصلة القرابة أم لا. وهناك خلاف كبير بين النسابين حول نوعية الصلة أو القرابة التي تربط بين هذين الجدين اللذين ينحدر منهما العرق العربي.

يبدأ النظام الذي وضعه النسابون العرب بالقبائل التي كانت في نظرهم السكان الأصليين للجزيرة العربية: عاد وثمود، إرم، جرهم، وطسم، وجديس، التي انقرضت كلها قبل ظهور الإسلام. وعلى الرغم من الشك الذي يبديه بعض المؤرخين حول وجود قبائل كعاد وإرم، فإن القبائل الأخرى كثمود وغيرها لا خلاف مطلقاً على حقيقة وجودها التاريخي. أما معلوماتنا عن هذه القبائل فقليلة جداً ويكتنفها في أغلب الأحيان الغموض، وكل ما يمكننا أن نقوله بثقة إن هذه القبائل كانت قبائل عربية وتعرف باسم «العرب البائدة».

وقد أوقع الله بهذه القبائل الشر وأبادهم لأنهم عصوا أنبياءهم ولم يسيروا في الطريق السوي التي أمر بها الله.

وبما أن جميع الناس ينحدرون من «آدم»، فإنه لابد من وجود قرابة- ولو بعيدة- بين هذين الجدين «قحطان وعدنان». مسألة القرابة بينهما تتوقف على ما إذا كان أن قحطان هذا من نسل إسماعيل الذي هو جد عدنان. وتكاد تجمع كلمة النسابين على قحطان ليس من نسل إسماعيل ويعيدون نسبه إلى سام بن نوح. والعرب الذين انحدروا من نسل قحطان هم الذين يطلق عليهم النسابون اسم العرب العاربة أو العرب العرباء «أي العرب الحقيقيين» وأما نسل عدنان فهم العرب المستعربة أم المتعربة «أي الذين لم يكونوا عرباً واستعربوا».

هذا التقسيم للعرب هو التقسيم الأكثر شيوعاً بين النسابين، وهناك تقسيمات آخرى تعطي اسم العرب العاربة للعرب البائدة والذين انحدروا من نسل قحطان. وهناك تقسيم ثالث يسمي العرب المنحدرين من نسل قحطان باسم العرب المتعربة، والمنحدرين من نسل قحطان هم أقرب إلى الصفاء العرقي من نسل عدنان آو بكلمة أخرى هم العرب الأصليون.

إن نسل قحطان هم عرب الجنوب «قبائل اليمن» الذين نشأوا في الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة، في حين أن نسل عدنان هم عرب الشمال الذين ظهروا أول ما ظهروا في القسم الشمالي من الجزيرة. ولسنا نملك من الأدلة العلمية ما يثبت صحة هذا التقسيم أو بطلانه، وهناك بعض المعلومات الثابتة الصحة التي تتناقض مع بعض تفاصيل هذا التقسيم. فمثلاً هناك ما يثبت أن السبئيين كانوا يسكنون الشمال في أول الأمر وهاجروا من شمال الجزيرة واستقروا في الجنوب وأقاموا مملكتهم في اليمن، في حين أن النسابين العرب يقولون إن سبأ هو حفيد قحطان ووالد حمير وكهلان الفرعين الرئيسيين لعرب الجنوب.

والشعوب التي عاشت في كنف الدول التي قامت في جنوبي الجزيرة- كسبأ ومعين وغيرها- كانت تعتبر كأحفاد لحمير، لهذا أصبح للفظة «حمير» في اللغة العربية معنى يدل على جميع مرافق حضارة دول الجنوب. ولم يلعب هؤلاء الذين انحدروا من صلب حمير دوراً مهماً في الفترة الإسلامية، بل لعب الدور المهم في هذه الفترة أحفاد كهلان الذين كان من بينهم قبائل طيء ومذحج وهمذان والأزد. ومن فروع الأزد قبيلتا الأوس والخزرج اللتين سكنتا المدينة وأصبحتا بعد قيام الإسلام تعرفان باسم الأنصار. أما لخم وغسان وكندة وقبائل أخرى من نسل كهلان فقد استقرت في الوسط وفي الشمال قبل قيام الإسلام لمدة طويلة. وهكذا نرى أنه في القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديين كانت قبائل كثيرة من أصل جنوبي تقيم في الشمال، وربما أكثر شمالاً من قبائل الشمال نفسها.

أما عدنان جد عرب الشمال فتكتنف قصة حياته ظلال تجعلها أكثر غموضاً من قصة حياة قحطان لذلك كثيراً ما أرجع عرب الشمال نسبهم إلى معد بن عدنان، أو حتى إلى حفيده «أي حفيد عدنان» نزار. وإلى مضر وربيعة ابنا نزار ينتسب الفرعان الرئيسيان لعرب الشمال، أما أحفاد الابن الثالث لنزار وهو إياد فقد طمس ذكرهم ولم نعد نسمع عنهم منذ قيام الإسلام. وتحتل قيس عيلان- أحد القسمين الكبيرين اللذين تنقسم إليهما مضر- مكانة كبيرة في تاريخ عرب الشمال لدرجة أن كلمة «قيس» كانت تستعمل في كثير من الأحيان للدلالة على عرب الشمال بكاملهم.

وكان يتبع قيس بن عيلان قبائل هوازن وسليم. وإلى هوازن تنتسب قبائل ثقيف ومجموعة قبائل عامر بن صعصعة التي من قبائلها قُشَيْرٌ وعُقَيْل وجَعدة وكلاب وهلال. أما خِندف- وهي ثاني القسمين الذي تنقسم إليه مضر فتضم قبائل هذيل وتميم وكنانة «وقريش أحد فروع كنانة». وعلى الرغم من أن عرب الشمال لا يتمتعون بدم عربي أصيل كعرب الجنوب وعلى الرغم من أنهم مستعربون لا عاربة، فإن ظهور «محمد» خاتم الأنبياء من بينهم «من قريش» رفع مكانتهم بعد الإسلام وجعلهم في مكان الصدارة بين قبائل العرب.

ومن ربيعة انحدرت قبائل عنزة، عبد القيس، تغلب، ومجموعة قبائل بكر بن وائل التي كان منها قبيلة حنيفة. وقبل ظهور الإسلام بزمن طويل هاجرت قبائل من ربيعة ومضر من الجزيرة، فسكنت بعض قبائل مضر قرب الفرات في الأرض التي سميت مضر نسبة إليهم، وسكنت بعض قبائل ربيعة قرب دجلة في الأرض التي عرفت باسم ديار ربيعة نسبة إليهم أيضاً، وتخلفت بعض القبائل في شبه الجزيرة ولم تهاجر، فاستقرت هذيل قرب الطائف، وسُلَيمْ في الجبال التي تقع بين مكة والمدينة، بينما استقرت تميم وحنيفة وبعض قبائل عامر بن صعصعة في الوسط، وعبد القيس في الشرق.[1]

١- د. نبيه العاقل. - تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي. جامعة دمشق ١٩٨٢، ص ٣٤- ٣٥.

الأديان السماوية عند العرب قبل الإسلام

الحنيفية

حَنَفَ عن الشيء وتحنَّف عن الأديان أي يميل إلى الحق، وقيل:

هو الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملّة إبراهيم.. وقيل هو من أسلم في أمر الله فلم يَلْتوِ في شيء.

أبو زيد: الحنيف هو المستقيم.

وقال أبو عبيدة في قوله عزَّ وجلّ: ﴿...قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً...﴾[1]. وقال من كان على دين إبراهيم، فهو حنيف عند العرب. وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حنفاء على دين إبراهيم، فلما جاء الإسلام سمّوا المسلم حنيفاً.[2]

ومعنى الحنيفية في اللغة المَيْلُ، والمعنى أن إبراهيم حنَفَ إلى دين الله.

وفي الحديث: خلقت عبادي حنفاء أي طاهري الأعضاء من المعاصي..

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ...﴾[3]. وقيل أراد أنه خلقهم حنفاء مؤمنين لما أخذ عليهم الميثاق ألست بربكم، فلا يوجد أحد إلا مقر بأن له رباً وإن أشرك به، واختلفوا فيه...[4]

نستنتج مما تقدم أن الحنيفية ليست ديناً بالمعنى الذي هو عليه الإسلام والمسيحية واليهودية. صحيح أنها تقول بوحدانية الله، إلا أنها ليست ديانة كتاب أو وحي موحى. هي اعتقاد بوجود إله واحد أحد، دون أن يكون هناك وصايا أو تعاليم أو طقوس، ماعدا الحج إلى

١- سورة البقرة: الآية ١٣٥.

٢- أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام- د.سميح دغيم، بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٩٥، ص ٤٧.

٣- سورة التغابن: الآية ٢.

٤- راجع لسان العرب، ابن منظور، دار صادر- بيروت، مجلد ٩ ص ٥٧- ٥٨.

الكعبة، هذه الحركة الحنيفية ظهرت عند العرب قبل الإسلام، وخصوصاً عند أولئك الذين رفضوا عبادة الأوثان، ولم يعتنقوا المسيحية أو اليهودية، وسمي أتباعها بالأحناف أو الحنفاء، وكلها جمع لحنيف «صفة إبراهيم عليه السلام» الواردة في القرآن الكريم في الآيات التالية:

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وكلمة مسلمين هنا تعني الموقف التوحيدي المجسّد للإيمان المتعالي ولا تعني الإسلام كما عُرف فيما بعد نزول الوحي وتبلوره عقيدة عند الفقهاء والمتكلمين.[3]

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً...﴾[4].

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[5].

يبدو أن معظم ما نعرفه عن الحنيفية ومضمون تعاليمها مأخوذ من الكتب المقدسة، القرآن، الإنجيل، التوراة.

فمن خلال الكتاب المقدس، نتبين أن إبراهيم قد عاش فترة طويلة من الزمان في بلاد ما بين النهرين، ثم اتجه جنوباً نحو أرض الكنعانيين ثم إلى دمشق ومن ثم ينتقل إلى مصر.[6] ثم بعد مصر عاد إلى فلسطين أرض كنعان وهناك تزوج من سارة، ثم هبط بلاد الأردن. وهناك قدمت له سارة جاريتها «هاجر» لعله يأتي منها بولد، إذ إنها كبرت ولم ترزق البنين.

فلما حملت هاجر ووضعت إسماعيل، اغتمت سارة ودخلتها الغيرة، وطلبت من زوجها أن يحوّل هاجر إلى حيث شاء، فأُوحي إليه أن أحمل هاجر وإسماعيل إلى أرض الحرم. فسار إبراهيم

١- سورة البقرة: الآية ١٣٥.

٢- سورة آل عمران: الآية ٦٧.

٣- محمد أركون - الفكر الإسلامي نقد واجتهاد. دار الساقي، بيروت، ط٢ ١٩٩٢، ص ٥٤.

٤- سورة النساء: الآية ١٢٥

٥- سورة الأنعام: الآية ٧٩.

٦- أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، د.سميح دغيم، بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٩٥، ص ٥١.

بزوجه وولده إلى الحجاز ونزل قريباً من البيت، والبيت كأنه ربوة من آثار الطوفان. وأمر هاجر أن تتخذ عريشاً وقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ...﴾[1]. ثم انصرف إلى الشام.

وتفيد القصة أنه لم يكن بمكة بيت مشيد بعد، ولم يرفع هو وابنه قواعد البيت إلا لما زارها للمرة الثالثة وذلك بعد ثلاث وعشرين سنة من مفارقة إسماعيل، فقد اشتاق إليه حتى لقيه، وهنالك أوحى الله إليه أن ابنِ البيت المحرم. فأطلع ولده إسماعيل على هذا الأمر، وقاما يحفران عن القواعد ويقولان: ﴿...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2]. وكان إسماعيل ينقل الحجارة وإبراهيم الشيخ يبني حتى ارتفع البناء.[3]

لقد ذكر اسم إبراهيم في القرآن الكريم تسعاً وستين مرة، وأُطلق عليه صفة «خليل الله» ومؤسس الإسلام، وباني الكعبة.

ويبدو ومما تقدم أن هناك تطابقاً يكاد يكون تاماً حول اعتبار إبراهيم ﷺ أبو الأنبياء جميعاً، وهو أول مبشر بالألوهية ووحدانيتها. ويبدو أن ابنه إسماعيل من هاجر، هو الذي ينتسب إليه العرب، لا سيما أن ما ينقله رواة الحديث عن الرسول قوله لقوم من أسلم يتناضلون بالسوق «ارموا» يا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً.

وتوالت ذرية إسماعيل، وعظّم أبناؤه البيت الذي بناه جدهم ووالدهم، وأصبح محجة للناس. وقيل في معنى الحجر الأسود، أن البيت كاد ينتهي بناؤه، وكان ينقصه حجر واحد، فذهب الولد ليأتي بواحد، فإذا الأب قد ركّب حجراً مكانه أسود اللون، أتاه به جبريل.

هذه الروايات المنقولة عن الطبري والمسعودي يخالفها الشهرستاني في كتابه الملل والنحل، ويعتبر أن باني الكعبة هو «شيت» ابن آدم الذي قدم مكة، وأن الطوفان قد هدمها، فأعاد إبراهيم وابنه إسماعيل بناءها.[4]

طقوس الحنيفية:

يروي البعض، «الأزرقي» أنه بعد الفراغ من بناء البيت، طلب جبريل من إبراهيم وابنه إسماعيل أن يطوفا بالبيت سبعاً، ثم بعد الطواف أن يصليا خلف المقام ركعتين، ثم أرى جبريل إبراهيم المناسك كلها «الصفا- المروة ومنى ومزدلفة وعرفة».

١- سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

٢- سورة البقرة: الآية ١٢٧.

٣- أخبار مكة. - الأزرقي، ص ٢٦ تحقيق رشدي ملحس، دار الأندلس، مدريد.

٤- الشهرستاني، الملل والنحل، مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٦٨ ج ٣، ص ٧٦.

والعرب كانت تطوف بالبيت، وكان للتطواف سنَّة يجري عليها، لها عاداتها وتقاليدها حيث أبطلها الإسلام فيما بعد.

ومن طقوس الحنيفية أيضاً الرجم أي رمي الحجارة، حيث قيل فيها أن إبراهيم لما آتى المناسك، عرض له الشيطان عند حجرة العقبة فرماه بحصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له في الحجرة الثانية، ثم الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض.[١]

كذلك درجت العرب على كسوة الكعبة في الجاهلية، ولما جاء الإسلام أقرَّ بذلك. وكانت الأرض المحيطة بالكعبة، تعتبر أرضاً مقدسة لا يجوز القتال فيها، كما كانت أشهر الحج إليها أشهراً حراماً. وكان الناس يأتون الكعبة من مختلف الأقطار وهم على أديان ومعتقدات مختلفة. وكانوا يجلبون معهم الأضاحي قرباناً أو شكراً، وهم يتمثلون في ذلك واقعة إبراهيم الذي أُمر بالتضحية بابنه، فافتداه الله بكبش غنم.[٢]

وهكذا نرى أن الحنيفية انتشرت في بلاد العرب والحجاز خصوصاً بعد هجرة إسماعيل ابن إبراهيم ﷺ إليها من بلاد مصر وفلسطين، وبعد زواجه من قبيلة الجرهمية وحلول هؤلاء في واد قرب مكة، حيث هناك ماء زمزم. ويتكاثر ولد إسماعيل وينتشرون في شبه الجزيرة العربية وينشرون معهم اعتقادهم الحنيف. وبعد موت إسماعيل بقي الحج إلى مكة والطواف بالبيت، ومع الأيام اندثر هذا الاعتقاد وأخذت تخف وطأته شيئاً فشيئاً، وعادت عبادة الأصنام لتزدهر. والحقيقة أن أولئك الذين كانوا يظعنون من مكة كانوا يحملون معهم حجارة من الحرم العظيم، وأنى كانوا ينزلون كانوا ينصبونه، ويطوفون حوله كطوافهم حول الكعبة. لأجل ذلك كانوا يستنسبون من الأحجار ما يعجبهم ويجعلونها آلهتهم فيعبدونها.[٣]

١- الأب جرجس داود داود: أديان العرب قبل الإسلام ووجهها الحضاري والاجتماعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٩ ط٢. ص ٢١٥.

٢- أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، د.سميح دغيم، بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٩٥، ص ٥٣.

٣- المرجع السابق، ص ٥٤.

اليهودية

اليهودية هي أولى الديانات الكتابية الموحى بها. أي أن اليهود أهل كتاب «التوراة والتلمود» كالمسلمين «القرآن» والمسيحيين «الأناجيل». فالتوراة هو الأساس وجاء التلمود ليكمل أحكام التوراة ويشرحها. فقد قام أحبار اليهود بتسجيل هذه الشروحات، وقوامها مجموعة القواعد والأحكام والوصايا والشرائع والشروح والتعاليم والروايات التي تواترت شفاهة.[1]

وكان غير المتحنفين في بلاد العرب قبل الإسلام عدد كبير من اليهود والنصارى، وإن كانت الأكثرية عباد أوثان وكواكب.

ومن الصعب أن نتحقق تاريخياً من بدء وجود اليهود في الجزيرة العربية فالبعض من الثقات يظن أن وجودهم باليمن يرجع على أيام سليمان، والبعض إلى عهد سقوط القدس على يد نبوخذنصر[2]. ومن الجائز أن يكون نزوحهم إلى الجنوب قد تزايد مباشرة بعد تخريب الهيكل الثاني بقليل. ويظن «نكلسن» أن أقدم المستعمرات اليهودية في الحجاز يرجع إلى زمن سقوط القدس بيد «تيطس أو هدريان». وعلى كل فقد كان في القرون الأولى للميلاد مستعمرات يهودية في تيماء وفي فدك وفي خيبر وفي وادي القرى وفي يثرب وهي أهمها. وكان يهود يثرب ثلاث قبائل هي بنو نضير وبنو قينقاع وبنو قريظة.[3]

ومن المعتقد أنهم حملوا معهم توراتهم بتعاليمها ومعلوماتها إلى جانب أساطيرهم وخرافاتهم، كما أنهم أدخلوا على العربية كلمات ومصطلحات دينية جديدة.

ولقد كانوا بارعين في الأعمال اليدوية والزراعية، وكانوا مهرة في صنع الأسلحة والمصنوعات. وقد اندمجوا بالعرب- لا كما يظن البعض- واعتنقوا عاداتهم واتخذوا أسماءهم حتى أن أسماء التوراة لم تكن شائعة إلا بين نفر قليل، كما كانت أسماء قبائلهم عربية محضة لا تفيد عن أصلهم شيئاً.[4]

١- اديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، د.سميح دغيم، بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٩٥، ص ٥٥.

٢- R.A.Nicholson: Aliterary History Of The Arabs. P 137.

٣- أحمد امين، فجر الإسلام، ص ٢٧.

٤- سليم الحوت. - في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت ١٩٧٩ ط٢- ص ٢٨.

وتجدر الإشارة إلى أن اليهودية حلت بجزيرة العرب بعد أن تأثرت بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً، لأنها ظلت قروناً تحت الحكم اليوناني الروماني، ولأنها كانت منتشرة في الإسكندرية وعلى شواطئ البحر المتوسط حيث الثقافة اليونانية.[1]

وامتدت ديانتهم- وإن ندر امتدادهم بأنفسهم- إلى ما وراء يثرب. فقد تهود الكثير من العرب، قال اليعقوبي: «فأما من تهود منهم فاليمن بأسرها.. وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، وتهود قوم من بني الحارث بن كعب وقوم من غسان من جذام».[2]

وقال ابن قتيبة: وكانت اليهودية في حمير وفي بني كنانة وبني الحارث بن كعب وكنده.[3]

ويرجع امتداد اليهودية وانتشارها بكثرة إلى تهود أبي كرب آخر ملوك التبابعة، وتهود حمير بعده، وذلك لما أراد غزو المدينة منعه من ذلك حبران عالمان من أهلها، فأعجبه منهما علمهما وحكمتهما وتهود وسار إلى مكة فأغراه نفر من هذيل بأموال بيت مكة، فأرسل إلى الحبرين يستشيرهما فمنعاه وقالا له: «ما نعلم بيتاً لله اتخذه في الأرض لنفسه غيره، ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعاً». وطلبا منه تعظيم البيت، فقال: ما يمنعكما أنتما؟ فقالا: «أما والله أنه لبيت أبينا إبراهيم وأنه لكما أخبرناك: ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله، وبالدماء التي يهريقون عنده وهم نجس أهل شرك» فمثل بالنفر الهذليين، وطاف بالبيت وكساه وأوصى به ولاته من جرهم وأخذ الحبرين معه إلى اليمن، ودعا قومه إلى اعتناق اليهودية. فأعرضوا واحتكموا للنار- وهنا سرد خرافة- ومن ثم تهودت حمير، وهدم الحبران بيتها «رئام» الذي كانت تعظمه بعد أن استشارا الملك.

وقد ظل مُلك اليمن في بني حمير يتوارثونه ويغتصبونه حتى كان أمر ذي نواس الحميري، وكان هذا متعصباً لليهودية التي لم تنتشر انتشارها التام إلا على زمانه في القرن السادس للميلاد.[4]

١- أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٢٩.

٢- تاريخ ابن واضح اليعقوبي، ج ١ صفحة ٢٩٨٩.

٣- ابن قتيبة- كتاب المعارف، ص ٢٩٩.

٤- سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا، مرجع سابق، ص ٢٩- ٣٠.

النصرانية

النصرانية هي ثاني الديانات الكتابية الموحى بها. وإن النصارى لا يعتبرون أنفسهم أهل كتاب من حيث أن الوحي مستمر في ألوهية المسيح، وأن الأناجيل التي هي من وضع الحواريين الذين سجلوا كلمات المسيح وصاغوها أناجيلاً، هي كتب مقدسة، إلا أن القرآن الكريم يعتبرهم أهل كتاب.

إن جوهر الديانة المسيحية هو الإيمان بالله وبابنه يسوع المسيح. وإذا كان الإسلام يرى في المسيح كلمة الله، فإن المسيحيين يعتبرونه ابن الله.[1]

ولم تكن المسيحية بأقل انتشاراً من اليهودية، ويرى شيخو في كتابة «النصرانية وآدابها بين عرب الجزيرة» أنها وجدت لها مكاناً في أكثر أصقاع البلاد العربية في مشارف الشام والحجاز واليمن والبحرين وغيرها. وقد تنصر عدد كبير من القبائل. يقول ابن واضح: «وأما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى، ومن تميم بنوا امرىء القيس بن زيد مناة، ومن ربيعة بنو تغلب، ومن اليمن طيء ومذحج وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم».[2] ويقول ابن قتيبة: «إن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاعة».[3]

وليس لنا أن نتبع سيرها في جميع الأماكن، ولكن لابأس من ذلك في نجران، أهم موطن للنصرانية في بلاد العرب، حيث كانت مدينة خصبة عامرة بالسكان يتولى أمور النصرانية فيها رؤساء ثلاثة: السيد والعاقب والأسقف. وكان نصارى نجران، كما يستظهر أوليري، على مذهب اليعاقبة مما أدى إلى اتصالهم بالحبشة «وهم كذلك» أكثر من اتصالهم بالرومان.[4] وحيث اصطدمت النصرانية هنالك في الجنوب مع اليهودية بحرب ضروس.

١- أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، د.سميح دغيم، بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٩٥، ص ٦٥.

٢- تاريخ ابن واضح اليعقوبي ج ١ ص ٢٩٨- ٢٩٩.

٣- كتاب المعارف ص ٢٩٩.

٤- احمد أمين. - فجر الإسلام- ص ٣٠.

يرجع تنصر نجران إلى رجل صالح من أتباع عيسى ﷺ يقال له فيمون. كان سائحاً لا يعرف بقرية إلا غادرها، وكان أولاً في قرية من قرى الشام يتعبد. وقد صحبه رجل من أهلها يقال له صالح، يتبعه حتى وطأا بعض أرض العرب، فعادوا عليهما، واختطفتهما سيارة من الأعراب خرجت بهما، وباعتهما بنجران وأهل نجران يومئذ تعبد نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد كل سنة.. ويكمل ابن اسحق حديثه بأسطورة تفيد أن هذا الولي الصالح تطهر وصلى لربه ودعاه على هذه النخلة فعصفت بها ريح واقتلعتها.. وعند ذلك تبعه أهل نجران على دين ابن مريم.[1] وما زال الدين المسيحي آخذاً بالانتشار حتى كان ذو نواس، فدعاهم إلى اليهودية، إلا أن النجرانيين أبوا واستعدوا للدفاع عن بلدهم، ولكن ذا نواس دخلها بالمكر وأوقع بهم وما لبث الخبر أن نمي إلى قيصر الروم بواسطة رجل فر هارباً، واستنصره على ذي نواس فأمر قيصر نجاشي الحبشة بمحاربة اليهودي ففعل، وأرسل جيشاً مع أرياط وأبرهة الأشرم فناجذوه القتال، وظفروا ببلاده، وأتم نجاشي الحبشة فتح اليمن فملكوا عليها أكثر من نصف قرن حتى مد الفرس سيطرتهم على تلك البلاد إلى أن تقدم المسلحون وفتحوا نواحي اليمن فيما بعد.[2] فتكون النصرانية قد استمرت في نجران إلى عهد عمر حيث ذهب أكثرهم إلى العراق.

أما أبرهة المذكور فهو صاحب الفيل كما سيأتي معنا الحديث بعد، وهو الذي بنى كنيسة بصنعاء سماها القليس، وكتب إلى النجاشي يقول: «إني قد بنيت لك كنيسة لم يبنَ مثلها أحد قط، ولست تاركاً العرب حتى أصرف حجهم عن بيتهم الذي يحجون إليه».[3]

فذيوع النصرانية في بلاد العرب كان من شأنه نشر تعاليمها بين الأعراب، ومن الأخبار الأدبية ما يفيد أن القسس والرهبان كانوا يؤمون الأسواق العربية في الجاهلية ويبشرون ويذكرون الحساب والعذاب والجنة والنار. وخير مثل نضربه خطيب إياد وراهب نجران، قس بن ساعده، فلا بد وأن تكون النصرانية إذاً، قد آدخلت على العربية ألفاظاً وتراكيب لم تكن تعرفها العرب، وفوق هذا فإن النصرانية كانت من قبل دخولها جزيرة العرب تحمل في ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية كما هو شأن اليهودية.[4]

١ـ سليم الحوت. في طريق الميثولوجيا، مرجع سابق، ص ٣١.

٢ـ الأب لويس شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، القسم الأول، ص ٦٠.

٣ـ ابو هشام الكلبي ـ كتاب الأصنام، ص ٤٦ـ ٤٧.

٤ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام، ص ٣٢.

المتألهون وغيرهم

من أميز صفات العربي شعوره بالحرية والأنفة. وقد ساعده على ذلك طبيعة بلاده البكر منذ أن دبَّ على سطحها. فهو ممتنع منذ الأزل، صعب القياد. لا يعترف بملك ولا يخضع لسلطة. وهو أقرب إلى البداوة، ينظر إلى الأشياء نظرة مادية، ولا يميل بطبيعته كثيراً إلى الدين. فتعلق بحريته تعلقاً يقرب من العبادة. معتز بقبيلته ومفاخرها، ولعل أواصر القبيلة أشد العلاقات التي تربط[1] بين أفرادها متانة وقوة

أما أنه لا يميل إلى دين فالأخبار، ودراسة نفسيته، يؤيدان ذلك، والقول ينطبق على عربي الجاهلية، وإن كان أحياناً شديد التعظيم لآلهته المنصوبة حول الكعبة، وفي غيرها من البيوت والأماكن المقدسة، فقد كان ينكر هذه الآلهة لأسباب تافهة، ويرتد عن عبادتها، ولابأس من أكلها إذا كانت مصنوعة من مادة غذائية! كما فعل بنو حنيفة بإلههم، وكان مصنوعاً من حيس فقال تميمي:

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن إعواز

وقال آخر:

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة

لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

وهذا كناني يقبل على صنم قبيلته فتنفر إبله من منظر الدماء المراقة عليه فيرميه بحجر ويقول: لا بارك الله فيك إلهاً أنفرت عليَّ إبلي.[2]

وذاك آخر يُقتل أبوه فيستشير الصنم مستقيماً بالقداح فيخرج الناهي عن الأخذ بالثأر فيضرب بالقداح وجه الصنم، وينصرف ليفتك بأعدائه.

وذلك ثالث كان يأتي لصنمه بالطعام ويضعه عند رأسه، فمر يوماً ثعلبان «ثعلب» فأكل الطعام وعصل على رأس الصنم، فغضب الرجل وضرب الصنم فكسره وقال:

١- سليم الحوت - في طريق الميثولوجيا، مرجع سابق، ص ٣٢.

٢- كتاب الأصنام، ص ٤٧.

لقــد خــاب قــوم أملــوك لــشدة	أرادوا نــزالاً أن تكــون تحــارب
فــلا أنــت تغـني عــن أمــور كـثيرة	ولا أنــت دفــاع إذا حــل نائــب
أرب يبــول الثعلبــان برأســه	لقــد ذل مــن بالــت عليــه الثعالــب

وغير هؤلاء كثير.[1]

وتكثر الأحاديث عمن تأله ونفض عنه في الجاهلية عبادة الأصنام فكان على دين أو شبه دين، وهو وإن لم يدرك دعوة النبي إلا أنه بقي على أصل فطرته ناظراً بعين بصيرة. وربما كان مثل هذا النفر على معرفة بالحنيفية وشيء من تعاليم اليهودية والنصرانية. وليس هذا ببعيد لوقوع الاحتكاك بين هذه العناصر قبل الإسلام. ومن الأحاديث التي تروى عن مثل هؤلاء القوم قول ابن اسحق: اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعتكفون عنده ويدورون به، وكان ذلك العيد لهم كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة وهم ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش بن رئاب، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. وقال بعضهم لبعض: تعلموا! والله ما قومكم على شيء.

لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء.

وتفرقوا في البلدان، أما ورقة فقد تنصر، وأما عبيد فقد أقام على ما هو من الالتباس حتى أسلم، ثم تنصر لما هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، وكذلك تنصر عثمان بعد قدومه على ملك الروم، وأما زيد فوقف لا يدخل في يهودية ولا نصرانية، بل فارق دين قومه وعاب ما هم عليه، واعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤودة. وروت أسماء بنت أبي بكر أنها رأت زيداً وهو شيخ كبير مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري... اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكن لا أعلمه، ثم يسجد على راحته. وتنسب لزيد هذا أبيات في عزله اللات والعزى وغيرهما من الأصنام، وأكثرهم يشير إلى عدم إشراكه بالله، ولما قتل رثاه ورقة بن نوفل بأبيات مثلها.

وعلى شاكلة هذا النفر عدد كبير من رجال الجاهلية لا هم بالمتحنفين تمام التحنف، ولا هم بنصارى أو يهود. ولعل أمية بن أبي الصلت وعبد المطلب بن هاشم جد النبي خير مثال

١- سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا، ص ٣٣.

لأولئك الجاهليين الذين لا ميزة لهم إلا إقرارهم، كما تفيد الأخبار، بوجود إله، مع شيء ليس بالقليل من التشويش في القصيدة والاضطراب.

وكان عبد المطلب سيد قريش حينما هاجم آبرهة الأشرم مكة لهدم البيت، . وقد مثل أمام آبرهة- وكان قد أصاب له مائتي بعير- فسأله أبرهة عن حاجته، فقال: رد بعيري. فقال آبرهة: آتكلمني في إبلك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك؟ قد جئت لهدمه! فأجابه عبد المطلب: أنا رب الإبل، وللبيت رب يمنعه! فقال الحبشي: ما كان ليمنع مني! وآمر برد إبله، فرجع بها عبد المطلب، وطلب من قومه الخروج من مكة والتحرز في رؤوس الجبال، وذهب مع نفر من قريش إلى الكعبة، وأخذ بحلقة بابها يدعو الله ويستنصره على أبرهة.[1]

١- سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا، ص ٣٤- ٣٥.

آلهة العرب

الآلهة السماوية

من الممكن أن نقسم الآلهة المعبودة عند العرب في الجاهلية إلى فئتين كبيرتين اثنتين هما: الآلهة الأرضية، وهي التي تتكون من جنس الأرض ومعادنها كالحجارة والجواهر والمعادن والأخشاب والنيران والأشجار، والآلهة السماوية وهي عبارة عن الأجرام التي تسبح في الفضاء من نجوم ثابتة وكواكب سيارة.

وإلى هاتين الفئتين من الآلهة يمكن إضافة فئة ثالثة هي الآلهة التي تتكون من الملائكة ومن الجن والشياطين.

لقد نظر الإنسان إلى السماء فوقف منها وقفة التأمل المتحير معتقداً أن فيها قوى خفية تهيمن على هذا الوجود، وأن ثمة في أجرام السماء أرواحاً حية، الأمر الذي مال به إلى اعتبارها آلهة، أو أنصاف آلهة تهب الموت والحياة فهي تستحق العبادة والتكريم والتقديس.

ولعل في قصة إبراهيم ﷺ ووقوفه إزاء الشمس والقمر ما فيه الكفاية للدلالة على مثل هذا الشعور أو الإحساس الذي راود الإنسان، بل البشرية في طورها البدائي البسيط. كان هذا قبل أن يتمكن الإنسان، من التخلص من عالم المحسوس والانتقال إلى عالم الفكر والتجريد، بحيث يتم التعرف إما بالفطرة وبالتأمل، وإما بواسطة الرسل والأنبياء على أن ثمة خالقاً لهذا الكون هو فوق المخلوقات، وهو يتسامى على كل ما هو محسوس ومنظور. ولقد أشار القرآن الكريم إلى موقف إبراهيم هذا فقال تعالى متحدثاً بلسان نبيه:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي

هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّـا تُـشْرِكُونَ۝ إِنِّـي وَجَّهْـتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ۝﴾[1]

ولما كانت الشمس، يليها القمر، من أكبر الأجرام السماوية وأشدها تأثيراً وأوسعها نوراً وتألقاً، فإن ثمة شعوباً وأمماً مالت إلى الانبهار بهما وإلى اعتبارهما إلهين يستحقان كل عبادة وتقديس. وهذا ما مال إليه العرب أنفسهم منذ أقدم العصور.[2]

فلقد ورد ذكر الشمس على سبيل المثال، في نص صفوي سجله رجل اسمه «خالص بن شهم بن عمرة بن عم»، وفيه يتوسل إلى الشمس أن تصيب بالعمى من يتطاول على كتابته أو يجسر فيمحوها ويطمس معالمها.[3]

ويبدو أن عبادة الكواكب جاءت العرب عن طريق الصابئة وبقايا الكلدان الذين تأثر العرب بهم مثلما تأثروا من قبلهم بالفرس والهند والترك والصين واليونان.

حتى الآلهة الأرضية ونعني بها الأصنام فإنها ما كانت، حسبما تذهب بعض المصادر، إلا تمثيلاً لما علاها وعلاهم من الجواهر العلوية والأجسام السماوية التي هي سبعة من الأشخاص الفلكية المؤلفة من الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل، وآخر من ذوات التأثير في العالم الأرضي.[4]

عبادة عرب الجنوب:

ويبدو أن عرب الجنوب كانوا أسبق من عرب الشمال إلى عبادة الشمس والقمر والكواكب والنجوم. فلقد جاء في الأخبار أن الشمس المعبودة أو «الإلهة شمس» كما ورد ذكرها عند عرب الجنوب هي نفسها «ذات حميم»، أي ذات الحارة عند السبئيين والحضارية والقتبانيين، وهي أيضاً «ذات بعدن» أو ذات البعد. وهي نفسها التي بني بها معبد خاص يقال له معبد الإله شمس وكان في «حمير» نحو القرن الرابع قبل الميلاد.

وكان من بين آلهة الأعراب التي أعيدت إليهم من آسر الآشوريين الصنم «دلبت» الذي ربما كان تحريفاً لذات بعل أي الشمس، والصنم «عتر سماين» أي «عتر السماء» الذي قال إنه

١- سورة الأنعام: الآيات ٧٦-٧٩.

٢- د. يحيى شامي - الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، دار الفكر اللبناني- بيروت، ١٩٨٦، ص ١٠٣- ١٠٤.

٣- جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦- ص ٣٢٥.

٤- د. يحيى شامي - الشرك الجاهلي، مرجع سابق، ص ١٠٤.

يرمز إلى الزهرة. وكلمة «عشتر» وردت مراراً في نصوص المسند. وفي النصوص السبئية ما يشير إلى الإله «هوبس» والإله «المقه» ويقصد به الإله القمر. ولعل الإله «هوبس» أو «هيبس» هو نفسه الإله «سن» أو «سين» عند أهل حضرموت. وهو الإله القمر عن القتبانيين، كما وأنه ورد لفظ آخر عندهم لهذا الإله هو لفظ «انبي». كما ورد اسم للإله «أثرت» ويبدو أنه كان آلهة أنثى يظهر أنها الشمس ذاتها. وكان يكنى عن الشمس ب، «ذات صنم» و «ذات صنت» و «ذات رحبن» و «ذات صهرن» عند القتبانيين. ولا تزال آثار معبد القمر باقية حتى اليوم في مأرب عاصمة اليمن القديمة.[١]

وهذا ما يؤكد رواية المسعودي التي تقول إن عاداً كانت تعبد القمر، وأن أهل مأرب كانوا يعبدون الشمس من دون الله.[٢]

عبادة عرب الشمال:

ولم تكن عبادة النجوم مقصورة على عرب الجنوب فحسب، بل تعدتهم لتنتشر في عرب الشمال ولاسيما من كان منهم قريباً من فارس وبيزنطة فيما بعد. فلقد جاء في الأخبار آن العرب الأنباط مجدوا الشمس وأقاموا لها الهياكل المعبودة في منازلهم، وسكبوا عليها الخمر، وأحرقوا عندها البخور.

وفي آخبار تدمر أن أورليان توقف في حمص وهو في طريقة إلى تدمر فقدم لإله الشمس النذور. وحمص كما نعلم كانت في العام الرابع والستين قبل الميلاد تحت سيطرة سلالة عربية قامت بأعباء خدمة الإله «شمس» وسدانته في أيام «بومبيوس». ويقال أنه كان لتدمر إله من بينها الإله «بعل» المعروف عند معظم الشعوب السامية منذ القدم، والإله «بعل سمين» أي بعل السماء «سيد السماء» وهو من أصل فينيقي، والإله «يرحبول» أي إله القمر.[٣]

كما وأن التنقيبات الأثرية التي جرت في تلك المنطقة العربية كشفت عن كثير من المنحوتات الدينية والهياكل الوثنية التي كانت تمثل الآلهة، وتبين كيفية عبادتها وتقديم النذور والبخور لها. ويبدو أن هذه العبادة السماوية أو الفلكية إنما جاءت هذه البلاد في مرحلة متأخرة من مراحل استقرار المجتمع الزراعي والتحضر المدني، ذلك أن تعلق الجماعات المثقفة

١- د. يحيى شامي - الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، دار الفكر اللبناني- بيروت، ١٩٨٦، ص ١٠٥.

٢- المسعودي: مروج الذهب ٤٠/٢.

٣- د. نبيه العاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول. ص ١٤٢.

في البتراء وتدمر بعبادة الشمس، إنما يدل على بلوغهم درجة من الرقي الزراعي، مكنتهم بالتالي من اكتشاف العلاقة بين أشعة الشمس ونمو المزروعات.[1]

عبادة الزهرة والمشتري وعطارد وسهيل:

وإجمالاً، وحسب رأي العديد من الدارسين والباحثين فإنه يمكن إرجاع عبادة العرب لآلهة الفلك والسماء إلى ثالوث معبود: القمر واسمه عند المعنيين، وهو الإله الأكبر، والشمس التي هي زوجه وكان اسمها اللات، ثم عشتر أو العزى وهي الزهرة ألمع الكواكب بعد الشمس والقمر.

وعلى ذكر الزهرة، فقد حدثت الأخبار عن بيت غمدان بصنعاء، هذا البيت الذي بناه الضحاك على اسم الزهرة، وقيل أنه ظل قائماً حتى خلافة عثمان بن عفان. ونسب إلى قيس أنها عبدت الشعرى العبور، أي الشعرى اليمانية. كما نسب إلى بني جرهم وجذام ولخم أنهم سجدوا للمشتري، وإلى أسد أنها عبدت عطارد، وإلى طيء أنها عبدت سهيلاً، هذا فضلاً عن كنانة التي عبدت القمر، وحمير التي عبدت الشمس، كما جاء في تاريخ ابن العبري.[2]

وسنعود إلى هذا الموضوع في الفصل الرابع.

الآلهة الأرضية:

وهي عبارة عن التماثيل والأصنام وبيوت الأصنام والأنصاب والحجارة المؤلهة والأشجار والقبور وسواها مما يُعبد من دون الله.

قبل الحديث عن الحجارة المؤلهة نود الإشارة إلى أن ثمة من المشركين من عبد الأشجار ولاسيما ما كان منها قديم العهد، نائياً عن مواطن الشجر حيث التفرد والوحشة وما يبعث على الخشية، فالعبادة على أنها مسكن للأرواح والأشباح شجرة نجران: فأهل نجران على ما ذكر ابن هشام في سيرته، عبدوا نخلة طويلة كانت بين ظهرانيهم. وكانوا قد جعلوا لها في كل سنة عيداً، إذ كانوا يأتون إليها معتكفين، فيعلقون عليها كل ثوب حسن وجدوه، وكل حلي من حلي النساء.

١- بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ٢١/١.

٢- ابن العبري تاريخ مختصر الدول. ص ٩٤.

ظلت هذه الشجرة يخصونها بالعبادة والتقديس، إلى أن سخرَّ عليها الله سبحانه ريحاً اجتثها من فوق الأرض، وذلك تلبية لدعوة العبد الصالح فيميون أحد عباد النصارى أتباع المسيح عيسى بن مريم ﷺ. ويقال إن هذا هو سبب تنصر أهل نجران.[1]

ذات أنواط: وتحدثنا الكتب أيضاً عن ذات أنواط وهي شجرة عظيمة ملتفة الأغصان والأوراق كانت بالقرب من مكة، وكان يأتيها كفار قريش ومن جاورهم من الأعراب في كل سنة مرة فيعكفون عليها ويذبحون. ولقد نسب إلى ابن عباس قوله أن المشركين كانوا إذا ما فرغوا من حجهم البيت، حجوا إليها أيضاً فيضعون زادهم ويعلقون أسلحتهم عندها، ثم يدخلون إلى حرمها بغير زاد، تعظيماً لهذه الشجرة المباركة.[2]

عبادة النيران:

لعل أصل هذه العبادة يعود إلى عبادة الأفلاك والكواكب باعتبارها أقرب الأجسام المرئية إلى الله وباعتبار أنها حية ناطقة، وأن ما يحدث في العالم فإنما هو على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله. ولما كانت الكواكب تختفي نهاراً وفي بعض أوقات الليل، فإنهم جعلوا لها أصناماً وبيوتاً وهياكل وسموها بأسماء الكواكب السبعة بما فيها الشمس والقمر. ولما كانت النار تشبه بضوئها ضوء الشمس والكواكب، فإنهم عظموها تعظيمهم للشمس والكواكب. ويقال إن ذلك كان زمن «جمّ» ملك الفرس.[3]

وهذا هو أصل عبادة النيران كما هو عند معظم الأمم الوثنية وعند الصابئة الذين عرفت بعضهم جزيرة العرب. وهذا بدوره انتقل تأثيره إلى بعض القبائل العربية التي حدثتنا عنها كتب الرواية، بأنها عبدت النار وقدستها.

عبادة القبور:

وقد يتحول القبر مع الزمن، ولاسيما قبر السيد المطاع في قومه، قد يتحول إلى حرم مقدس وإلى مقر للعبادة، تنال عنده البركة والشفاعة فيقيمون عنده ويعكفون وينحرون. من هنا نفهم سر التشدد في تحريم تسنيم القبور في الإسلام وذلك من أجل الحرص على أن لا تضفي على هذا القبر أي صفة من صفات التقديس، وقطعاً لدابر أي مظهر من مظاهر الشرك

١- سيرة ابن هشام: ٤٤٢/٢.

٢- أخبار مكة: ١٣٠/١.

٣- المسعودي: مروج الذهب ٢٣٧/٢.

الجاهلي. وللقبر مكانة سامية عند الجاهلين. هذا إذا كان صاحب القبر سيد القوم وأميرهم، إذ كنت تجدهم يرفعون فوقه القبة فيحتمي إليه الخائفون والعائذون. ويبدو أن الدافع إلى هذه العادة إنما هو دافع نفسي يجعل ممن يؤمن بها، يتصور أن القبر هو استمرار للقبة وللبيت الذي كان فيه السيد في الحياة الدنيا.[1]

الأصنام والأوثان والأنصاب:

كل ما اتخذ من دون الله إلهاً فهو صنم. تعريف عام نأخذه من كتب التفسير والمعاجم وغيرها. وقد ندر ذكر هذه الكلمة في الشعر الجاهلي، ويصعب التحقيق في أسباب ذلك لما نقرؤه من تعظيم العرب للأصنام وانتشارها بين القبائل. روي عن الحسن قال: لم يكن حي من أحياء العرب إلا ولهم صنم يعبدونه. وعلى الرغم من ذلك نرى البعض يعزو ندورة ذكرها إلى ترفع العرب عن ذلك، فالصنم عند هذا البعض لا يدل على معنى محترم في نظر الأعراب. فإذا صح هذا القول فإنه ينطبق على ما ورد في القليل النادر من أشعارهم، وقد قيل هذا النادر في ظروف تحكي الظروف التي أدت إلى نكول بعضهم عن عبادتها. أما في غيرها فلا يذكر اسم «الطاغية» أو «الرية» مثلاً، إلا بالتبجيل والتعظيم والرهبة في كثير من الأحيان. لا ترد كلمة صنم في القرآن الكريم إلا على صيغة الجمع في خمس آيات:

واحدة في الحديث عن قوم موسى حينما أتوا على قوم يعكفون على أصنام. والأربع الأُخر في الأحاديث عن إبراهيم وأبيه وقومه.

أما الصنم فيقول ابن الكلبي: «ما كان معمولاً من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان»[2]. وقيل ما اتخذوه من آلهة، فإن كان له صورة فهو صنم.

وقال بعضهم: إذا كان ما يعبدونه حجراً على غير صورة فهو نصب، وإن كان تمثالاً سمي صنماً ووثناً.

والكلمة كما وردت في المعاجم العربية، يقال أنها معرب «شمس» ولا يدري صاحب التاج عن أي لسان. على أن بعض علماء اللغة من الأوربيين يُرجح كلمة «شنم» - الكلمة التي عُرّبت عنها كلمة صنم العربية- إلى Selem. بمعنى صورة في العبرية و S-l M اسم إله ورد ذكره في نقوش آرامية بتيماء.[3]

١- يحيى شامي: الشرك الجاهلي، ص ١١٠.

٢- الأصنام للكلبي ص ٥٣.

٣- سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا، ص ٣٦- ٣٧.

وكثيراً ما خلطوا بين تعريف الوثن والصنم، وإن قيل أن الوثن هو الصنم الصغير. وفي التاج سمي وثناً لانتصابه وثباته على حالة واحدة من وثن بالمكان، أقام به فهو واثن. وذكر أن الوثن ما لا صورة له. وقال ابن الأثير: الفرق بين الوثن والصنم إن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد، والصنم الصورة بلا جثة. وفي كتاب الأصنام أن الفرق بين الصنم والوثن هو أن الأول مصنوع من خشب أو معدن، والثاني من حجارة، وكلاهما على صورة إنسان.[1]

أما الأنصاب فحجارة كانت حول الكعبة تنصب فيهل عليها ويذبح لغير الله، والنصب كل ما نصب فعبد من دون الله، وقد ورد في بيت الأعشى:

وذا النصيب المنصوب لا تنسكنّه لعافية والله ربك فاعبدا

وفي كتاب الأصنام ومن لم يقدر على صنم، ولا على بناء بيت، نصب حجراً أمام الحرم، أو أمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب. وقال: «وكانت للعرب حجارة غير منصوبة يطوفون بها ويعترون عندها يسمونها الأنصاب». وقال: فكان الرجل، إذا سافر فنزل منزلاً، آخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر، فعل مثل ذلك. هذه هي الأنصاب، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان.[2] ولعل أقوال ابن الكلبي أوضح ما ذكر الأقدمون عن الأنصاب والأصنام والأوثان.

وكان للعرب بيوت مقدسة يطفون بها سنأتي على ذكرها فيما بعد. والبيت عموماً ما يبات فيه. وتعرف الكعبة بالبيت الحرام. والبيت العتيق. والبيت المعمور. والكعبة في اللغة الغرفة، أو البيت المربع. وقيل المرتفع ومنه كعب ثدي الجارية إذا علا في صدرها وارتفع. وقيل سميت كعبة لأنها مكعبة على خلق الكعب، جمعها كعبات.[3]

كثرة الآلهة:

لا شك في كثرة أصنام العرب وأنصابهم التي انتشرت بينهم في عصور الجاهلية، غير أنه من الصعب جداً حصر عدد الآلهة الحجرية ومقدار ذيوعها بين مختلف القبائل. فالأخبار الواردة لا ترسم لنا خطة معينة عن كثرة الآلهة: عددهم وتوزيعهم. فالجارم يقول: «وقد كان

١ـ كتاب الأصنام، ص ٥٣.

٢ـ المرجع السابق، ص ٣٣، ٤٢.

٣ـ سليم الحوت ـ في طريق الميثولوجيا. ص ٣٩.

للقبيلة أكثر من صنم، وكان منها عند الكعبة كثير» ويقول أيضاً «ليس في الاستطاعة حصر أصنامهم في الجاهلية فكثرتها تتجاوز العد»[1] وهو يعتمد في كلامه على ما سبقه من كتب السير والأدب والتفاسير. أما الأب شيخو فلا يرى هذه الكثرة مطلقاً، فهو يقول في كتابه: النصرانية وآدابها بين العرب في الجاهلية: وإذا أضفت إلى الأصنام المذكورة في اليعقوبي أسماء آلهة أخرى ورد ذكرها في المعاجم والتواريخ والشروح بلغ بك العد إلى نحو ثلاثين صنماً. فأين هذا وما زعم ابن إسحاق وابن هشام أن في الكعبة كان عدد الأصنام - ٣٦٠- على عدد أيام السنة.

ويجب على الباحث في مثل هذا الموضوع أن يفرق بين نوعين من الأحجار المؤلهة: الأول بدوي والثاني حضري، كما كان عبادهما في الجاهلية بدواً وحضراً. ثم بين آلهة القبائل وآلهة المنازل.

يقول ابن الكلبي: «فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً، وجعل ثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه. فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك».[2] و «يقول غيره» كنا في الجاهلية نعبد حجراً فسمعنا منادياً ينادي: يا أهل الرجال أن ربكم قد هلك فالتمسوا رباً، قال: فخرجنا كل صعب وذلول فبينا نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمناد ينادي: إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه، وإذا حجر فنحرنا عنده الجزور.[3] وعن أبي رجاء العطاردي قال: «كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب، وجئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا بها»[4]

ونحن نخشى أن تكون هذه الروايات وأمثالها سبباً في اعتقاد الكثيرين بتضخم العدد الذي ارتقت إليه آلهة العرب.. وهناك روايات تفيد أنه كان لأهل كل دار ما يصنعه في منزله أن يتمسح به أيضاً.[5] ونفهم من ابن هشام أن الأشراف كانوا يتخذون في دورهم أصناماً آلهة يعظمونها ويطهرونها.

وفي مثل هذه الروايات أيضاً سبب يدعو خطأ إلى الاعتقاد بكثرة الآلهة فهل من الضروري أن يكون عند كل شريف، لا بل في كل منزل صنم معبود يخالف في كنهه

١- محمد نعمان الجازم - أديان العرب في الجاهلية- الطبعة الأولى ١٩٢٣- مطبعة السعادة- مصر. ص ١٥٥.

٢- كتاب الأصنام - ص٣٣.

٣- بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢١١.

٤- البداية والنهاية لابن كثر ج٢، ص ١٨٨.

٥- كتاب الأصنام، ص ٣٣.

ومميزاته صنم الشريف الآخر أو الجيران الآخرين؟ ألا يجوز آن يكون للحي أو للقبيلة إله - كالعزى أو هبل مثلاً، يُعبد وتجري له طقوسه العامة ثم تكون هنالك أشكال ورموز عند هذا وذاك من الأفراد والمنازل؟ ولا يرى الأب لامنس وجوداً للآلهة المنزلية كما يفهمها «ولهاوزن» في كتابه «بقايا الوثنية العربية» إلا في الأساطير المعروفة في السيرة وغيرها، وهي عنده أخبار تكتنف صحتها بكثير من الشك، لا بل يميل إلى نفي هذا النوع من الآلهة نفياً باتاً. فهنا نقرأ له: «أما الحقيقة فهي أن الأشراف كان من حقهم لا امتلاك الآلهة المنزلية بل المحافظة على البيت أو الحجر المؤله. وهم يحرسونه لا في المنزل أو المضرب بل في القبة الخاصة وهي قبة القبيلة».

وكانت هذه القبة تضرب إلى جانب خيمة السيد. ثم يقول: ونتيجة آخرى لهذا الأمر أنه ليس في القبلة المجتمعة من أصل واحد إلا بيت واحد أو قبة واحدة، وإذن فمن الاعتباط أن نتكلم عن الآلهة المنزلية أو عن العبادة الفردية. فإن عربي الجاهلية لم يعرف العبادة الشاملة، تلك الشعائر التي تقوم بها القبيلة بكاملها في ظروف خاصة ومظاهر قليلة، كانت كافية لاستنفاد جلده القوي. وكان إذا خاف تأثيراً سيئاً من بعض القوات اللابشرية لجأ إلى التمائم، وهي أفضل وأنجع في نظره من وجود تماثيل الآلهة في خبائه أو داره.[1]

ذلك رأي «لامنس»، على أنه، لا يسعنا أن نأخذ به على علاته، وننفي وجود الآلهة المنزلية نفياً باتاً لمجرد القول أن العربي كان قليل الجلد التقوي، ولمجرد الظن بأن روايات السيرة عن هذه الآلهة مشكوك فيه.

ولعل الأصنام الكثيرة التي يحدثون عنها إنما كانت مجرد تماثيل يلهو بها البدو والحضر أكثر من كونها رموزاً لآلهة معينة. روى الأزرقي لبعضهم قوله: «وقد كنت أرى قبل ذلك الأصنام يطاف بها فيشتريها أهل البدو فيخرجون بها إلى بيوتهم».[2] وفي المصدر نفسه نقرأ: «وكان أبو تجارة يعملها في الجاهلية ويبيعها. ولم يكن في قريش رجل بمكة إلا وفي بيته صنم». فإن دلت هذه الأقوال وغيرها على كثرة هذه الأصنام أو التماثيل، فلا تدل على اختلاف وتنوع كثير في الآلهة التي يرمزون إليها.

١- سليم الحوت - في طريق الميثولوجيا- ص ٤٢- ٣٤.

٢- الأزرقي - اخبار مكة، ص ٧٨.

وثنية الجزيرة:

بعيد ذلك الزمن الذي ألّه عرب الجاهلية فيه الأحجار واتخذوا من منحوتاتها آصناماً آلهة. وأبعد منه ذلك الذي يظن أن الإنسان قد عرف فيه هذا النوع من العبادة، فالقرآن الكريم يحدثنا أن قوم نوح أشركوا بالله وعبدوا الأصنام، فأوحي إليه بالنبوّة، وبدعوتهم إلى عبادة الله ففعل.

غير أن قومه- شأن غيرهم- لم يزدادوا إلا عتواً:

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾[1]

ويصر نوح على هديهم ثم يخرج عن هذا الإصرار ويدعو عليهم ربه:

﴿...رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِراً كَفَّاراً۝﴾[2]

عندئذ يوحي الله إليه صنع الفلك، فقد صمم الخالق على إغراق الأرض.. وتبتدئ قصة الطوفان. ولنوح مكانة في القرآن، وذكر طويل بكثرة مع عاد وثمود، وله سورة باسمه، ولربما كان آوسع ما في القرآن عنه في سورة هود.

والظاهر أن أهم النقاط التي تدور حوله في الأساطير العربية كلها، إنما تستند على مرجع في التوراة. ونوح كما يعتبره العرب هو أحد مشاهير الأنبياء الخمسة، أولي العزم من الرسل الذين جاؤوا لإنقاذ الجنس البشري من شروره وآثامه.[3]

وإذا جارينا قولهم أن نوحاً هو النسل التاسع فقط من ذرية الإنسان التي تبتدئ بآدم، وآنه الأب الثاني للجنس البشري، أمكن تصور الزمن الذي يرجع إليه ضلال الإنسان.

فعاد- كما يقولون- أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، فكانت آصنامهم ثلاثة: صدا، وصمودا، وهرا.

«والدين العربي القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلي الآشوري المعقد، كما آن ذلك الدين العربي القديم هو الذي مهّد لهذا الطور التاريخي للدين العربي- اليهودي مع حرصه على

١- سورة نوح: الآية ٧.

٢- السورة نفسها: الآيات ٢٦-٢٧.

٣- سليم الحوت. - في طريق الميثولوجيا، ص ٤٤.

الاحتفاظ بدين الآباء، دين الصحراء البدائي الذي دان به آباء الشعب وأجداده الأولون كما أنه بقي زمناً طويلاً موضوع نزاع وعراك شديدين بين العقيدتين الدينيتين: السامية الشمالية والسامية الجنوبية والذي تحول أخيراً إلى الثالوث الإلهي «أب وابن والروح القدس» ومن ثم خطا خطوة إلى التوحيد المسيحي في صورته القديمة التي نعرفها في الحضارة العربية القديمة»[1].

ويقرر المستشرق الألماني أنطوان موتكات أن «بلدان الشرق الأدنى هي مركز الديانات، بل مصدر الإشعاع الديني الذي أنار الأرض بكاملها»[2].

ويؤيد هذا ما يشير إليه الكلبي في رواية أخرى غير رواية عمرو بن لحي إلى أن الوثنية طارئة والأصل عندهم عبادة التوحيد التي كانت أثراً من دعوة إبراهيم وإسماعيل فيقول: وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم بها أو صبابة بالحرم حباً له، ففكرة الأحجار المقدسة نشأت من حبهم لمكة.

وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل، ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم»[3]. ويقول المقدسي: وكان في مشركيهم بقية من دين إسماعيل كالنكاح والختان والمناسك وتعظيم الأشهر الحرم وغير ذلك.

وذكر الشهرستاني من سننهم التي وافقهم عليها القرآن فقال: قال محمد بن السائب الكلبي: كانت العرب في جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها: كانوا لا ينكحون الأمهات، ولا البنات، ولا الخالات، ولا العمات.

وكانوا يطلّقون ثلاثاً على التفرقة، ويطوفون بالبيت سبعاً، ويمسحون بالحجر، ويسعون بين الصفا والمروة، وكانوا يلبون، إلا أن بعضهم كان يشرك في تلبيته بقوله:

إلا شريك هو لك
تملكه وما ملك

١- د. أحمد سوسه. - العرب واليهود في التاريخ، ص ١٩٨.

٢- دنتلف بيلش ورفاقه. - التاريخ العربي القديم، ص ٥٣.

٣- الأصنام، ص ٦.

ويقفون المواقف كلها. وكانوا يهدون الهدايا، ويرمون الجمار، ويحرمون الأشهر الحرم، فلا يغزون ولا يقاتلون فيها... إلا «طيء» و «خثعم» وبعض بني الحارث بن كعب. فإنهم كانوا لا يحجون، ولا يعتمرون، ولا يحرمون الأشهر الحرم ولا البلد الحرام وكانوا يكرهون الظلم في «الحرم».[1]

وينسبون إلى الوليد بن المغيرة قوله: يا معشر قريش لا تُدْخِلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيه مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

وهذا يدل على أن الربا كان محرماً عليهم في الجاهلية كما كان الظلم والبغاء. وكانوا يعلمون ذلك ببقية من بقايا شرع إبراهيم، كما كان بقي فيهم الحج والعمرة وشيء من أحكام الطلاق والعتق.

إن الدعوة إلى التوحيد قد رافقت بناء البيت، وإذا كانت ملة إبراهيم هي الملة الكبرى، فإن رحلته في التاريخ هي الرحلة الكبرى إذ كان لها آثرها في فلسطين، وكان لها أثرها في مكة، وأن الإله «إيل» هو إله إبراهيم الذي أصبح ديناً منتشراً من مكة إلى فلسطين، وأنه ما دعا إلى الله إلا بعد أن حارب الصابئة وأبطل عبادة التنجيم، وحارب الوثنية وجعل مسؤولية تحطيمها على صنمهم الأكبر إمعاناً في الزراية بهم.

ولقد كانت الكعبة حرم الله الآمن موطناً لدعوة إسماعيل وأهله من نسله، فكانت منذ أن عهد الله ببنائها إلى إبراهيم وإسماعيل هي محل تقديس، وأرضاً لدين سماوي أقامه إسماعيل فيها وحولها، إلى أن آلت مقاليدها إلى جرهم ظلماً من ولد إسماعيل- ورأى ولد إسماعيل عدم منازعتهم لخؤولتهم من جهة وإعظاماً لحرمة البيت من جهة أخرى.[2]

بيد أن جرهم بغوا فيها واستحلوا كثيراً من الحرمات: فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذي يُهدى لها فتفرق أمرهم، فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة «لعلها مناف» بن كنانة وغبشان من خزاعة ذلك أجمعوا على حربهم وإخراجهم من مكة، فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا فغلبتهم بنو بكر وغبشان فنفوهم من مكة وآل أمر البيت إلى رئيسهم عمرو بن لحي. وكانت مكة في الجاهلية لا تقر فيها ظلماً ولا بغياً ولا يبغي فيها أحد إلا أخرجته.

١- د. محمد إبراهيم فيومي - تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، القاهرة- ١٩٩٤، ص ٤٠٩- ٤١٠.

٢- نفس المرجع، ص ٤١١.

نشأة الوثنية:

أمامنا روايتان تتحدثان عن نشأة الوثنية العربية. الأولى ترى أنها وافدة والثانية ترى أنها نشأت نشأة محلية.

أما عن الرواية الأولى فإنها وفدت مع عمرو بن لحي حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكة، وقد جعلته العرب رباً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يُطعم الناس ويكسوهم في الموسم، وتذكر الرواية التاريخية أنه أول من أدخل الأصنام في الحرم.

يقول الرازي المفسر: اعلم أن اليونانيين كانوا قبل خروج الإسكندر قد عمدوا إلى بناء هياكل لهم معروفة بأسماء القوى الروحانية والأجرام النيرة واتخذوها معبداً لهم على حدة وقد كان هيكل العلة الأولى عندهم هو الأمر الإلهي، وهيكل العقل الصريح، وهيكل العامة المطلقة.

وهيكل النفس والصورة وقد كانت مدورات كلها، وكان هيكل زحل مسدساً وهيكل المشتري مثلثاً، وهيكل المريخ مستطيلاً، وهيكل الشمس مربعاً، وهيكل عطارد مثلثاً في جوفه مستطيلاً في ظاهره، وهيكل القمر مثمناً.

فزعم التاريخ: أن عمرو بن لحي لما ساد قومه وترأس على طبقاتهم وولي أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة إلى البلقاء فرأى قوماً يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أربابنا نستنصر بها فننصر ونستسقى فيها فنسقى. فالتمس إليهم أن يكرموه بواحد منها فأعطوه الصنم المعروف «بهبل» فسار به إلى مكة ووضعه في الكعبة ودعا الناس إلى تعظيمه، وذلك في أول مُلك «سابور ذي الأكتاف».

وواضح من هذه الرواية أنها تسند أول عملية أُدخلت فيها الأصنام للحرم إلى عمرو بن لحي، وأنه آتى بها من اليونان، فالوثنية اليونانية دخلت مكة، وهذا من الآثار اليونانية. وهذه الرواية.[1] يبدو آنها أكيدة لأن الأصنام غير «هبل» كانت حجارة خالية من الفن، والذوق الجمالي، فلو أنهم أبدعوها لألبسوها مسحة فنية جمالية، وفي هذا ما يشير إلى آن العربي غيَّر من دينة الحنيفي، لكنه ظل محباً لرمزياته المقدسة، ومن أهمها الكعبة فحينما ابتدع أصناماً أو حينما آتى بها من الخارج في بعض رحلاته رأيناه يودعها في الكعبة، فالرمزيات عند العربي، لا تخرج عن معنى: الإلف، والعادة، والإرث، ولا تحمل لديه مضموناً فكرياً أو دينياً، لذلك كنا

١- تفسير الرازي، ج١، ص ٢٣٢.

نراه لا يعنى بالدين في شيء، فالمعنى الديني لا يخرج عن معنى العصبية القبيلة، ولعل ما قاله لهم عمرو بن لحي: نستنصر فننصر، قد صارت عقيدة بينهم توارثوها، ونراها ظهرت على لسان عبد المطلب وهو يفاوض أبرهة حينما قال له: آما الإبل فهي لي وأما البيت فله رب يحميه»، وتعني هذه العبارة في نظرنا أن العربي يتميز بنظراته المادية، هذا من ناحية، وأما ناحية الموقف العربي القبلي آمام أبرهة فلم يظهر بالمستوى اللائق به فإنه كان قبلياً في تشتته وليس عربياً، فالوحدة العربية ظهرت مع الدعوة الإسلامية، ولعل ذلك يرجع في نظرنا إلى العربي نفسه، حين أيد وجهة نظر العربي المفاوض: إن الأمان يتحقق عند العربي حين يأمن اقتصادياً ولو أوذي الدين وليس الأمان في الدين، حين يهدد الاقتصاد، وكانت هذه النظرة من آهم ما كافحها الإسلام.

ونظرته المادية هذه هي التي دفعتهم- وفقاً لما يقول المؤرخون الإسلاميون- إلى الاعتقاد أن فكرة الحجر المقدس نشأت أساساً من حبه للكعبة وارتباطه الديني بها منذ أن بناها أبوه إبراهيم وربط بها ملته الحنيفية، غير أن العربي أكثر من الرمزيات المحسوسة دون مضمون فكري وراءها فكانت وثنية من غير مضمون فكري، وكانت أصنامه من غير مسحة فنية، وكانت الوثنية العربية ساذجة.[1]

وأما عن الرواية الثانية فإنها ذكرت في آكثر من مصدر. يقول الآلوسي:

وقد بلغ تعظيم العرب لمكة أنهم كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون فإذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجراً من حجارة الحرم فنحته على صورة أصنام البيت ثم يجعله في طريقه قبلة ويطوف ويصلي له تشبيهاً بأصنام البيت، ثم أفضى بهم الأمر بعد طوال المدة إلى ان كانوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه فلذلك كان أصل عبادة العرب للحجارة في منازلهم شغفاً منهم بأصنام الحرم وليس تذوقاً للمعنى الديني القويم.

ثم نعود فنقول نحن بين روايتين:

رواية عمرو بن لحي التي تقرر أن الأصنام وافدة من بلاد اليونان، أي نشأت عن مصادر خارجية. والرواية الثانية تقرر أنها ليست وافدة، وإنما هي من صنعهم، أي نشأت نشأة محلية، ولا مانع لدينا آن نأخذ بالروايتين معاً، على أساس آن عمرو بن لحي استقدم التماثيل حتى يوافق هوى قومه من حبهم للأحجار وتصبح هذه الرواية مخصوصة بالأحجار المصورة المنحوتة وليس بأصل عبادتها.[2]

١- محمد إبراهيم فيومي - تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، القاهرة- ١٩٩٤، ص ٤١٢- ٤١٣.

٢- المرجع السابق، ص ٤١٤.

الأصنام:

نجد في كتاب الأصنام لابن الكلبي، وفي المؤلفات الإسلامية مثل المخصص. لابن سيده: أسماء عدد من الأصنام كان الجاهليون يعبدونها وهي على الأكثر أصنام كان يتعبد لها آهل الحجاز ونجد، والعربية الشمالية. وذلك قبيل الإسلام.

ومن هذه الموارد الإسلامية استقينا علمنا عن هذه الأصنام. وهي أصنام ذكرت في القرآن الكريم، في قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى﴾[1] إلخ الآيات. ويجب أن نضيف إليها «الشمس».

١- اللات:

ذكر ابن الكلبي أنه كان صخرة مربعة بيضاء، بَنَتْ «ثقيف» عليها بيتاً، صاروا يسيرون إليه، يضاهون به الكعبة، وله حجبة، وكسوة ويحرمون واديه. وكانت سدانته لآل «أبي العاص» ابن «أبي يسار» ابن مالك من ثقيف، أو لبني عتاب بن مالك. وكانت قريش، وجميع العرب يعظمونه أيضاً، ويتقربون إليه. حتى إن ثقفا كانوا إذا ما قدموا من سفر توجهوا إلى بيت «اللات» أولاً للتقرب إليه وشكره على السلامة. ثم يذهبون بعد ذلك إلى بيوتهم، وقد كانت له معابد كثيرة منتشرة في مواضع عديدة من الحجاز.

وذكر ابن كثير أن «اللات» صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش. وكانت في داخل بيت له أستار على شاكلة الكعبة.

وللإخباريين روايات عن صخرة اللات. منها أنها في الأصل صخرة كان يجلس عليها رجل يبيع السمن واللبن للحجاج في الزمن الأول. وقالوا: إنها سميت باللات لأن «عمرو بن لحي» كان يَلت عندها السويق للحجاج على تلك الصخرة.

وقالوا: بل كانت اللات في الأصل رجلاً من ثقيف. فلما مات قال لهم «عمرو بن لحي»: لم يمت، ولكن دخل في الصخرة، ثم أمر بعبادتها، وأن يبنوا بنياناً يسمى «اللات».

وقيل: كانت صخرة مربعة، وكان يهودي يلت عندها السويق.

وذكر الطبري: أن اللات هي من الله تعالى- ألحقت فيه التاء فأنثت.

١- سورة النجم: الآية ١٩.

كما قيل: «عمرو» للذكر، وللأنثى «عمرة»، وكما قيل: للذكر عباس ثم قيل للأنثى «عباسة».[1]

ولا يستبعد أن تكون صخرة اللات صخرة من هذه الصخور المقدسة التي كان يقدسها الجاهليون، ومن بينها «الحجر الأسود»، الذي كان يقدسه أهل مكة، ومن كان يأتي إلى مكة للحج، وفي غير موسم الحج، لذلك: كانوا يلمسونه ويتبركون به.

واللات من الآلهة المعبودة عند النبط أيضاً. وقد ورد اسمها في نصوص «الحجر وصلخد وتدمر»- وهي من مواضع النبط.

ويذكر الباحثون أن النبط عدوا «اللات» أماً للآلهة، وقد عُبدت اللات في تدمر، وفي أرض مدين عند اللحيانيين. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن اللات تمثل الشمس وهي أنثى. آي إلهة.

وقد انتهت إلينا أسماء رجال أضيفت إلى اللات مثل «وهب اللاب» و «تميم اللات» و «زيد اللات»، «شيع اللات».

وقد اسموا باللات كما أقسموا بالأصنام الأخرى.

٢- العزّى:

والعزى صنم أنثى. وأما الذي اتخذ العزى- على رواية ابن الكلبي- فهو «ظالم بن أسعد» وقد ذكر الطبري روايات عديدة تفيد أن العزى شجيرات ولكنه أورد روايات أخرى تفيد أنها حجر أبيض. فنحن إذن أمام رأيين:

رأي يقول: إن العزى شجيرات، ورأي يقول: إنها حجر.

ويقول ابن الكلبي: ولم تكن قريش بمكة، ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم «العزى» ثم مناة.

فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية. وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة هؤلاء الآخرين. وكلهم كان معظماً لها. أي العزى. ولابن الكلبي رأي في إقبال قريش على العزى إذ يقول: فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية وذلك فيما أظن لقربها منها.

فجعل بيت العزى من قريش هو السبب في إقبال قريش عليها.[2]

١- جواد علي. - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦ ص ٢٣٠- ٢٣١.

٢- المرجع السابق، ص ٢٣٩ وكتاب الأصنام ص ٢٧- ١٦.

وكان فيمن يتقدم إلى العزى بالنذور والهدايا والد خالد بن الوليد.

ذكر خالد أن والده كان يأتي «العزى» بخير ماله من الإبل والغنم، فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثة أيام.

وذكر الطبري أن العزى صنم لبني شيبان بطن من سليم- حلفاء بني هاشم- وبنو أسد بن عبد العزى- يقولون هذا صنمنا وأنها كانت بيتاً يعظمه هذا الحي من قريش، وكنانة ومضر كلها.[1]

٣- مناة:

وهو من الأصنام المذكورة في القرآن الكريم، في قوله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى۝﴾[2]

وهذه الأصنام الثلاثة هي إناث في نظر الجاهليين. وموضع «مناة» بالمشلل على سبعة أميال من المدينة. وقيل: إنه بموضع «ودان» أو في موضع قريب منه.

وذكر اليعقوبي أن مناة كان منصوباً بفدك مما يلي ساحل البحر. والرأي الغالب بين أهل الأخبار أنه كان على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد.

وأما سدنته فهم «الغطاريف» من الأزد. وذُكر أن تلبيته كانت:

لبيـــــك اللـــــهم لبيـــــك
لـــــولا أن بكـــــراً دونـــــك
يـــــبرك النـــــاس ويهجرونـــــك
ومـــــا زال حـــــج عـــــثج يأتونـــــك
آنـــــا علـــــى عـــــدواتهم مـــــن دونـــــك[3]

ويظهر من أقوال ابن الكلبي أن هذا الصنم كان معظماً وخاصة عند الأوس والخزرج، أي أهل يثرب، ومن يأخذ مأخذهم من عرب المدينة، والأزد، وغسان، فكانوا يحجون ويقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رؤوسهم عنده، وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك، ولكن القبائل العربية الأخرى كانت تعظمه كذلك. وفي جملتها قريش، وهذيل، وخزاعة، وأزد شنوءة.

١- الطبري. - ج٢ ص ٣٦٤.

٢- سورة النجم: الآيات ١٩-٢٠.

٣- جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦ ص ٢٤٦.

٤- هبل:

يقول ابن الكلبي: وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها هبل، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلت له يداً من ذهب. وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر.

وكان يقال له: «هبل خزيمة». وكان في جوف الكعبة، قدامه سبعة أقداح مكتوب في أولها: «صريح» والآخر «ملصق» فإذا شكوا في مولود أهدوا إليه هدية، ثم ضربوا بالقداح، فإن خرج صريح ألحقوه، وإن خرج «ملصق» دفعوه وقدح على الميت، وقدح على النكاح، وثلاثة لم تفسر على ما كانت فإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوه فاستقسموا بالأزلام عنده، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله.

وجاء في رواية أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم «موآب» من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، وهم ولد عملاق - ويقال عمليق- وجدهم يتعبدون للأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه الأصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنماً يقال له «هبل». وأخذه فتقدم به إلى مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته.

وكانت تلبية نسك «هبل» لبيك اللهم لبيك. إننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح. يحسدنا الناس على النجاح.[1]

وذهب بعض المستشرقين إلى أن أهل هبل هو رمز إلى إله القمر وهو إله الكعبة، وهو الله عند الجاهليين. وكان من شدة تعظيم قريش له أنهم وضعوه في جوف الكعبة، وأنه كان الصنم الأكبر في البيت. وقد ورد اسم «هبل» في الكتابات النبطية التي عثر عليها في الحجر. ورد من اسم الصنمين:

دوشرا: ذي الشرى. منوتو: مناة.

وقد تسمى به أشخاص، وبطون من قبيلة كل، مما يدل على أن هذه القبيلة كانت تتعبد له، وأنه كان من معبودات العرب الشماليين. وباسم هذا الصنم سُميّ «هبل» بن عبد الله بن كنانة الكلبي. وزعم ابن الكلبي أن خمسة أصنام من أصنام العرب من زمن نوح وهي: ود- سواع- يغوث- يعوق- نسر.

١- جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٢٥١- الأصنام، ص ٢٧ وما بعدها.

وقد ذكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَاراً﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً...﴾[1]

٥- ود:

كان الصنم «ود» من نصيب عوف بن عذرة بن زيد اللات، أعطاه إياه: عمرو بن لحي، فحمله إلى وادي القرى، فأقره بدومة الجندل، وسمَّى ابنه «عبد ود». فهو أول من سمي به، وهو أول من سمى «عبد ود». ثم سمَّت العرب به بعد، وقد تعبد له «بنو كعب» ومنهم من يهمز فيقول: «آد». ومنه سمي «عبد ود»، و «آد ابن طانجة» و «أدد» جد معد بن عدنان.[2]

ويظهر أنه «آود» عند ثمود. و «أدد» من الأسماء المعروفة وقبيلة مرة نسبة إلى «مرة بن أود».

ويظن أن الإله «قوس» هو «ود» أي: اسم نعت له.

وذهب بعض الباحثين إلى أن «نسراً»، «ذا غابة» يرمزان إليه، و «وود» هو الإله الأكبر لأهل معين.

٦- سواع:

أما سواع فكان موضعه «برهاط» من أرض ينبع، وذكر أنه كان صنماً على صورة امرأة. وهو صنم «هذيل».

وينسب ابن الكلبي انتشار عبادته- كعادته- إلى عمرو بن لحي فذكر: إن «مضر بن نزار» أجابت عمرو بن لحي، فدفع إلى رجل من هذيل- يقال له «الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل»- سواعاً فكان بأرض يقال لها «رهاط» من بطن نخلة يعبده من يليه من مضر.

وذكر ابن حبيب أنه كان بـ «نعمان» وأن عبدته «بنو كنانة» وهذيل، ومزينة، وكان سدنته «بنو صاهلة» من هذيل.

وفي رواية أن عبدة «سواع» هم آل ذي الكلاع.

وذكر اليعقوبي أنه كان لكنانة.[3]

١- سورة نوح: الأيات ٢١-٢٤.

٢- جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦ ص ٢٥٥، اللسان ج ٤ ص ٤٦٨.

٣- جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٢٥٧.

ونسب بعض أهل الأخبار هدم الصنم «سواع» إلى «غاوي بن ظالم السلمي». ذكروا أن هذا الصنم كان لبني سليم بن منصور، فبينما هو عند الصنم، إذا آقبل ثعلبان يشتدان حتى تسنما. فبالا عليه فقال:

أرب يبول الثعلبان برأسه | لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم قال يا معشر سليم، لا والله هذا الصنم لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، فكسره ولحق بالنبي عام الفتح، فقال النبي ﷺ ما اسمك؟ فقال: غاوي بن عبد العزى. فقال: بل أنت راشد بن عبد ربه، وعقد له على قومه.

وقيل: إن هذه الحادثة، إنما وقعت لعباس بن مرداس السلمي. وقيل: لأبي ذر الغفاري.[1]

٧- يغوث:

أما يغوث فكان على رواية ابن الكلبي في جملة الأصنام التي فوقها ابن لحي على من استجاب إلى دعوته من القبائل، دفعه إلى أنعم بن عمرو المرادي، فوضعه بأكمة «مذحج باليمن»، فعبدته مذحج ومن والاها وأهل «جرش».

وذكر الطبري: أن بطنين من طيء أخذا يغوث، فذهبا به على مراد، فعبدوه زماناً. ثم إن بني ناجية أرادوا أن ينتزعوه منهم، ففروا به إلى بني الحارث بن كعب. أما سدنته: فكانوا من بني أنعم من طيء، وكانوا في جرش، وفي نحو سنة ٦٣٢ م أي السنة التي وقعت فيها معركة بدر حدث نزاع على الصنم: أراد بنو مراد أن يكون الصنم فيهم وسدنته لهم، وأراد بنو أنعم الاحتفاظ بحقهم فيه.

فهرب بنو أنعم إلى بني الحارث، واحتفظوا به بعد أن وقعت الهزيمة في مراد. وفي الحرب التي وقعت بين بني أنعم، وغطيف- حمل عبدة «يغوث» صنمهم معهم، وحاربوا مستمدين منه العون والمدد.[2]

ونجد بين آسماء الجاهليين عدداً من الرجال سموا بـ «عبد يغوث» منهم: من كان في «مذحج» ومنهم من كان في قريش، ومنهم من كان من هوازن.[3]

١- جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦، ص ٢٥٩.

٢- المرجع السابق، ص ٢٦٠- ٢٦١.

٣- المرجع السابق، ص ٢٦١.

٨- يعوق:

ويعوق أيضاً في جملة هذه الأصنام التي فرقها عمرو بن لحي على القبائل. وذكر ياقوت الحموي أن ابن الكلبي قال: واتخذت خيوان «يعوق» وكان بقرية لهم يقال لها «خيوان» من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة، ولم أسمع لها ولا لغيرها شعراً فيه، وآظن ذلك لأنهم قربوا من صنعاء، واختلطوا بحمير، فدانوا مهم باليهودية أيام تهود ذي نواس فتهودوا معه. ونسب الطبري عبادة يعوق إلى «كهلان». وذكر أنهم توارثوه كابراً عن كابر، حتى صار إلى همدان. وذكر في رواية أخرى، آن يعوق اسم صنم كان لكنانة.[1]

٩- نسر:

وأما نسر فكان من نصيب حمير، أعطاه عمرو بن لحي. قيل لذي رعين المسمى «معد يكرب»، فوضعه في موضع بلخع من أرض سبأ، فتعبدت له حمير إلى ايام ذي نواس، فتهودت معه وتركت هذا الصنم.

وكان عُبّاد نسر آل الكلاح من حمير على رواية من الروايات.

وذكر اليعقوبي أنه كان لحمير وهمدان، منصوباً بصنعاء.

وذكر الطبرسي: في أشكال الأصنام، أسندها الواقدي، قال منها: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر من الطير.[2]

١٠- عميانس:

هو صنم خولان وموضعه في أرض خولان، وكان يقدم له في كل عام نصيبه المقرر من الأنعام والحروث.

وذكر ابن الكلبي أن الذين يعبدون له من خولان، هم بطن منهم، يقال لهم الأدوم، وهم الأسوم. وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً...﴾[3]

١- جواد علي - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦، ص ٢٦٢- ٢٦٣.

٢- نفس المرجع، ص ٢٦٤.

٣- سورة الأنعام: الآية ١٣٦.

وقد ورد ذكر هذا الصنم في خبر «وفد خولان» الذي قدم على رسول الله ﷺ قال لهم: ما فعل عمأنسي؟ فقالوا: بَشّر وعسّر، أبدلنا الله به، ولو قد رجعنا إليه هدمناه، وقد بقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به.

١١- إساف ونائلة:

ذكر اليعقوبي أن عمرو بن لحي وضع هبل عند الكعبة. فكان أول صنم وضع بمكة، ثم وضعوا به أساف ونائلة. كل واحد منهما على ركن من أركان البيت، فكان الطائف إذا طاف بدأ بأساف فقبّله وختم به، ونصبوا على «الصفا» صنماً يقال له: «مجاور الريح». وعلى المروة صنماً يقال له: «مطعم الطير».

وذكر محمد بن حبيب أن أسافاً كان على الصفا، وأما نائلة فكان على المروة. وهما صنمان. وكانا من جرهم، ففجر أساف بنائلة في الكعبة، فمسخا حجرين، فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما، ثم عُبدا بعد. وكان نسك قريش لأساف: لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك.

ويظهر أن مرد هذا القصص الذي يقصه علينا أهل الأخبار عن الصنمين، إنما هو إلى شكل الصنمين.

كان: أساف تمثال رجل على ما يظهر من روايات الإخباريين. وكانت نائلة تمثال امرأة. يظهر أنهما استوردا من بلاد الشام فنصبا في مكة، فتولد من كونهما صنمين لرجل وامرأة هذا القصص المذكور، ولعله من صنع القبائل الكارهة لقريش، التي لم تكن ترى حرمة للصنمين.[١]

١٢- رضى:

ذكر ابن الكلبي أنه كان لبني ربيعة بن كعب.. ثم تميم، فهدمه «المستوغر» وهو عمرو بن ربيعة بن كعب، هدمه في الإسلام وتعبدت لهذا الصنم قبيلة تميم.

وقد ورد اسم «عبد رضى» بين أسماء الجاهليين. ويظهر أن قبيلة طيء كانت قد تعبدت له كذلك.

ورضى من الأصنام عند قوم ثمود.

وقد ورد اسمه في كتابات ثمودية عديدة. وكانت عبادته منتشرة بين العرب الشماليين.

١- جواد علي ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦، ص ٢٦٧.

وورد في نصوص تدمر، وبين أسماء بني ارم. كما ورد في كتابات الصفويين، وورد على هذا الشكل: «رضو- رضى- هرضو- ها: رضو» ويظن أنه يرمز إلى كوكب.

١٣- مناف:

صنم من أصنام الجاهلية، قال عنه ابن الكلبي: وكان لهم «مناف» فيه كانت تسمي قريش «عبد مناف» ولا أدري أين كان، ولا من نصبه، وسمي به آيضاً رجال من هذيل وبه سمي «عبد مناف».

وقد عثر على كتابة وجدت في حوران ورد فيها اسم مناف مع إله آخر. ورد اسم «مناف» فيها على هذا الشكل MN,PHA وقد عثر على كتابة أخرى وجد فيها الاسم على هذه الصورة «منافيوس» Manaphius. مما يدل على أن المراد بالاسمين شيء واحد: هو الإله مناف.[1]

١٤- ذو الخلصة:

أما ذو الخلصة فكان صنم «خثعم»، و «بجيلة» و «دوس». ومن قاربهم من بطون العرب من «هوازن» ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة، والحارث بن كعب، وزبيد، والغوث بن مر.

وذكر ابن الكلبي أن سدانته بنو أمامة من باهلة بن أعصر. وفي رواية لابن إسحاق آن عمرو بن لحي نصب «ذا الخلصة» بأسفل مكة، وكانوا يلبسونه القلائد، ويهدون إليه الشعير والحنطة، ويصبّون عليه اللبن، ويذبحون له، ويعلقون عليه بيض النعام.

ويستنتج من كل هذه الروايات أن ذا الخلصة بيت كان يدعى كعبة أيضاً، وكان فيها صنم يدعى «الخلصة» لدوس وخثعم وغيرهم.

وكان بيت ذي الخلصة من البيوت التي يقصدها الناس للاستقسام عندها بالأزلام. وكان له ثلاثة أقداح: الآمر- الناهي- المتربص.[2]

١٥- سعد:

كان صخرة طويلة. وذكر اليعقوبي أنه كان لبني بكر بن كنانة وذهب ابن إسحاق إلى أنه في موضع قفر. وقيل إنه قرب اليمامة.

وذكر ابن الكلبي: إنه أقبل رجل منهم بإبل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها، فلما أدناها منه نفرت منه، وكان يهراق عليه الدماء فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه، وأسف،

١- جواد علي. - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦، ص ٢٦٧- ٢٦٨.

٢- المرجع السابق، ص ٢٧١-٢٧٢.

فتناول حجراً فرماه به، وقال: لا بارك الله فيك إلهاً، أنفرت عليَّ إبلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها، وانصرف عنه وهو يقول:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعدِ

وهل سعد إلا صخرة بتوفة ... من الأرض لا يدعى لغي ولا رشدِ

١٦- ذو الكفين:

ذكر ابن الكلبي أنه كان لدوس، ثم لبني منهب بن دوس، فلما اسلموا بعث النبي ﷺ- الطفيل بن عمرو الدوسي فحرقة، وهو يقول:

يا ذا الكفين من عبادكا ... ميلادنا أكبر من ميلادكا

آني حشوت النار في فؤادكا

وذكر أن هذا الصنم كان صنم عمرو بن حمحمة الدوسي أحد حكام العرب.

١٧- ذو الشرى:

وكان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد- صنم يقال له: «ذو الشرى». وورد في رواية للإخباريين أن ذا الشرى صنم لدوس كان بالسراة. وقد ورد اسم هذا الصنم في الحديث النبوي، وورد بين أسماء الجاهليين اسم «عبد ذي الشرى» و «ذو الشرى»: إله ورد اسمه في كتابات: بطرا، وبصرى.

١٨- الأقيصر:

كان صنم قضاعة، ولخم، وجذام، وعاملة، وغطفان. وكان في مشارف الشام. وكانوا يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده، ويلقون مع الشعر قرة من دقيق، وهي عادة كانت متبعة عند بعض قبائل اليمن كذلك.

١٩- نهم:

وكان لمزينة.

٢٠- عائم:

وكان لأزد السراة. ورد اسمه في شعر لزيد الخير، المعروف أيضاً بزيد الخيل.

٢١- سعير:

أما سعير فهو صنم عترة، وكان الناس يحجون إليه، ويطوفون حوله، ويعترون العتائر له.

٢٢- الفَلْس:

كان لطيء كأنه تمثال إنسان. وكانوا يعبدونه، ويهدون إليه، ويعترون عنده العتائر، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده، ولا يطرد واحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له. كان بنجد، وسدنته بنو بولان.

٢٣- اليعبوب:

صنم لجديلة طيء

٢٤- باجر:

كان صنماً للأزد، ومن جاورهم من طيء، وقضاعة.

٢٥- المحرق:

كان صنماً لبكر بن وائل، وبقية ربيعة في موضع سلمان، وأما سدنته فكانوا أولاد الأسود العجلي.

٢٦- الشمس:

«والشمس»: صنم لبني تميم، وله بيت، وكانت تعبده بنو «أد» كلها: ضبة- تميم- عدي- عكل- ثور.

وأما سدنته فكانوا من بني أوس بن مخاش بن تميم، فكسره هند بن أبي هالة، وصفوان آسيد... بن محاش. وقد قيل لها الإلاهة. وذكر اليعقوبي أن قوماً من عذرة تعبدوا لصنم يقال له «شمس».

٢٧- تيم:

به سمّي رجال من تيم، ومن غيرهم، مثل: «عبد تيم»، «تيم اللّه». وهناك أسماء أصنام أخرى لم ترد في كتاب الأصنام، إنما وردت في كتب أخرى.

وقد ذكرها ابن الكلبي نفسه في بعض مؤلفاته. ومن هذه الأصنام:

الأسحم- الأشهل- أوال- البجة- الجبهة- جريش- جهار- الشارق- صمودا- العبعب- عوض- ذو اللبا- السعيدة- عنم- قزح- قيس- المنطبق- نهيك- وغير ذلك.

وذكر ابن الكلبي أن العرب تسمي الطواف حول الأصنام، والأوثان: الدوار وعرَّف بعض أهل الأخبار الدوار بأنه: نسك للجاهلية، يدورون فيه لصنم، أو غيره.(١)

١- جواد علي. - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٢٨٢، الأصنام ص ١٠٧.

٢٨- مرحب:

وأما مرحب فصنم من أصنام حضرموت، وبه سمي «ذو مرحب» سادن هذا الصنم، وكانت تلبية من نسك له: لبيك. لبيك، إننا لديك. لبيك جئنا إليك.

٢٩- رئام:

وذكر اليعقوبي أن للأزد صنماً يقال له: رئام.

الوثن:

قال ابن هشام: يقال لكل صنم من حجر، أو غيره: صنم، ولا يقال وثن إلا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه.

وقد أورد أيضاً نصاً يفهم منه خلاف ذلك، وهو رواية: عن عمر بن الخطاب يقول فيه: اللهم غفرا، لقد كنا في الجاهلية على شر من هذا، نعبد الأصنام، ونعتنق الأوثان.

يفهم من قول عمر أن الأصنام تطلق على مظاهر عبادتهم، والأوثان على عقائدهم، فهما على القولين ليسا من المترادفات فنقول مثلاً إن آلهة الوثنيين أصنام فالوثني يترادف مع المشرك ويتقابل مع الموحد في الرواية التي ذكرها ابن هشام وتشير إلى التفريق بين الصنم والوثن، نراها غير دقيقة فالوثنية عقيدة والصنم مظهرها.[1]

سدنتها:

السدنة هم الذين يقومون بأمر الكعبة أو بطواغيتها. فكان للات سدنتها وحجابها من بني متعب من ثقيف، ولمناة سدنتها من الأوس والخزرج، وللعزى سدنتها من بني شيبان خلفاء بني هاشم.

وهذه أسماء سريانية. وقعت إلى الهند فسموا بها أصنامهم التي زعموا أنها الدراري السبعة ثم أدخلها عمرو بن لحي. ثم أصبحت عبادتها تقليداً حتى خلفت الخلوف. وقالوا: ما عظم هؤلاء آباؤنا إلا لأنها ترزق وتنفع وتضر واتخذوها آلهة. فاتخذت العرب مع الكعبة هذه الطواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي إليها كما نهدي للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها مع عرفانها بفضل الكعبة.

والطواغيت أطلقها القرآن على كل معبود من دون الله.

والجبت: الكاهن.

١- محمد إبراهيم الفيومي-تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، القاهرة- ١٩٩٤، ص٤٣١.

وقال ابن الكلبي: وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفرة كان أول ما يصنع إذا دخل منزلة أن يتمسح به أيضاً. وتدنت العرب في عبادة الأصنام: فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت: نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها: الأنصاب، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام، والأوثان وسموا طوافهم الدوار، وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها، فاتخذه رباً، وجعل الثلاثة: أثافي للقدر، وإذا ارتحل: تركه فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون، ويذبحون عندها كلها ويتقربون إليها، وهم على ذلك: عارفون بفضل الكعبة عليها، يحجونها ويعتمرون إليها، وكان الذين يفعلون ذلك في أسفارهم يهدفون للاقتداء بما يفعلون عندها ولصبابة بها، وكانوا يسمون ذبائح الغنم التي يذبحون عندها أصنامهم وأنصابهم تلك: العتائر، والعتيرة في كلام العرب: الذبيحة. والمذبح الذي يذبحون فيها لها العتر. ويقول ابن الكلبي: وكانت للعرب حجارة غير منصوبة يطوفون بها ويعترون عندها يسمونها الأنصاب.

وما زالت بداية ظهور الإلحاد عند العرب سراً غامضاً، ولكننا نعتقد أن إلحادهم كان يختلف عن أي نوع من الإلحاد عند الأمم الأخرى.[1]

وإذا نظرنا إلى تقدمهم العقلي نجد أفكارهم الدينية ساذجة وسهلة، وإذا سلطنا عليهم أضواء التاريخ نجد لديهم نوعاً من أحط أنواع الوثنية. ففي العصر الجاهلي لا نجد أي تعاليم جوهرية، ولكن على الرغم من ذلك كانت الأحداث كما يقول «كرهل»: لا تثبت إذا ما كان الشعب السامي الذي هاجر إلى بلاد العرب من الشمال الشرقي قد اعتنق العبادة التي وجدها في البلاد ثم أدخل نوعاً جديداً من العبادة التي انتشرت في أطوار تدريجية بين العرب.[2]

فتحولهم من التوحيد إلى الوثنية والإلحاد، لم يكن مباشرة، وإنما تمّ بعد مرحلة جرهم العبثية التي فسد فيها الدين وشوه، فلما ولي عمرو بن لحي دفعه إلى الوثنية لون من العصبية، وليست قضايا عقلية شغلته فأراد لها حلاً فتحول بسببها إلى الإلحاد، ولكن كانت العصبية، والتقليد، وهجر ما كان عليه جرهم من فساد وعبث.

١ـ محمد إبراهيم الفيومي-تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، القاهرة- ١٩٩٤، ص ٤٣٣.

٢ـ صلاح الدين خودا بخش. ـ حضارة الإسلام، ص ٢٥.

ولم تأت هذه الآلهة جميعها من التراث القومي، فبعضها وفد من الشعوب المجاورة طبقاً لاستعداد عام بين العرب الجنوبيين يحدوهم إلى النقل والاستيعاب استعداد يَسَّرَ في مراحل متأخرة دخول عقائد اليهودية والمسيحية.

اتجاه قريش نحو الزعامة:

١- ولاية الكعبة:

ولي قصي البيت وأمر مكة، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه، فكان قصي: أول رجل من كعب بن لؤي أصاب ملكاً أقرَّ له به قومه، ثم أعطوه مقاليد الأمور فكان له أمر: الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء. وبها حاز شرف مكة كله.

أعاد تخطيط مكة فقطعها رباعاً بين قومه. فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليه، وأصبحت داره بين شورى لقريش والعرب فلا يقضى أمر من أمورها إلا وفيه تشريعاته. وقد أقر للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه ديناً في نفسه، لا ينبغي تغييره، فأقر آل صفوان، وعدوان، والنسأة، ومرة بن عوف على ما كانوا عليه حتى جاء الإسلام.

على أي شيء اقرهم؟

آل صفوان: كان صفوان هو الذي يجيز للناس بالحج من عرفة، ثم بنوه من بعده، حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام هو كرب بن صفوان.

وعدوان: وكانت الإفاضة من المزدلفة في عدوان، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر حتى كان آخرهم الذي قام عليه الإسلام: هو أبو سيادة بن الأعزل.

والنسأة: هي التي كانت تحرم صفراً أو غيره، من الأشهر بدلاً من الشهر الحرام.

ومرة بن عوف: وكان يلي للناس الإجازة بالحج من بعد عرفة.

والغوث: كان الغوث إذا دفع بالناس يقول:

لا هـم إنـي تـابع تباعـه   إن كـان إثـم فعلـى قـضاعة

وتقول بعض الأخبار إن ولاية الغوث بن مرة كانت من قبل ملوك كندة. قثم بعد تقسيمهم في مكة، ففرض على قريش: رفادة الحاج وهي وضع طعام لمن لا زاد له من الحجاج.

٢- لقريش محامد تنسب إليهم:

فمنهم كعب بن لؤي وهو أول من جَمَّعَ يوم العروبة، ولم تسم العروبة الجمعة إلا منذ جاء الإسلام.

وإلياس: أول من أهدى البدن للبيت.

وعبد بن قصي: أول من أدخل الكتاب العربي أرض الحجاز قبل تعلمه بالحيرة، وتعلّمه أهل الحيرة من أهل الأنبار.

وأسعد الحميري: قال الرسول لا تسبوا أسعد الحميري فإنه أول من كسا الكعبة.

ودار قصي: هي دارة الندوة، وقد جعل بابها إلى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تقضي أمورها.

وهاشم: هو أول من سن الرحلتين لقريش: رحلتا الشتاء والصيف، وأول من أطعم الثريد للحجيج وكان يسمى: الفيض، لسماحته.

ويبتدئ يقص التاريخ، تاريخاً جديداً ليس لقريش ولكنه لمكة كلها. فقد نظّم أمور مكة على شكل مبتكر جمهوري- قبلي، يمكن أن يشبَّه بجمهوريتي البندقية وقرطاجة، لسيطرة الماليين من أرباب التجارة ورؤوس الأموال عليها. ولا يفترق قصي في وصفه هذا عن «الملك» في الملكية الرومانية الأولى، إلا أنه كان لا يحمل لقب ملك، والمؤرخون المسلمون منحوه فيما بعد هذا اللقب رمزاً لهذه السلطة الواسعة. وكانت فوق ذلك تحوز أكبر الأصنام.[١]

٣- معاهداتهم التجارية:

وملكت قريش المعاهدات التجارية التي عرفت بالإيلاف. والإيلاف كتاب أمان يعني أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف إنما هو أمان الطريق، وكان في قريش. يقول الهروي في «الغريبين»: الإيلاف: عهود بينهم وبين الملوك.

- تعاقد هاشم مع الروم على أمان التجارة في طريق الشام ومات في إحدى سفراته بغزة.
- وتعاقد المطلب بن عبد مناف مع اليمن وأخذ من ملوكهم عهداً لمن يتجر إليهم من قريش.
- وتعاقد عبد شمس بن عبد مناف مع الحبش فأخذ إيلافاً، وهلك بمكة فقبره بالحجون.

١- أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، ص ٥٢.

- وتعاقد نوفل بن عبد مناف فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش وإيلافاً ممن مر به من العرب ثم خدم ورجع إلى العراق ومات بسلمان.

وبهذه الإيلافات «العهود الآمنة» لمسالك التجارة اتسعت تجارة قريش وكثرت آموالها.

٤- التحمس القرشي:

الحمس جمع الأحمس وهم: قريش، ومن ولدت قريش، وكنانة، وبجيلة، وقيس، سموا حمسا: لأنهم تحمسوا في دينهم، أي تشددوا. والحماسة: الشجاعة، بمعنى أنهم كانوا يقفون بمزدلفة، ولا يقفون بعرفة، ويقولون: نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم، وكانوا لا يدخلون البيوت من أبوابها وهم محرمون، وكانوا قد ذهبوا في ذلك مذهب التزهد والتأله، يقول ابن إسحاق: لا أدري قبل الفيل، أو بعده ابتدعت آراء الحمس، ويغلب على ظني أنهم ابتدعوا هذا المذهب قبل عام الفيل منذ أن استقر أمرهم على خدمة البيت بعد قصي ووزعوا الزعامة بينهم وأحسوا بعصبيتهم القبلية وتميزهم، فبيتهم بيت العرب، ورب قبيلتهم: رب العرب، فنشأت فكرة الجمع بين فكرة الألوهية، وفكرة الملكية ليصبغ عليهم الصفة المقدسة.

ولقد قالوا في سبب تميزهم الطبقي والديني: نحن بنو إبراهيم، وأهل الحرمة، وولاة البيت، وقطّان مكة وسكانها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تعظمو شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم. وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظم من الحرم. فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها- وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم- ويرون لسائر العرب أن يفيضوا منها. إلا أنهم قالوا: نحن أهل الحرم فليس ينبغي أن نخرج من الحرمة ولا نعظم كما نعظمها نحن الحمس. والحمس أهل الحرم، ثم جعلوا لمن ولدوا للعرب من ساكن الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم قد دخلوا معهم في ذلك، ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لأنهم حتى قالوا: يحل لهم ما يحل لنا ويحرم عليهم. ما يحرم علينا، وكانت كنانة وخزاعة ترى أنه ينبغي للحمس أن يأتقطوا، ويأكلوا السمن. وهم لا يدخلون بيتاً من شعر ولا يستظلون إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرما.

ثم رفعوا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من احل إلى الحرم إذا جاؤوا حجاجاً أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة.

فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوفه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً. وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقى.

فحملوا على ذلك العرب فدانت به، ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها، وطاف الرجال بالبيت عراة وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا درعا مفرجاً ثم تطوف فيه.

ونلاحظ أن هذا المذهب الديني عندما وضعته قريش رمت به إلى ربط قبيلتها بقدسية البيت سواء أكانت القبيلة قائمة في حرمه الآمن أم كانت في الحل، فكل من ينتمي إلى قريش توالداً يكون تشريعه الخاص في نسكه. هكذا أصبح للعبادة في الكعبة مراسيم وثنية معينة: يحج الناس إليها في التاسع من ذي الحجة، فيحرمون ويطوفون، ويلبون، ويرمون الحجارة، ويتمسحون بالأنصاب والأوثان التي فيها، ويهدون ما هم مهدون ثم ينصرفون.

وكان أهل الحرم يؤموا الناس في المناسك، وسدانة البيت عندهم وراثية في آل «عبد الدار» وهم يشبهوا الأسر الدينية التي كان بيدها تنظيم الأعياد الدينية لدى اليونان.[1]

ومن جانب آخر عززت قريش بكل قوتها مركزها المالي باستغلال مركز مكة التجاري فنظمت القوافل فكان لها رحلتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، عدا الرحلات إلى الحيرة وتزايدت في اليمن وبالغت في نشر قداسة البيت الحرام لحماية تجارتها في الصحراء من غزو الفتاك.

وبهذا الإيلاف ربطت علائقها مع الأمم المجاورة أي باتفاقاته.

٥- نتائج التحمس القرشي:

الطواغيت لما رأت العرب ذلك طلبوا بيوتاً يضاهون بها الكعبة وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب، وتهدي إليها كما تهدي للكعبة، وتطوف بها كطوافها حول البيت العتيق، ومنها:

بيت رضا: أصبح هناك بين لبني ربيعة يدعى بيت رُضا- بضم الراء- هدمه المستوغر في الإسلام.

وذو الكعبات بسنداد: لبكر وتغلب ابني وائل.

وكان لإياد كعبة أخرى بسنداد من أرض الكوفة والبصرة في الظهر، وهي التي ذكرها الأسود بن يعفر، وقد سميت أن هذه البيت لم يكن بيت عبادة إنما كان منزلاً شريفاً فذكره.

١- انور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، ص ٥٥.

والقليس: وقد كان أبرهة الأشرم قد بنى بيتاً بصنعاء «كنيسة» سماها: القليس- بالرخام وجيد الخشب- وكتب إلى ملك الحبشة يقول: إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها أحد قط، ولست تاركاً العرب حتى أصرف حجهم عن بيتهم الذي يحجون إليه. فبلغ ذلك بعض نسأة الشهور فبعث رجلين من قومه وأمرهما أن يخرجا حتى يتغوطا فيها. ففعلا. فلما بلغه ذلك غضب وقال من اجترأ على هذا. فقيل بعض أهل الكعبة، فغضب وخرج إلى الحبشة فكان من أمره ما كان.

اللات: بيت لثقيف بالطائف كانوا يعظمونه مثل تعظيم الكعبة.

كعبة نجران: وكان لبني الحارث كعبة بنجران يعظمونها وهي التي ذكرها الأعشى في قوله:

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخى بأبوابها

وقد زعموا أنها لم تكن كعبة عبادة ولكن كانت غرفة لأولئك القوم الذين ذكرهم.

رئام: كان لحمير بصنعاء يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح وكانوا فيما يذكرون يكلمون منه، فلما انصرف تبع من مسيره الذي سار فيه على العراق قدم معه الحبران اللذان صحباه من المدينة فأمراه بهدم رئام.

فقال ما شأنكما به فهدماه وتهود تبع وأهل اليمن، ثم لم يسمع بذكر رئام ولا نسر في شيء من الأشعار ولا الأسماء.

بيت الحوراء: وكان رجل من جهينة يقال له «عبد الدار بن حديب» قال لقومه: هلم نبني بيتاً- بأرض في بلادهم يقال لها الحوراء- نضاهي به الكعبة ونعظمه حتى نستميل به كثيراً من العرب. فأعظموا ذلك وأبو عليه.

ولعل نشأة تلك البيوت المقدسة أو الطواغيت يرجع إلى نشأة مذهب قريش الاحمس الذي صبغ البيت الحرام بصبغة قرشية اضطرت القبائل المجاورة أن تحاكيها بمثل بيتها.

إن القضايا الفكرية التي تناولتها لائحة قريش كانت خالية من أي عمق فكري فلا نرى فيها ما يشير من قريب أو من بعيد إلى مشكلات المجهول: كقضايا البشرية، والخلق، ويبدو أنها كانت لا تراود عقل العربي إلا في اليسير النادر من الأوقات. فدينهم الوثني لا حياة فيه ولا معنى له. ولا يساعد أحداً منهم على أن يحدد العلاقات التي تربط هذه الآلهة المتعددة بالبشر. وصرفهم عن فهم ما لديهم من فكر غامض ناشئ عن قوة عالية فكانوا يقدسون الأوثان لأنها تمثل هذه القوة بوساطة طقوس وثنية ورثوها عن أجدادهم.

ووثنية العرب لم تستطع أن تجيب إجابات مقنعة على الأسئلة البدهية التي تترد في ذهن كل شخص مفكر مثل: من أين خلقت؟ وإلى أي نهاية مصيري؟ وما هدفي وعرضي من الحياة؟

لم يشغل العربي ذهنه بشيء من القضايا أو ما هو من قبيلها ولكن كانت حياة العربي حياة حرية ومسرح وسرور ومجون، وكانت الخمر والنساء والحرب هي الأشياء التي يحبها العربي ويهتم بها.

لقد كان هدفهم من الحياة آن يتمتعوا بحاضرهم وأن يحرزوا النصر في معاركهم، وإلى يومنا هذا نجد البدوي محتفظاً بهذه الصفات فهو في غالب حالاته لا يتقيد بالدين.

والدلائل تشير على أن الوثني في الجاهلية على العموم لم يكن يتمسك في دينة بعقيدة نابعة من شعور ديني عميق أو عاطفة روحية شديدة قائمة على عقل سديد أو تفكير سليم، ولكن هي عادات تأصلت في نفوسهم تقليداً لغيرهم أو تمسكاً بسلوك آبائهم وأجدادهم السابقين.

وإن تعدد الآلهة في صلته الضيقة مع تعدد الشياطين يدل على استعداد العرب القدماء لتشخيص القوة الكامنة في الأشجار وينابيع المياه وتسميتها بأسماء وربطها مع الإلهيات، ومهما يكن منشأ تعدد الآلهة فلا نرى بداً من تقرير أنه أفاد العرب باستثناء بعض النفوس المتزمتة في بعض المراكز الحضارية- وقادهم إلى جعل الدين مصدر تأملات أو بحوث نظرية.

على أن حوادث الحياة والتجارب مع العلم بأن قوى الطبيعة هي الغالبة في الصحراء- قد نمت في العربي المحارب قدرية عميقة لا لأن العربي يشبه أيوب الصابر على الأذى بل لأن العربي المحارب بالإضافة إلى المتناقضات في خلقه لا يحتمل أحداث الحياة بصورة سلبية فإن موقفه منها بادئ الأمر هو موقف المناضل غير أنه إذا وجد أمام المقدور أنحنى خاضعاً شاعراً بعقم الجهد أمام هذه القوى الهائلة المنطوية تحت كلمة «الدهر».

وهذا الاستسلام النهائي يملي عليه حكماً ذات يسارة لا تخلو من السمو موحية إليه بتصرفات عرضية ولكنها مؤثرة جداً في بعض الأحيان، وهكذا كان العربي بارتفاعه فوق نظرته التافهة للوجود قد عوض إلى حد ما عن فقر فكره الديني.[1]

١- محمد إبراهيم الفيومي - تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، القاهرة- ١٩٩٤ ص ٤٥١- ٤٥٢.

عبادة النجوم

الصابئة

قديمة جداً هذه الفرقة التي آمنت بإله خالق، واعترفت بالعجز عن الوصول إلى جلاله بواسطة روحانية لا جسمانية. والصابئون هم بالحقيقة- على رأي البيروني- المتخلفون من أسرى بابل الذين نقلهم بختنصر من بيت المقدس إليها. ولقد اعتادوا أرض بابل فآثروا المقام بها. ولما لم يكونوا من دينهم بمكان معتمد، سمعوا أقاويل المجوس، وصبوا إلى بعضها، فامتزجت مذاهبهم من المجوسية واليهودية، وانتشروا في بلاد الرافدين، على أن أكثريتهم سكنت سواد العراق.[1]

أما الشهرستاني فيقول في الملل والنحل: «وفي اللغة صبا الرجال إذا مال وزاغ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم صابئة».[2]

ويتحقق ابن العبري من مذهب الصابئة، فيرى أن دعوتهم هي دعوة الكلدانيين القدماء بعينها، وقبلتهم القطب الشمالي.[3]

ومما يجدر بالذكر أن مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين. ويفهم بالروحانيين ملائكة السماء. وهم يعتقدون أن للعالم فاطراً ويرون من الواجب عليهم معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله. فيتقربون إليه بالمتوسطات لديه، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وفعلاً وحالة.

فبالجوهر، يعني أن الروحانيات من حيث جوهرها قد جعلت على الطهارة وفطرت على التقديس، يتقرب إليها ويتكل عليها. فهي أربابهم وآلهتهم ووسائلهم وشفعاؤهم عند الله. وهو رب الأرباب وإلة الآلهة.[4]

١- البروني - الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ٣١٨.

٢- الشهرستاني - الملل والنحل ج ٢، ص ٩٥.

٣- ابن العبري - مختصر الدول، ص ٢٦٦.

٤- الشهرستاني - الملل والنحل، ج ٢ ص ٩٥- ٩٦.

وبالفعل قالوا إن الروحانيات هم المتوسطون في تصريف الأمور، يستمدون القوة من الله، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية. ومن هذه الروحانيات مدبرات الكواكب السبعة السيارة. فالكواكب عندهم هياكل الروحانيات، لكل روحاني هيكل، ولكل هيكل فلك، وتكون نسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل «أي الكوكب» الذي اختص به، كنيسة الروح إلى الجسد.

وأما حالة، فأحوال الروحانيات في جوار رب الأرباب لا يعصون الله ما آمرهم. وما دام لا بد للإنسان من متوسط، ولا بد للمتوسط من أن يُرى فيُتوجه إليه، لذلك فزعوا إلى الهياكل «يعني السيارات السبع» يتعرفون على منازلها ومطالعها ومغاربها وكل ما يتعلق بها من صفات وحركات، وسموها أرباباً آلهة...

فكانوا يتقربون إليها تقرباً من الروحانيات، ويتقربون إلى الروحانيات تقرباً إلى الله، لاعتقادهم بأن الكواكب هياكل أو أبدان الروحانيات. ولما كانت الهياكل تأفل فلا يرونها أحياناً، لذلك اتخذوا أشخاصاً أصناماً على مثال الهياكل «الكواكب» السبعة... إذ لا بد لهم من صور وأشخاص موجودة قائمة نصب أعينهم ليقدموا لها العبادات.[1]

وهذا ما دعا البعض إلى أن يفرق بين من عبد النجوم مباشرة وبين الذين عبدوا الأصنام التي تمثلها، والحقيقة أنه لا فرق بينهما... والظاهر أنهم كانوا مع الكواكب السبعة «الشمس والقمر والزهرة والمشتري والمريخ وعطارد وزحل» يعظمون البروج الأثني عشر. فقد كانوا يعيدون لحول السيارة بيوتها، وكذلك كلما استهل الهلال، وحلت الشمس برجاً من الأبراج المذكورة.

معرفة العرب بالنجوم:

والظاهر أيضاً أن الصابئين قد نقلوا عن أساتذتهم الكلدانيين علوم الفلك. لأن مذهبهم هو نفس مذهب الكلدانيين القدماء، أولئك الذين كانت لهم عناية بأرصاد الكواكب، وتحقيق بعلم أسرار الفلك، ومعرفة مشهورة بطبائع النجوم وأحكامها.

ولما كان عرب الجاهلية على اتصال بسكان المناطق المتاخمة، فليس بعيداً أن يكون شيء من علوم الفلك قد تسرب إليهم عن طريق الصابئة، وهم من عرفهم العرب منذ القديم، وكانت لهم فيما بعد نفس المنزلة التي كانت لأولي الكتاب، كما أنه ليس عجيباً أن يندس

١- الشهرستاني - الملل والنحل، ج ٢ ، ص ٩٨- ١٤٦- ١٤٧- ١٤٨.

شيء من عبادة النجوم بين تلك العلوم المتسربة. ونرى من البدهي أن معرفة العرب للنجوم لم تكن منقولة بكاملها عن الصابئة أو غيرهم، فقد كان لهم مذهبهم في الصور الفلكية ومواضعها من فلك البروج. ويغالي ابن قتيبة فيزعم «أن العرب أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ومساقطها». ويجاريه بهذا الرآي ابن رشيق الذي يقول إن العرب أعلم الناس بمنازل القمر وأنوائها. والبيروني، بعد أن يرد على ابن قتيبة بأسلوبه العلمي الرصين، يعترف بأنه كان لهم ما لم يكن لغيرهم، وهو تخليد ما عرفوه أو حدسوه. حقاً كان أو باطلاً بالأشعار والأراجيز والأسجاع المتوارثة.

فأين إذن، هذه الأشعار والأراجيز والأسجاع؟ هذه الوثائق التي خلدت- على رأي أبي الريحان- ما عرفه العرب وما توصلوا إليه من علم الفلك والنجوم؟ لقد ضاعت فيما ضاع من الآثار، ولم يبق منها إلا القليل القليل، ومن هذا القليل نتأكد من أنه كان للعرب أقوال في الكواكب ومطالعها ومساقطها وصورها وأسمائها وأنوائها وما فيها من الأمطار والرياح والحر والبرد، وإمارات خصب الزمان وجدبه. وهم على رأي القزويني في أقوالهم أقرب إلى الصدق من غيرهم. ولا عجب إن مارسوا هذه الأمور، فطبيعتهم الصحراوية مكشوفة إلى النجوم التي يهتدون بها في أسفارهم وحلهم وترحالهم، ولقد جاء في الكتاب: ﴿...وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1].

ومن ميزاتهم أنهم اشتقوا أسماء الكواكب السبعة وغيرها من صفاتها كما نجد ذلك في معاجم اللغة. ﴿...بِالْخُنَّسِ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ۝﴾[2] التي ذكرت في القرآن- وهي السيارة عدا النيرين- إنما سميت خنساً لأنها تسير في البروج والمنازل كسير الشمس والقمر، ثم تخنس أي ترجع، بينما يرى أحدها في آخر البروج، وإذا به يكر راجعاً إلى الأول، وسميت كنساً لأنها تكنس أي تستتر كما تكنس الظباء.[3]

ولا ندري ما الذي آدى بالعرب وغيرهم إلى تسمية الكواكب بأسماء الحيوانات وغيرها من الأشياء الأرضية، فإننا لا نرى ثمة جملاً ولا ناقة ولا رجلاً ولا امرأة مهما أمعنا النظر في ليلة ظلماء أو قمراء. يقول القزويني إنهم سموها بهذه الأسماء لمعرفتها ومعرفة خواصها. ولربما كان ذلك راجعاً أيضاً إلى ميل الإنسان منذ البدء إلى تشخيص ما فوق حواسه الخمس وإحلاله

١- سورة النحل: الآية ١٦.

٢- سورة التكوير: الآيات ١٥-١٦.

٣- سليم الحوت - في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص ٨٢- ٨٣.

محل الموجودات من إنسان وحيوان ونبات وجماد، تلك الأشياء التي تحفّه من كل جانب. وقد مر معنا أن الصابئة إنما شخصوا آلهتهم لتكون بينهم ونصب أعينهم حتى يتمكنوا من أن يقدموا لها ضروب العبادات. وكذلك القول في أصنام العرب. فلا بأس إذن من أن تكون تسمية الأمم القديمة مجاميع الكواكب نوعاً من التشخيص المعنوي حتى يتمكنوا من تصورها في عقولهم.

ويظهر أن لصفات الكواكب المزعومة عند العرب أثراً في اشتقاق اسم ذلك الفرقد وتلك الكوكبة. ولنأخذ «الثريا» مثلاً: زعموا أن في المطر عند نوئها الثروة. فليس بعيداً، إذن، أن تكون مشتقة من الثراء.. وفي لسان العرب: «والثريا من الكواكب سميت لغزارة نوئها».[1]

وفي العمدة لابن رشيق: «سميت بهذا لأن مطرها عنه تكون الثروة وكثرة العدد والغنى».

وللنوء شبه صلة بعبادة العرب للنجوم وتعظيمها. وإيمانهم بالأنواء دعاهم إلى الاعتقاد بأثرها في تصرفاتهم وحركاتهم وسكناتهم. وقد نسبوا ذلك إلى الكواكب، وقالو إن التأثيرات متعلقة بأجرام الكواكب وطلوعها وسقوطها.

ومن أمثالهم: «أخطأ نوؤك» ويُضرب لمن طلب حاجته فلم يقدر عليها. والنوء النجم يطلع أو يسقط فيمطر، فيقال مطرنا بنوء كذا.

ومن الأنواء التي يعتبرها العرب شؤماً عليهم نوء «الدبران»، ذلك الكوكب الأحمر المنير الذي خشيته العرب وتشاءمت به، وزعمت أنهم لا يمطرون بنوئه، إلا وسنتهم جدبة. ففي نوئه يشتد الحر وتهب السمائم. ومما قيل في طلوعه: «إذا طلع الدبران، توقدت الحزان، وكرهت النيران، واستقرت الونان، ويبست الغدران». فلا غرابة إذا ضربت العرب بشؤمه المثل، فقالت: أشأم من حادي النجم- وهو اسم آخر له.

وسنرى أن هذا الكوكب الذي استدبر الثريا، لم يكتف بأن خشيه العرب بل عبده قوم منهم، كما عبد آخرون غيره من الأجرام.

فالعرب كما رأينا، كان لهم معرفة بالفلك، وكانت هذه المعرفة متفاوتة بينهم. وقد قالوا إن أعلم العرب بالنجوم بنو مارية بن كلب وبنو مرّة بن همام بن شيبان. كما كانت عبادة النجوم عند قوم أشد منها عند آخرين.

١- لسان العرب، ج ٨، ص ١٢١.

الزهرة:

يرى أمير علي في كتابه القيّم «روح الإسلام» أن العرب قد عرفوا المذهبين الصابئي والمجوسي، وقد أشار إلى الحميَّريين بنوع خاص.

وكذلك «هومل» في الموسوعة الإسلامية يرى- معتمداً على النقوش- أنه كان لعبادة النجوم في ديانة عرب الجنوب مكانة عظيمة. غير أن هذه المكانة لم تكن مختصة بحميَّر وسبأ. فقد ذهب بعضهم إلى أن ديانة العرب عموماً.

أو حتى ديانة الساميين بكاملهم، إنما كانت بالكلية مرتكزة على عبادة الأجرام السماوية. ولا يرى «نولدكه» ذلك، وإن اعترف بأن العرب، دونما ريب، قد عبدوا الشمس وغيرها من الكواكب كما عبدوا مؤلهات أخرى لا تفسر بأنها قوى علوية. وفي حديثنا عن العزى قلنا إنها الزهرة. ومما ذكره «نيلنو» معتمداً على «ولهاوزن» أننا نستفيد من المؤلفين السريانيين واليونانيين من القرن الخامس والسادس للمسيح، إن بعض العرب المجاورين للشام والعراق كانوا يعبدونها عند ظهورها. وكانوا يسمونها إذ ذاك العزى. وكان «سميث» أوسع منهما تعميماً لعبادتها حيث يقول إن الكوكب الزهرة «Venus» أو «Lucifer»[1] لم تكن آلهة قبلية، وإنما كما نعرف من مصادر عدة- كانت معبودة عرب الشمال بأجمعهم. وهنا، وبهذه المناسبة، نقول إن للكلدانيين درس السماء الأول. فقد زاولوا علم الهيئة قديماً، ولم يسبقهم أحد إليه. وكانوا قبل نجاحهم في علم الفلك نجاحاً يذكر مولعين بعلم التنجيم لكشف أسرار الغيب، وكانت هياكلهم موضوعة للمراقبات مع العبادة، ويكفيهم أنهم أول من أوجدوا خريطة للأجرام السماوية. ولا بد أن يكون اعتقادهم في الكواكب أساساً لدرس السماء وما فيه، فهم قوم من قديم الدهر كانوا يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم، ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة، ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية.

ولقد كشفت أعمال الحفر عن كثير من المباني الكلدانية التي أبقت الدهور على بقاياها، وأشهر هذه المباني باب عشتروت الذي كان مكرساً لهذه الآلهة. وهو البناء الوحيد في جميع بلاد بابل الذي تستحق بقاياه الذكر والإعجاب.. هذه الآلهة التي سماها الهنود مايا وبهافاني، والفرس ميترا، والفينيقيون عشتروت، والآشوريون أنايتيس، واليونان والرومان فينوس. واصطلح العرب على تسميتها بالزهرة.

١ـ Lucifer: باللاتينية تعني جالب الضوء وهذه إحدى تسميات الزهرة عندما يظهر كنجمة الصباح.

والزهرة في الميثولوجيا من أشهر المعبودات وأقدمها لأنها آلهة الجمال والحب، وكانت عبادتها قائمة باستباحة المنكرات وارتكاب القبائح الناشئة عن روح العشق في الطبيعة البشرية. وكانت الأمم القديمة تقيم لها المعابد وتنحت لها التماثيل. كما كان اليونان يمثلونها امرأة عارية على صور شتى، ويحتفلون بعيدها ليلاً تحت أشجار الآس في ليالي الثلث الأول من شهر نيسان. فلا غرابة إذن، في حمل الزهرة معاني البياض والحسن والبهجة عند العرب. وقد دعيت كما سماها المنجمون بالسعد الأصغر، لأنها في السعادة دون المشتري، وأضافوا إليها الطرب والسرور واللهو. كما أن النظر إليها يوجب الفرح، وتخفف عن الناظر إليها أحياناً حرارات العشق إذا كان عاشقاً، كما أنها تثير غريزة الجنس.[1]

الشمس والقمر:

الشمس، مع الزهرة والقمر، تكوّن الثالوث الإلهي الرئيسي- كما يعتقد «لانكدون» Langdon- وهو ممن يقولون بأن أصل الساميين من جنوب جزيرة العرب. أو الوحيد الذي ابتدأت به الديانة السامية الأولى. وثلاثته كما نرى مؤلهات فلكية، وهو في اعتقاده هذا، يعتمد على نقوش يمنية، وحضرمية ترجع إلى عهد الحضارات الجنوبية المندثرة.

والظاهر أن عبادة الكواكب ما زالت بين عرب حمير حتى هوّدهم ذو نواس. ومن البراهين القديمة التي نستدل منها على عبادة أهل سبأ للشمس، حديث سليمان والهدهد الذي جاء له بنبأ لم يحط به. وهذه البراهين تتلخص بالآيات:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ۝ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ۝ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ۝ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ۝ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ۝ أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ...﴾[2].

وفي شرح كتب التفاسير لتأويل هذه الآيات أخبار لا تخلو من فوائد وبخاصة ما يتعلق باتصال سليمان بالملكة بلقيس.

١- سليم الحوت - في طريق الميثولوجيا، ص ٨٩- ٩٠.

٢- سورة النمل: الآيات ٢٠-٢٥.

ولم يقتصر تقديس ذاك الثالوث السماوي على عرب الجنوب فقد كان يتحكم عند البابليين في منطقة البروج، وهي في نظرهم أهم قسم من أقسام الكون.

وقد كانوا منذ القدم يعتبرون الآلهة- ولا سيما الشمس- حماة العدل والقانون، كما ظنوا أنها تنتقم من الظالم والمجرم. وكثيراً ما تنشر كتب التاريخ القديم صورة لتمثال حمورابي وهو يتسلم دستوره من عشرين قرناً قبل الميلاد، من الإله الشمس.

ولا غرابة في عبادة الساميين للشمس. ونحن نعلم أن الساميين وغيرهم من الشعوب القديمة، وكذلك الشعوب البدائية في جميع أنحاء العالم قد عبدوا القوى الطبيعية التي لها تأثير، أو يظن بأن لها تأثيراً في حياتهم. وكانت المؤلهات عند الساميين تتألف كالإنسان من جسد وروح، فظاهر الشمس جسدها، والروح أو «البعل» في داخلها فهي شمس وإله معاً. فإذا عبدو القوى الطبيعية وشخصوها تدريجياً، فلماذا لا يعبدون إله الشمس وهو سيد القوى ومانح غلال الأرض من ثمار وحبوب ومالئ مخازنهم بخيرات الحصاد؟ هذا الإله لم يكن في العراق وحسب وإنما عمت عبادته سورية وفلسطين.

والظاهر أن عبادة الساميين للشمس، أو تمكّن هذه العبادة منهم لم تكن عريقة جداً بالقدم. ولربما اصطحبت مرورهم بالعصر الزراعي واستقرارهم في الأراضي الخصبة المنتشرة بأطراف الجزيرة، ولا بد من الإشارة إلى الإله «بعل» الذي عُرف أيضاً ببطن الجزيرة، في الواحات ومساقط الأمطار التي كان يؤمها البدو انتجاعاً للماء والكلأ تارة، وإيفاء بنذر ديني تارة أخرى. ومن المسلم به أن الشمس كانت بعل، أو إله أراض معينة، كما كان القمر رب «أور» و «حران» و «تدمر»، وكما كان غيره من الكواكب أرباباً لأماكن آخرى.

وقد عبد الشمس قبائل عربية عديدة في الجزيرة، وشخصوها بصنم وخصصوا لها هيكلاً، كما كثر في بلاد العرب وجود الأسماء التي انتسبت لها كعبد شمس، وامرئ الشمس، وعبد الشارق، وعبد المحرق، والأخير كما يقول نولدكه، ربما دل على لقب أو اسم آخر للإله الشمس.

ولعبادة الشمس شواهد راقية إلى القرن السابع قبل المسيح، فإن بين الكتابات التي وجدت في بابل كتابة لـ تغلات بلاصر يذكر فيها انتصاره على مدينة - دومة الجندل» وظفره بملكتها التي كانت كاهنة للإله شمس.[1]

ومما يذكر عن الصنم ذي الشرى أن اسمه كان يعني الإله المنير. وقد أكد المؤرخ استرابون أن النبطيين كانوا يعبدون الشمس كما جاء لهيرودتس أن العرب كانوا يعبدون

١- لويس شيخو. ـ النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، القسم الأول، ص ٨- ٩.

«اوروتال» وهي لفظة مركبة في اللغات الآرامية من كلمتي «نور» و «علا» أي النور المتعالي وأرادوا به الشمس.

ومن الشواهد الأخرى على عبادة العرب لهذا النيّر ما يذكره أصحاب المعاجم العربية، يقول ابن منظور: وشمس صنم قديم. وعبد شمس بطن من قريش قيل سموا بذلك الصنم. وقالوا إن شمساً صنم كان لبني تميم وله بيت. وكانت تعبده بنو «أد» كلها، ضبة، وتيم، وعدي، وثور وعكل. وكانت سدنته في بني أوس. وكان لقوم من عذرة صنم يقال له شمس. وفي تسمية العرب للشمس، الآلهة، برهان آخر على عبادتها. وقد جاء في بيت شعر لمية بنت أم عتبة بن الحارث- ويروى لغيرها- ذكر ذلك، قالت:

تروحنا من اللعباء عصرا   فاعجلنا الإلهة أن تؤوبا

سموها الإلهة تعظيماً لأنهم كانوا يعبدونها.

والظاهر أن العرب كانت تطلق «الإلهة» على ما كانت تعبده في الجاهلية فهي كما أطلقته على الشمس كذلك أطلقته على الأصنام والهلال.

ولعل في نهي الرسول عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند الغروب حافزاً لنا إلى الظن بأن محمداً خشي أن يتشبه المسلمون بالمشركين فتعُزى صلاتهم في هذه الأوقات إلى تعظيم الشمس كما عظمها الجاهليون.[1]

القمر:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ...﴾[2].

آية نستدل منها على عبادة القمر أيضاً، والطبري في تأويلها لم يشر إلى رواية ما تفيدنا في هذا الخصوص. إلا أن الزمخشري في الكشاف يقول:

«لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب. ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذا الواسطة وآمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً»[3] وعلى أي الوجوه فإننا نرى بها

١- سليم الحوت - في طرق الميثولوجيا، ص ٩٣- ٩٤.

٢- سورة فصلت: الآية ٣٧.

٣- حاجي خليفة - كشف الظنون، ص ٢٨٩.

برهاناً من بين البراهين- القليلة- التي تدل على وجود عبادة القمر بين العرب في جاهليتهم.
ولقد أشرنا سابقاً إلى أن القمر كان أحد الأجرام السماوية المهمة التي ألفت الثالوث الإلهي الرئيسي، أو الوحيد في ديانة الساميين الأولى. وأصبح عند البابليين الذين دعي عندهم بـ «سن» سيد الكواكب السيارة في السماء. وكانت له في «أور» و «حران» و «بابل» مراكز عبادة، كما كانت سيناء وأريحا مزارات مقدسة له. ولا نشك في وجود معابد أخرى مخصصة له في أماكن شتى... هذا النيّر الذي يجب أن يكون قد لفت أنظار الشعوب الفطرية بكاملها منذ البدء وأدخل في عقليتها أن له تأثيراً شديداً في الكائنات وفي تصرفات الإنسان وغيره من المخلوقات من حيوان ونبات وجماد. ذلك التأثير- كما اعتقد المنجمون فيما بعد- يختلف عند امتلاء القمر عنه عند نقصانه. بل هم يرون أن القوى الطبيعية تقوى بقوة القمر وتضعف بضعفه.

ولا بد أن يكون القمر إلهاً رئيسياً- كما كانت الشمس- لهذا البدوي الذي طالما ارتكزت ديانته على أسس فلكية علوية. وليس لدينا نص صريح ينوّه بعبادة العرب للقمر إلا ما جاء في القرآن، وما يقال عن عبادة بني كنانة. فعلى ما يظهر أن الخطوط التي تشير إلى عبادة القمر عند العرب قد طمست كما طمس الأكثر من آثار الوثنية العربية. غير أن من الثابت أن الحمْيَريين وغيرهم من سكان الجنوب- كما ورد في نقوشهم- قد عبدوا القمر. والثابت أيضاً أنه كان من الآلهة الرئيسية عند الصابئة، أولئك الذين زعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي، واتخذوا له صنماً على شكل عجل، وبيد الصنم جوهرة، يعبدونه ويسجدون له. ونحن نعلم أن عرب الجنوب كانوا على اتصال دائم بعرب الشمال، لا بل إن مستعمرات يمنية قد تأسست في غير مكان واحد من أواسط الجزيرة وشمالها، كما كانت الطرق التجارية تخترق الجزيرة بكاملها من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب مما أدى إلى الاحتكاك الشديد بين العرب على اختلافهم. ونعلم أيضاً أن من العرب من الصابئة، وقد أشرنا سابقاً على أن هذا المذهب قد عرف في البلاد العربية قديماً.

كل ذلك يؤكد أن عبادة القمر كانت معروفة بين أعراب الجزيرة حتى أن بعضهم يزعم أن بنات الله الثلاث: مناة واللات، والعزى إنما هي آلهات القمر، فمناة: القمر المظلم، واللات: القمر المنير، والعزى: الاثنان معاً.[1]

١- سليم الحوت.- في طريق الميثولوجيا. - ص ٩٦- ٩٧.

الدبران والثريا والشعريان:

لم يكتف العرب بعبادة الشمس والقمر، فإنهم عرفوا كثيراً من النجوم والكوكبات وعبدوها. ولقد أكرموا زحل والجوزاء والجبار.

وعبدت بنو لخم وجرهم المشتري، وبعض طيء سهيلاً، ذلك النجم الذي إذا وقعت عين الجمل عليه مات لساعته. وبعض قبائل ربيعة المرزم، والمرزمان نجمان مع الشعريين.. كما قيل أن عطارد عبد بين عرب بني تميم.

ومن جميل ما يزعمون- وهو بقايا أساطيرهم الميثولوجية- أن القمر أراد أن يزوج الدبران من الثريا حينما خطبها، فأبت عليه وولت عنه، وقالت للقمر ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له؟ فجمع الدبران قلاصة يتحول بها فهو يتبعها حيث توجهت، يسوق صداقها قدامه يعنون القلاص. غير أن العيوق- وهو كوكب أحمر مضيء يطلع قبل الجوزاء- عاق الدبران عن لقاء الثريا فسمي بذلك.

وقد أشار «طفيل الغنوي» وهو من الفحول على رأي أبي الفرج، ومن أوصف العرب للخيل- إلى وفاء الدبران بقلاصة حيث يقول:

أما ابن طوق فقد أوفى بذمته   كما وفى بقلاص النجم حاديها

والنجم في هذا البيت هو الثريا، وهي كوكبان على كاهل الثور، نيران في خلالهما ثلاثة كواكب صارت مجتمعة متقاربة كعنقود العنب... جعلها العرب بمنزلة كوكب واحد وسموها النجم.

وأما القلاص فهي النوق التي يسوقها الدبران صداقاً للثريا، كما في الأسطورة. وسمي الدبران بذلك لأنه دبر الثريا أي جاء خلفها، ويقال له أيضاً الراعي، والتالي، والتابع، والحادي، والمخدع. وهو النير الأحمر العظيم الواقع على عين الثور الجنوبية.

هذا وكلا الكوكبين «الدبران» و «الثريا» عدا بين الأجرام المؤلهة في الجاهلية، ولقد عظم الدبران كنانة وقريش. بجانب عبادتهما للعزى. وعبده طائفة من تميم. والظاهر أن عبادة العرب لهذا الكوكب كانت رهبة منه لا رغبة فيه. فهو كوكب مشؤوم عندهم لا يمطرون- على زعمهم- بنوئه إلا وسنتهم جدبة، ولهذا ضربوه مثلاً في النكد والشؤم فقالوا أنكد من تالي النجم.

أما عبادة العرب للثريا فصادرة عن أسباب تختلف كل الاختلاف عن عبادة الدبران.. قالوا إذا رأيت الثريا تدبر فشهر نتاج وشهر مطر، أي إذا بدأت للغروب مع المغرب فذلك وقت

المطر ووقت نتاج الإبل. ولقد عبدها بعض قبائل طيء، نسب لها العرب الاسم «عبد الثريا» وقالوا «عبد نجم».

وسبق أن ذكرنا أن النجم اسم آخر للثريا.. ولا غرابة في تأليههم «الثريا» وهي مانحة الغيث وللغيث شأنه في بلاد العرب، ﴿...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴾[1].

الشعريان:

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾[2]. آية أخرى من الآيات التي تشير إشارة لطيفة إلى عبادة الكواكب، وإلى إمكانية اعتبار هذا النجم معبوداً جاهلياً، وإن لم يقتنع «نولدكه» اقتناعاً كلياً بتفسير الآية حيث يستشف من خلال حديثه شكه في البرهان على عبادة الشعرى.

يقول الطبري إن الشعرى هو ذلك النجم الوقاد الذي يتبع الجوزاء. عبده قوم من العرب في الجاهلية، فلذلك قيل لهم أتعبدون الشعرى وتتركون ربها؟

ويقال أن بني قيس عيلان عبدوا الشعرى. وعلى رأي الزمخشري أن خزاعة كانت تعبد هذا الكوكب بعد أن سن لهم ذلك أبو كبشة. وهو من أشرافهم أو كما يقول البيضاوي، إنه أحد أجداد الرسول خالف قريشاً في عبادة الأوثان وعبد الشعرى. «وهو أول من عبدها، وكان يقول الشعرى تقطع السماء عرضاً ولا أرى في السماء شمساً ولا قمراً ولا نجماً يقطع السماء عرضاً غيرها».[3]

والعرب شخصت الأجرام السماوية، وأنزلتها منزلة البشر، كما ألهوها وعبدوها، وإن ضاعت أخبارها كما ضاع الكثير من آثار حياتهم الجاهلية وذلك لعدم تدوينها وحفظها للأجيال.

١- سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

٢- سورة النجم: الآية ٤٩.

٣- حسين الديار بكري. - تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج ١، ص ٦٥.

عبادة الإنسان والحيوان والنبات

تقديس الإنسان

لقد كان مجتمع القربى عندهم أصل المجتمع الديني وكل واجبات القربى كانت جزءاً من الدين. وهم في تعظيمهم الرؤساء كانوا كشأن غيرهم ممن عظموا الملوك تعظيم العبادة مع فرق ما تستوجبه الحياة ومقتضياتها. وهم، ما داموا غير مرتبطين ربطاً وثيقاً بإله، ولا يجمعهم دين عام كما تجمعهم أواصر القبيلة التي كانت مثال العروة الوثقى بينهم، فلماذا لا يعظمون ويقدسون سيدها أو يرفعونه إلى مكانة العبادة؟ وكان من بين هؤلاء الأسياد من يصبو إلى هذه المكانة.

ينقل الجارم عن السهلي قوله: «وكان الزبرقان يرفع له بيت من عمائم وثياب وينضح بالزعفران والطيب، وكانت بنو تميم تحج ذلك البيت».[1]

والزبرقان شاعر جميل- كما في الطبري- اسمه الحصين ويلقب بقمر نجد. وكان من أشراف بني تميم، وهو القائل مفتخراً ومشيراً إلى حج العرب بيته:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

غير أن ما حدثونا به عن عمرو بن لحي وعن ابتداعاته الدينية في الجاهلية، لأقرب إلى ما نحن في صدده من تعظيم العرب ورؤسائهم، وتقديس زعمائهم.

والأزرقي في كلامه عن هذا الكاهن يقول إنه: «بلغ بمكة وفي العرب من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله ولا بعده في الجاهلية... وكان قد ذهب شرفه في العرب كل مذهب، وكان قوله فيهم ديناً متبعاً لا يخالف». على أن منهم من ذهب إلى أبعد من ذلك فزعم أنه صار «للعرب رباً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم، وربما نحر لهم في الموسم عشرة آلاف بدنه، وكسا عشرة آلاف

1- محمد نعمان الجارم - أديان العرب في الجاهلية، الطبعة الأولى ١٩٢٣- مطبعة السعادة- مصر ، ص ١٢٤.

حلة». ولا عجب من بدوي ذي دين رقيق أو غير ذي دين إن يؤله مثل عمرو بن لحي... وإذا أضفنا إلى هذه الأسباب كهانة الخزاعي وأنه كان لديه- كما ذكرنا- رئي من الجن، كان ذلك كافياً لبدوي الجاهلية أن يضع مثل هذا الكاهن- ولا سيما إذا كان زعيمه- موضع التقديس، أو يرفعه إلى مكانة التأليه والعبادة.

تقديس الحيوان:

ومن مبتدعات هذا الكاهن عدا تغييره دين إبراهيم- فيما يزعمون- ونصبه الأوثان، أنه كان أول من بحّر البحيرة، وسيّب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي.

فالبحيرة ابنة السائبة.

والسائبة الناقة إذا تابعت اثنتي عشرة إناثاً ليس فيها ذكر سيبت. فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ثم خُلي سبيلها «وهي البحيرة» مع أمها في الإبل، فلم يركب ظهرها أيضاً، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف.

والوصيلة، الشاة إذا نتجت عشر إناث في خمسة أبطن ليس فيهن ذكر جُعلت وصيلة، قالوا: وصلت فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور بينهم دون إناثهم، على أن يموت منها شيء فيشتركون في أكله ذكورهم وإناثهم.

أما «الحامي» فهو الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر. عندئذ يحمي ظهره، ولا يجز وبره بل يخلىّ في الإبل يضرب فيها ولا ينتفع به بغير ذلك.

ولربما تبع هذه الحيوانات المقدسة ما سرق من الماشية، أو ضل والتجأ إلى حمى إله من الآلهة العديدة، حيث يتمتع بنفس الحرية التي تتمتع بها البحيرة وغيرها، وهي تعد أحياناً من ممتلكات الإله.

وفي حديث مالك بن كلثوم مع سادن صنم طيء، إشارة إلى ذلك. فقد اطرد هذا السادن، ويقال له صيفي، ناقة لامرأة من كلب فطلبها لها جارها الشريف مالك بن كلثوم. فرد عليه السادن بقوله:


إنهـــــا لربـــك.

وفي سورة الأنعام وردت آية حديثاً عن هذه الحيوانات المقدسة وما يرون فيها:

﴿وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا...﴾[1]

١- سورة الأنعام: الآية ١٣٨.

والبيضاوي يقول إن معنى حجر «حرام» والمراد بمن نشاء «خدم الأوثان والرجال دون النساء» والتي حرمت ظهورها هي «البحائر والسوائب والحوامي» وهم لا يذكرون اسم الله عليها «في الذبح» وإنما يذكرون أسماء الأصنام. ومن المعلوم أنه ورد في المائدة ما أفكر عليهم اعتقادهم هذا وهو: «ما جعل الله بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام».

ويظهر من حديث مالك بن كلثوم المذكور أن هذه الإبل المحرمة كانت تحل أحياناً، فقد بوأ مالك للسادن بالرمح عندما قال له إنها لريك، وأخذ الناقة ثم أرجعها حلالاً إلى جارته. ويروى أنه أُغير يوماً على إبل «لجرية بن أوس» وطردوها غير ناقة فيها مما يحرّم أهل الجاهلية ركوبه.

وذهب القوم في الإبل غير تلك الناقة الحرام فإنهم أخرجوها، وكرهوا أن تكون في الإبل. وبلغ «جريه» الخبر فقال لابن أخته: رد علي الناقة لعلي أركبها في اثر القوم، فقال: إنها حرام. وعندئذ قال «جريه»: «حرامه يركب من حلال له»... وركبها في أثر الإبل فأنقذها، وأصدر قوله مثلاً.

ونكاد لا نعلم شيئاً عن ميزات تلك الحيوانات الدينية، وشعائرها، على أنه بيّن أن فكرة نزول هذه الحيوانات زبائن أو ضيوفاً على الآلهة لم تكن غريبة عن العقلية العربية. وإن إطعامها كان عملاً دينياً في كثير من الأنظمة الوثنية، ولا سيما في مصر حيث كانت حتى الكلاب تعظّم وتأكل أكلاً مقدساً. وهل أنوبيس الإله كلب مقدس؟.

لا ندري إذا كانت حيوانات العرب المقدسة في الجاهلية قد ارتفعت إلى مكانة هذا الكلب؟ أو إلى مكانة عجل بني إسرائيل الذي ورد ذكره في الكتاب.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ...﴾[1]

غير أن الجارم ينقل على السهيلي من حديثه عن قدوم وفد طيء على الرسول ما ملخصه: خرج نفر من طيء يريدون النبي بالمدينة وفوداً، فلما وصلوا عقلوا رواحلهم بفناء المسجد. ودخلوا فجلسوا قريباً من النبي حيث يسمعون صوته. فلما نظر إليهم قال: إني خير لكم من العزى ولاتها ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله. وفي نفس المصدر حديث عن عمرو بن حبيب وإغارته على بني بكر حيث أصاب سقباً كانوا يعبدونه من دون الله، ونحره إغاظة لهم وأكله.[2] فإذا صح ذلك، كانت العرب قد ضربت في هذا النوع من الدين الطوطمي بسهم وافر.

١- سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

٢- محمد نعمان الجارم - أديان العرب في الجاهلية، الطبعة الأولى ١٩٢٣- مطبعة السعادة- مصر، ص ١٢٤.

والطـواطم، أو الحيـوان المقـدس Totem لم يعـد مطلقـاً لغـذاء إلا في حـالات دينيـة استثنائية نادرة، حيث تنتعش حياة القبيلة وتتجدد باشتراكها مع الآلهة في قسمة هذا الحيوان. وسيأتي معنا أنهم كانوا يتناولون لحم العتيرة بينما يكتفي الرب بالروح أو بالدم الذي يراق على رأس النصب أو الصنم.

فالطوطمية Totemism قد عرفت- كما يرى البعض- بين بعض القبائل معتمدين على وجود أفراد وعشائر دعوا بأسماء الطير والزواحف والهوام فكان بينهم: عنبس، وحيدرة، وأسامة، وهرثمة «بمعنى الأسد» وكان بينهم أوس، وذؤالة، ونهشل «بمعنى الذئب» وكذلك كلثوم «القطاة» والحنش والأرقم «الحيات».

وكان من بينهم هوزة «القطاة» والقطامي «الصقر» واليعقوب «ذكر الحجل» والهيثم «فرخ العقاب» وعكرمة «الحمامة» وكذلك جندب «الجرادة» والذر «أصفر النمل» والعلس «القراد» والفرعة «القملة» وغيرها.

أما نحن فلا نعلم علم اليقين لماذا سميت الأفراد والقبائل بمثل هذه الأسماء وبهذا لا نجرؤ على الحكم الجازم بوجود الطوطمية، وإن يرى القائلون بها حالات عديدة تؤكد هذا الوجود وتثبت أن الحيوان والرجل إنما كانا أخوة بالدم.

تقديس النبات:

ولم يكن تقديس الأشجار بين عرب الجاهلية بأقل من تقديس الحيوانات ونخص بالذكر شجرة النخيل التي كانت تؤلف قواماً من مقومات حياتهم، والتي لا بد أن تكون قد عبدت وقدست لهذه الميزة.

وليس بعيداً أن ينشأ في بلاد أعظمها عقيم أجرد صحراوي، شيء من تعظيم الأشجار والحج إليها في ظروف مباشرة وغير مباشرة ليؤدى لها نوع من العبادة والتقديس. ونعلم أن الواحات ومساقط الأمطار التي كانت تساعد على أن تكون مراكز تجارية يوم كانت الصحراء قبل أجيال من الإسلام طريقاً مهماً للتجارة الشرقية، ولا بد وأن تكون أماكن عبادة أيضاً يحج إليها من الأطراف.

ويذهب Smith إلى أبعد من ذلك فيقول إن تقدم الشعائر الدينية لم يكن مديناً إلى البدو الأقحاح، وإنما لهذه المستعمرات الزراعية والتجارية- من سامية ويمنية وآرامية- والتي لا يفدها البدو إلا كحجاج يؤدون فرضاً دينياً أو يوفون بنذر.[١]

١- R.Smith: Religion Of The Semites.P 109.

وأكبر دليل على تقديس العرب للأشجار حديث الخليفة الراشد ابن الخطاب في شأن شجرة الحديبية. فلقد بلغه- على ما ذكر ياقوت- أن الناس يكثرون قصدها وزيارتها والتبرك بها فخشي أن تعبد كما عبدت اللات والعزى، فأمر بقطعها وإعدامها فأصبح الناس فلم يروا لها أثراً.

والشجرة هذه هي المعنية بالآية: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ..﴾[1]. ومن تفسير البيضاوي للآية يفهم أن هذه الشجرة كانت سحرة أو سدرة.

وابن إسحاق في كلامه عن ابتداء وقوع النصرانية بنجران يقول: «وآهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد كل سنة إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلي النساء ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوماً».[2]

ولم تكن هذه العبادة لتقتصر على أهل نجران وغيرهم من سكان الجنوب، فقد جاء في السيرة أيضاً: «وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات آنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً».[3]

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أنه كان لعبادة الأشجار بين السريان الوثنيين مكانة عظيمة، كما أنها كانت عامة في بلاد اليونان الذين تحدثت أساطيرهم عن تحول الآلهة إلى الأشجار، أو عن نمو الشجر في دماء الآلهة.

معتقدات أخرى:

في كلامنا عن عبادة الأحجار فيما سبق ذكرنا أن قسماً من العرب في الجزيرة كان يدين بشريعة إبراهيم التي تلقوها من ابنه إسماعيل... ذلك النبي الذي أعطى للعرب الحجازيين اسمه ونشر بينهم دينه حيث آمنوا بالله الواحد، وبالبعث، وقاموا بالفرائض وتعظيم البيت والعمرة والحج إليه والطواف به. والسعي بين الصفا والمروة والوقوف على عرفة ومزدلفة وهدي البدن والإهلال وغير ذلك من المناسك الدينية. وحري أن ينكر عبادة الأحجار من كان مثل الحنيفية دينه وأن يأنف من تجسد الإله في صخر أصم.

ثم قلنا إن كلاً من الديانتين اليهودية والنصرانية قد عُرف في الجزيرة قبل الإسلام بكثير، وأشرنا إلى وجود أفراد بين العرب أنفسهم كانوا على شيء من البصيرة في الأديان

١- سورة الفتح: الآية ١٨.

٢ - السيرة لابن هشام، ص ٢٢. وانظر تاريخ الطبري ج ١، ص ٩٢٢.

٣ - نفس المرجع ص ٨٤٤.

على ما يظهر، فاعترفوا بوجود الله وسفهوا عبادة الآحجار وإن لم يعرف عنهم أنهم كانوا على دين... وتخلصنا بعد ذلك كله إلى حديث الحجارة المؤلهة من أصنام وأوثان وأنصاب، على أننا إذا رجعنا إلى القرآن نستفسره عن شأن عبدة الأصنام، أفدنا أن قسماً كبيراً منهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾[1]

وفي أخرى:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[2]

وقد مر معنا أن قريشاً كانت تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى.

والآيات التي تثبت إيمانهم بأن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض وأنه مدبر آمور الكون، كثيرة. وعليه نرى أن هذه المعتقدات حجة بيد من قالوا إن العرب كانت على دين إسماعيل ثم سلخ بهم إلى عبادة الحجارة طول الأمد والبعد عن زمن النبوة، ونزوحهم عن مكة وانتشارهم في البلاد. وعظيم الاحتمال- إن كانوا كذلك- إن لا يؤدي بهم الحدثان إلى نسيان كل ما كانوا عليه. فقد عبدوا الأصنام وفيهم بقايا من عهد إسماعيل وإبراهيم يتمسكون بها.[3]

أفكار الرسل:

وكما أشرك عباد الأصنام بالله آلهة أخرى، كذلك جحد الكثيرون إرسال الرسل. وكيف يكون هذا النبي أو ذاك مرسلاً من عند الله، وهو بشر مثلهم يأكل ويشرب وينام؟ إن البدوي بما يؤثر عنه من صعوبة الانقياد وضعف الشعور الديني- بالنسبة إلى كرامته الفردية والقبلية- والتفاني في الحرية الشخصية، ليصعب عليه الانصياع إلى رجل مثله يطلب منه الطاعة التامة، وهدم الكثير مما كان عليه من المعتقدات والعادات أجيالاً، وليجدر به أن يجحد إرسال مثل هذا الرجل! فهو يستصغر نفسه أن يُبعث إليه بشراً رسولاً...

١- سورة الزمر: الآية ٣.

٢- سورة يوسف: الآية ١٠٦.

٣ - سليم الحوت. - في طريق الميثولوجيا، مرجع سابق، ص ١١١- ١١٢.

إنكار البعث:

وكذلك أنكروا البعث. فإن عقلية البدوي البسيطة لم يكن بوسعها أن تؤمن بحياة أخرى، وخيالهم لم يتسع إلى تصور نشر جديد بعد ظلمة القبر وفناء الجسد بمواد الأرض وصيرورته هيولي جديدة.

وقد ورد شيء في أشعارهم يشك بالبعث، قال شداد بن الأسود الليثي من قصيدة يرثي بها مشركي قريش يوم بدر، وكان نفسه قد أسلم ثم ارتد:

يخبرنا الرسول بأن سنُحيى ... وكيف حياة أصداء وهام[1]

وفي هذا الشك يقول شاعر جاهلي:

حياة ثم موت ثم بعث ... حديث خرافة يا أم عمرو[2]

وقال الكتاب على لسان هؤلاء القوم:

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ۝ أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ۝﴾[3]

ولعل حديث الهامة واعتقادهم بها شيئاً من الاعتقاد في التناسخ وتنقل الأرواح. ولقد أنكر الرسول عليهم معتقدهم بها فقال في حديث له: لا هامة ولا عدوى ولا صفر. أما من كان على دين في الجاهلية، فلا يعتقد آن البعث حديث خرافة، بل يؤمن بالله واليوم الآخر. وهذا أمية بن أبي الصلت يذكر الجنة والنار فيقول في قصيدة:

همـا فريقـان فرقـة تـدخل الجنـة حفـت بهـا حـدائقها

وفرقـة مـنهم قـد أدخلـت النـار فـساءتهم مرافقهـا

عبادة الجن والملائكة:

هذا، ولم يكتف بالدين الفيتشي بعبادتهم مواد الطبيعة من إنسان وحيوان ونبات وجماد، بل امتد اعتقادهم إلى ما فوق الطبيعة فعبدوا الجن والملائكة. وشاهد ذلك ما جاء لابن الكلبي في قوله: «وكانت بنو مليح من خزاعة- وهم رهط طلحة الطلحات- يعبدون الجن»[4] وفيهم نزلت الآية:

---

١ ـ السيرة لابن هشام ص ٥٣٠ـ ٥٣١.

٢ ـ محيط المحيط لبطرس البستاني ج١، ص ٥٢٧.

٣ـ سورة الصافات: الآيات ١٦ـ١٧.

٤ ـ كتاب الأصنام، ص ٣٤.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]

وقد نزلت آيات كثيرة في الجن وعبادتها، منها:

﴿...بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[2]

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ...﴾[3]

وأما عبادة الملائكة فشاهدها قول قريش للرسول: «نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله»[4]. وقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[5]

ونكتفي بهذه الشواهد على عبادة الملائكة. وسنرجع إلى الحديث عن الملائكة والجن فيما بعد. ولقد مررنا بعبادتهم النجوم، واعتقادهم بها كما اعتقدوا بالجن والملائكة قوى فائقة للطبيعة. وهم في عبادتهم لهذه المخلوقات إما طوعاً لأنها تدير- على زعمهم- حركات الكون وتدبر شؤون العالم، وأما كرهاً لخوفهم من غضبها أو من الأرواح الشريرة. ومن الجن والعفاريت من يلقي الرعب حتى في نفوس الكثيرين من رجال اليوم[6]

الظواهر الطبيعية:

ولقد تلقي ظواهر الطبيعة الرهبة في النفوس أيضاً فتُعبد. ومما يُروى أن قسماً من العرب قد عبد البرق. وهم - كما في السيرة- بنو عدي، إنما سموا ببارق لأنهم تبعوا البرق[7] ويمتنع المطر فتقدم أنواع الشعائر لاستنزاله. يقول لامنس: «وكذلك القول عن صلاة الاستسقاء وعن الميزة أو الكرامة التي اختص بها بعضهم من استنزال المطر زمن الجدب، وهي ميزة يبررها عادة كون صاحبها يحفظ بيت القبيلة وقبتها، وللبيت والقبة مركزها الأسمى في هذه الأدعية الحافلة».

١- سورة الأعراف: الآية ١٩٤.

٢- سورة سبأ: الآية ٤١.

٣- سورة الأنعام: الآية ١٠٠.

٤- السيرة لابن هشام، ص ١٨٩.

٥- سورة سبأ: الآية ٤٠.

٦- سليم الحوت. - في طريق الميثولوجيا، ص ١١٤- ١١٥.

٧- السيرة لابن هشام، ص ٦٧.

هذا، ولا يعجب الإنسان أن يكون للمطر- وهو سر حياتهم- إله جدير بالعبادة. وعلى ذلك نرى «سميث» Smith يعتقد بأن النيران التي كانت توقدها قريش في المزدلفة إنما كانت نيران قُزح المقدسة.(١)

النار:

وتقودنا نار الإله قزح إلى الإشارة بأن عبادة النار لم تكن مجهولة لدى بعض أعراب الجزيرة. فقد عبدها أناس فيها وهم على رأي الآلوسي- أشتات من العرب، ربما سرى إليهم ذلك من الفرس والمجوس. ويقول ابن قتيبة إن المجوسية كانت في تميم، ويذكر أسماء بعض من كانوا يدينون بها.(٢) وفي كتاب الحيوان للجاحظ تفصيلات ومعلومات عن النار، وكذلك في نهاية الأرب للنويري حديث عام في النار، وآسمائها وعبادها وبيوتها مما لا حاجة لنا به، إلا ما جاء على ذكر نيران العرب العديدة. ولا نشير هنا إلا إلى ثلاث منها وهي: نار الاستسقاء، ونار التحالف، ونار الحرتين.

كانوا يشعلون مواد نباتية سريعة الاحتراق، ويعلقونها بأذناب البقر بعد أن يصعدوا بها إلى جبل وعر. وكان هذا العمل، في زعمهم، سببا من أسباب نزول المطر. هذه هي نار الاستسقاء التي كانت تصطحب بضجيج من الأدعية والتضرع.

وأما الثانية، وهي نار التحالف، فكانوا لا يعتقدون حلفهم إلا عليها. يطرحون فيها الكبريت والملح. ومما جاء في إيمان العرب في الجاهلية قال أبو عبيدة: كانوا في الجاهلية الأولى إذا تحالفوا وتعاهدوا، أوقدوا ناراً ودنوا منها حتى تكاد تحرقهم. وعددوا منافع النار ودعوا على ناقض تلك اليمين، والناكث لذلك العهد. بحرمان تلك المنافع ويتصافحون عندها، ويقولون: الدم الدم والهدم الهدم، والمعنى دماؤنا دماؤكم وهدمنا هدمكم، والهدم اسم البناء المهدوم، أي فما هدام أريق لنا، يلزمنا من نصرتكم ما يلزمنا من نصرة أنفسنا.(٣)

غير أن نار الحرتين التي أطفأها خالد بن سنان كانت على ما يظهر أحفل نيران العرب كلها بالخرافات. وهي في بلاد عبس. زعموا أنه كان يخرج منها عنق فسيح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، لا تمر بشيء إلا أحرقته...

١- قُزح: اسم مَلَك موكل بالسحاب، أو إله من بين آلهة العرب العديدة.

٢- كتاب المعارف لابن قتيبة. ص ٢٩٩ "وقد قال العلماء إن المجوسية كان يدين بها بعض العرب في البحرين" الكامل في التاريخ لابن الأثير ج١، ص ٤٣٨.

٣- سليم الحوت. - في طريق الميثولوجيا، ص ١١٧- ١١٨.

إلى أن كان من أمر خالد بن سنان ما كان حيث أخذ من كل بطن من بني عبس رجلاً وخرج بهم نحوها، وقد خرج منها عنق كأنه عنق بعير، وأحاط بهم فقالوا: هلكت والله أشياخ بني آخر الدهر. فقال خالد كلا! وجعل يضرب ذلك العنق ويقول: بَدَاً بَدَاً، كل هدي الله يؤدى! أنا عبد الله خالد بن سنان فما زال يضربه حتى رجع وهو يتبعه والقوم معه كأنه ثعبان يتملك حجارة الحرة حتى انتهى إلى قليب، فانساب فيه فدخل عليه خالد ينطف عرقاً!! وفي هذه النار يقول الشاعر:

كنار الحرتين لها زفير تصم مسامع المرجل السميع

ولا عجب بهذه الخرافة عندهم، فقد زعم بعض البربر النازلين بمصر أن خالد بن سنان هذا كان نبياً، وكانوا ينزلون بالفسطاط بمصر على كعب بن يسار بن ضبة العبسي، ويعظمونه زاعمين أن أباه هو خالد ابن سنان المذكور الذي بُعث إليهم. ومما يروى عن خالد هذا أنه قال لما حضرته الوفاة: إذا دفنتموني فاحضروا بعد ثلاث فإنكم ترون بعيراً ابتر يطوف بقبري، فإذا رأيتم ذلك فانبشوني، أخبركم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

ويزعمون أن بنته لما قدمت على النبي سمعت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] فقالت: كان أبي يتلو هذه السورة! وأكثر من ذلك ما رووا أن النبي قال عنها: هذه بنت نبي ضيعه قومه، وبسط لها رداءه[2]

وكانت في اليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم.[3] فهل بعد هذا شك في مكانة النيران وتقديسها بين بعض العرب في الجاهلية؟

وحديث النار يدعونا إلى الإشارة إلى المحرِّق. وهو على رأي ياقوت صنم كان بسلمان لبكر بن وائل وساير ربيعة. وكانوا قد جعلوا في كل حي من ربيعة له ولداً. وهذه الرواية هي التي دفعت «ولهاوزن» إلى الاعتقاد في ذلك. والعرب سمَّت باسم هذا الصنم، وكان عمرو بن هند يدعى محرِّقاً. يقول الضبي لأنه أحرق اليمامة.[4] ولا غرابة في تسمية ابن هند بالمحرق، فقد روى أبو الفرج أنه أقسم على اثر حادثة ليحرقن مئة رجل من بني حنظلة، فأمر بحفر أخدود وأضرم فيه النار ورمى بها أولئك المساكين.[5]

١- سورة الإخلاص: الآية ١.

٢- محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ج ٢، ص ٢٧٨.

٣- السيرة لابن هشام ص ١٧.

٤- أمثال العرب للضبي ص ٦٨.

٥- الأغاني ج ١٩، ص ١٢٩.

المقامات الدينية

لا شك في آن مكة وما حولها من أماكن الاستقرار كانت في الحجاز منذ القدم محجات للعرب يفدونها من كل صوب في مواسم معينة من السنة، اعتادوا أن يقيموها تبادلاً للمصالح المشتركة بينهم.

وكانت لهذه المواسم أسباب مهمة في سيادة أهل الحجاز، وبخاصة قبيلة قريش، في كثير من الأمور. كانتشار لغتها وعاداتها ومناسكها التي كانت تقدمها إلى أصنامها وحجارتها المؤلهة. يقول اليعقوبي: «كانت العرب إذا حجت البيت فرأت تلك الأصنام، سألت قريشاً وخزاعة فيقولون نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى. فلما رأت العرب ذلك اتخذت آصناماً فجعلت كل قبيلة لها صنماً يصلون إليه تقرباً إلى الله».[1] والظاهر أنه كان لهم أعياد كثيرة منها زمنية كأيام مسراتهم وأفراحهم لنصرتهم على عدو، وظفرهم بخصمهم، وهذا يكون عند قبيلة دون أخرى. ومنها مكانية وأهمها ما كان يقام في المدن حيث كانت مناة- كما في أحوال العرب- لأهل المدينة، واللات لأهل الطائف، والعزى لأهل مكة. ولهذه الأماكن الثلاثة كانت تشد الرحال فيقصدها العرب ويعظمونها كتعظيم الكعبة. وكان لها سدنة يقومون بخدمتها ولا سيما حينما يجتمع عبادها فيطوفون بها وينحرون عندها.

ويكاد لا يخلو كتاب من الكتب الأولى وغيرها إلا وذكر شيئاً عن الوثنية العربية وأن العرب- بدواً وحضراً- كانوا مع تعظيم للأصنام يعترفون بفضل الكعبة عليها لأنها- كما يرددون دائماً- بين أبيهم إبراهيم... ومن هذه الإشارة نفهم أنهم يُجمعون تقريباً- على القول بانتشار الحنيفية.

ولا نعلم تماماً أسباب حرصهم على هذه الفكرة. والظاهر أن السبب الرئيسي «إسلامي محض» يميل إلى إسناد ما هو متفش من الفضائل بين العرب الجاهليين إلى الدين الحنيفي القديم... إلى «الفكرة الإسلامية» التي كانت قبل الإسلام... إلى إسماعيل وإبراهيم.

١- تاريخ ابن واضح اليعقوبي- ج١، ص ٢٩٥.

ومع هذا فإن التوحيد لا بد أن يكون قد اقتصر على القليل بالنسبة إلى الأكثرية الوثنية المطلقة. ومما ذكره أمير علي في حديثه عن بنات الله أن عبادة هذه الأصنام كانت بالدرجة الأولى، تمثيلاً للقوة المولودة في الطبيعة. وهي تشبه في مميزاتها ديانة الساميين القدماء والفينيقيين والبابليين. على أن أكثرية الأمة، ولا سيما القبائل التي تنتسب إلى الشعب المضري، عكفت على نوع بسيط من الدين الفتشي، فكانت الحيوانات كالغزال والحصان والجمل، والنباتات كالنخيل، والمواد غير العضوية كقطع الصخور والأحجار... تكوّن الأشياء الرئيسية للعبادة. وقد وجدت فكرة الإله الأعلى بينهم، إلا أن تأثيرها كان مقصوراً على أقلية ضئيلة تخلصت من عبودية الوثنية متأثرة بتعاليم من جاورها من السبأيين، واليهود والنصارى.[1]

وقد اتخذت مؤلهات العرب الحجرية أشكالاً مختلفة- كما ذكرنا- منها ما كان ينقل، ومنها ما بقي مكانه حيث اكتشف ثابتاً في صخرة، ومنها- كالحجر الأسود- ما كان يحاط ببناية صغيرة، إذ لم تكف عبّاده أحاطته بالأحجار.

هذه البنايات المقدسة أمثال رضى، والقليس، وكعبة نجران، وسنداد، ورئام، وبيت العزى [وبعضها مسيحي] طالما حاول أصحابها أن يضاهوا بها الكعبة أو حرم مكة الذي قدسته العرب على مختلف قبائلهم ومعتقداتهم ونزعاتهم. ولما كانت لمكة هذه المكانة السامية في قلوب العرب الجاهليين «وفي عقيدة العالم الإسلامي في فيما بعد»، وجب أن نأتي عليها بشيء يجاري ما نحن بشأنه في بحثنا هذا.

مكة والكعبة:

كانت مكة مدينة الحجاز الأولى ومعقل قريش ومركز حكومتها ومجتمع الساسة ومنتدى القوم وقبلة العرب الذي إليها يفدون ويحجون. وللدلالة على أهميتها نكتفي بالإشارة إلى أن وجود أقدم بيت للعبادة كان فيها.

ولقد حافظت مكة على مكانتها الدينية والتجارية أيضاً منذ أقدم العصور إذ كانت محطة رئيسية في طريق القوافل التجارية بين الشرق والغرب.

ونحن لا ندري إلى أي زمن يرجع بنا تأسيس مكة على وجه الضبط. غير أنه لا يستبعد، بل يكاد يكون واقعياً، وجودها قبل المسيح بعشرات أو مئات من السنين. أما إذا

١- سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا، ص ١٢٤.

جاز لنا أن نأخذ الأسطورة التي تنسب تأسيسها إلى «مضاض بن عمرو الجرهمي»، صهر إسماعيل، كانت مكة عندئذ في عالم الوجود قبل التاريخ المسيحي بآلاف السنين.[1]

ولربما كان الجغرافي «بطليموس» أقدم من أشار إليها في التاريخ، والظاهر أنه كان يعرفها باسم مكورابا Macoraba. وياقوت في معجم البلدان ينقل عنه تحديدها طولاً وعرضاً بالدرجات. ومن ذكر بطليموس لها نستنتج أنها كانت بلدة عامرة في القرن الثاني للميلاد، على أنها يجب أن تكون كذلك قبل هذا التاريخ بكثير.

ويظن الدكتور Snouk Hurgrunje أنه ربما كان نبع ماء زمزم في واد غير ذي ماء، سبباً في إيجاد المكان المقدس هناك. وذلك لا يستبعد لما كان للواحات، ومساقط الأمطار في الجزيرة الصحراوية الكبيرة من الأثر في حياة البدوي المادية والروحية.

ولقد ذكر الكتاب ذلك الوادي على لسان إبراهيم حينما وصل ومعه هاجر وإسماعيل إلى الحرم، والتفت ولم ير أحداً، فقال:

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[2]

والقصة تتفق وظن الدكتور «شنوخ»، وتجيب إبراهيم على دعائه:

فقد ترك إبراهيم زوجه وولده: فاشتد عليهما الحر. فرأت هاجر في موضع بئر زمزم شجرة، وعلقت عليها ثوباً يظلها من حر الشمس، ونفذ ماء الكوز الذي كان معها، وعطشا، فلم تدر هاجر ما تصنع. وكانت تعدو نحو الصفا مرة، ونحو المروة آخرى في طلب الماء، وهي تقول:

إلهنا لا تهلكنا عطشاً، فهبط عليها جبريل وبشرها بالنجاة. فانصرفت إلى إسماعيل وهو يبحث الأرض بإصبعه فنبعت عين زمزم، فخرت ساجدة لله تعالى.

ثم جمعت الحصاة حوله لئلا ينشر الماء، وقالت له زمزم، فسمي بذلك، فلو أنها ما فعلت ذلك لساح الماء على وجه الأرض شرقاً وغرباً، فمكثا هنالك حتى أقبلت قافلة من اليمن تريد الشام عاكفة على هاجر وولدها، فتعجبوا من ذلك وقالوا إن الطير لا يأوي إلا على ماء والعمارة، فأقبلوا ووجدوا هاجر وإسماعيل على عين ماء عذب، وقالوا لها من الأنس أنت أم من الجن؟

١- سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا، ص ١٢٤ - ١٢٥.

٢- سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

فقالت: أخرج الله لولدي. فقالوا: إن حضرنا بأهالينا وسكنا هناك مؤنسين لك، فهل تمنعينا عن الماء؟ فقالت: إنه لله يشربه خلق الله. فرجعوا واحتملوا أهاليهم ومواشيهم ونزلوا الحرم.[1]

وقد مرَّ معنا حديث زواج إسماعيل من امرأة لهذه القبيلة، وبنائه البيت مع والده، وليس في مكة يومئذ بيت مشيد، وتعليم جبريل لهما المناسك كلها، واستقبال إبراهيم القبلة... الخ. فمكة إذن حسب هذه القصة لا بد وأن تكون نتيجة لاستقرار تلك القبيلة التي نزلت بزمزم جيراناً لإسماعيل وأمه.[2]

على أن الأخبار لا تكتفي بتلك القصة، فقد جاء بها: «إن أول خلق الله في الأرض مكان الكعبة، ثم دحى الأرض من تحتها، فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأُم القرى».[3]

ولربما رجعوا بخلق مكة إلى خلق الله السماوات فزعموا أنه «وجد على حجر فيها كتاب فيه آنا الله رب مكة الحرام وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر». «والكتاب على رأي ابن إسحاق بالسريانية».[4]

وكيف لا وقد بنتها الملائكة لأول مرة قبل آدم، لا بل قبل خلق الأرض بأربعين عاماً، وإذا شئت فبألفي عام، وذلك حينما أراد الله أن يجعل خليفة في الأرض، فأجابته الملائكة:

﴿...أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء...﴾[5]

وغضب عليهم فعادوا بالعرش، وطافوا سبعة أطواف، واسترضوا ربهم فرضي وأمرهم أن يبنوا له بيتاً في الأرض يعوذ به من سخط عليه من بني آدم، فبنوه حيال البيت المعمور- الذي هو تحت العرش- وعلى قدره ومثاله. وأمر من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.[6]

بهذا يفسرون:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[7]

١ـ قصص الأنبياء، ص ١٤٣.

٢ـ سليم الحوت. ـ في طريق الميثولوجيا، ص ١٢٦.

٣ـ معجم البلدان. ص ٢٧٩.

٤ـ المرجع السابق، ص ٦١٩.

٥ـ سورة البقرة: الآية ٣٠.

٦ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ج ١، ص ١٠٠.

٧ـ سورة آل عمران: الآية ٩٦.

وكانت الملائكة تحجه قبل آدم، فلما أهبط إلى الأرض اشتد حزنه وبكاؤه، فعزاه الله بخيمة من خيام الجنة ووضعها له في موضع الكعبة، وأنزل لها الركن كرسياً لآدم. وهما ياقوتتان من يواقيت الجنة...

وقد حرس الملائكة لآدم خيمته، وذادوا عنها ساكن الأرض يومئذ من الجن والشياطين. فمن أجل الملائكة ومقامهم حرَّم الحرم حتى اليوم ووضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة. وقد حرم الله على حواء دخول الحرم لخطيئتها في الجنة. حتى إذا أرادها آدم خرج بها من الحرم كله.(1)

ثم بنى آدم أساس الكعبة بعد دثور ما بنته الملائكة حتى ساوى وجه الأرض، وعلى هذا الأساس وضع البيت المعمور الذي أنزل من السماء. فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به... ولما مات آدم ورفعت خيمته التي عزاه الله بها بنى بنوه مكانها بالطين والحجارة بيتاً لم يزل معموراً حتى كان زمن نوح، فنسفه الغرق، وغير مكانه.

وفي رواية لم يمسه الطوفان بل رفعه إلى السماء سبعون ألف ملك، وبقيت قواعده حتى أن الماء لم يصل الكعبة بل قام حولها... وبقيت هي معلقة في الهواء إلى السماء، وإن سفينة نوح طافت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهت إلى الجودي.(2)

وكان الناس يحجون إلى مكة وإلى موضع البيت قبل إبراهيم حتى بوأ له الله مكانه، بعد أن أوحى إليه بناءه. وكان يومئذ في الشام «وقيل في أرمينية» عندما أقبل على البراق يتبع السكينة وهي ريح هفافة- أي ساكنة طيبة- لها وجه يتكلم، وجناحان. [وفي رواية أخرى هي ريح حجوج لها رأسان شبه الحية يتبع أحدهما صاحبه] ومعها ملك يدلها على موضع البيت.

ويروى أنه لما أراد إبراهيم بناء البيت عُرج به إلى السماء. فنظر إلى مشارق الأرض ومغاربها، وقيل له اختر، فاختار موضع مكة، فقالت الملائكة: يا خليل الله اختر موضع مكة وحرم الله في الأرض.

فبناه وجعل أساسه من سبعة أجبل «أو خمسة أو أربعة»، وكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى إبراهيم من تلك الجبال(3)

1- أخبار مكة، ص ٨- ٩.

2- المرجع السابق، ص ٧.

3- معجم البلدان، ص ٢٨١، أخبار مكة ص ١٣.

ثم انهدم بناء إبراهيم، فبنته العمالقة من بعده. ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم إلى آن كان زمن قصي وولايته أمر البيت فجمع نفقته، وهدم الكعبة ثم بناها بنياناً لم يبن مثله ممن بناها قبله أحد.

وقيل آن امرأة جمرت الكعبة بالبخور فطارت شرارة من مجمرها في ثياب الكعبة فاحترق أكثر أخشابها... ودخلها سيل عظيم فصدع جدرانها فهبت قريش تجدد بنيانها.

وهنا نكاد نتكلم حقائق لولا بعض المشويات، فقد بلغ رسول الله إذ ذاك خمساً وثلاثين سنة حينما اجتمعت قريش لبنيان الكعبة...

وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فأخذوا خشبها... وكان بمكة رجل قبطي نجار فتهيأ لهم إصلاحها، إلا أنهم كانوا يهابون هدمها، ويخشون أفعى كانت تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح بها ما يهدى لها كل يوم، فتتشرق على جدار الكعبة لا يدنو منها أحد إلا اجزألّت وكشّت وفتحت فاها... ويأتي طائر غريب فيختطف الحية، وبذلك يرضى الله عما أرادت قريش، فقد كفاهم أمر هذه الآفة وهيأ لهم العامل والخشب، فيجمعون أمرهم في هدمها وبنائها... ويتناول أحدهم من الكعبة حجراً فيثب من يده إلى مكانه، فيقول: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً. لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس. وبدأ الوليد بن المغيرة بهدمها، فتربَّص الناس تلك الليلة وقالوا لننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً، فلم يصبه شيء، فهدم الناس معه... حتى إذا انتهى بهم الهدم إلى أساس إبراهيم، آفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها ببعض... وقد أدخل رجل من قريش عتلة بين حجرين ليقلع أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس... وبعد أن تذكر السيرة الروايات التي تزعم أن كتباً وجدت هناك- وبعضها بالسريانية- يقول ابن إسحاق إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى.[1] ثم تكمل القصة كما هو معروف من احتكامهم إلى أول من دخل عليهم... وكان الأمين.

١- السيرة لابن هشام، ص ١٢٢- ١٢٦، اخبار مكة ص ١٠٧- ١٠٩.

الركن والمقام:

هذا الحجر الأسود الذي اختصمت على وضعه مكانه قبائل قريش، لا يشك البعض في كونه بقية صارخة من عبادة الأحجار. ويرى «ولهاوزن» أن الكعبة إنما تدين بقداستها لهذا الركن، ويعقّب «فنسنك» على ذلك بقوله إن ذلك ممكن لأن ديانة العرب القدماء، إنما كانت قائمة بجوهرها على عبادة الحجارة. ومن المعلوم أن الحجر الأسود لم يكن الحجر المقدس الوحيد في الكعبة، فقد وجد بها أصنام وأوثان وأنصاب كثيرة بينها الـ ٣٦٠ تمثالاً، كما أن مقام إبراهيم كان منذ القدم حجراً مقدساً. قال تعالى:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[1]

وليس ببعيد أن يكون الركن والمصلى « المقام » قطعتين من تلك الأحجار البركانية التي يخال إلى الناس أنها أجسام سماوية، ولربما كانا كذلك أي من بقايا نيازك متساقطة، وعلى هذا الأساس كان تقديس العرب الوثنيين لهما، وعبادتهما، كما قدسوا النجوم وعبدوها. وليس غريباً أيضاً أن تكون الأخبار المتأخرة مبنية على هذا الأساس. فقد ظل وما زال الركن والمقام من مقدسات العرب بعد الإسلام.[2]

ولا نحتاج إلى القول بأن تناهى المسلمين عن التحدث إلى الوثنية بعد آن عفوا على آثارها وأزالوا من الوجود في التاريخ وفي الأدب كل ما يتصل بها كان سبباً في طمس ما يتعلق بهذين الحجرين من مميزات وطقوس جاهلية... أما الروايات الإسلامية عنهما فكثيرة ومختلفة، غير أنها أجمعت على تقديسهما في الإسلام، ولا تكتفي الأخبار بتقديسهما فحسب، بل هما في الأصل « ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما. ولو لم يطمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب».[3]

وعن ابن عباس قال: « ليس في الأرض شيء من الجنة إلا الركن الأسود والمقام، فإنهما جوهرتان من جواهر الجنة، ولولا ما مسهما من أهل الشرك، ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه

١- سورة البقرة: الآية ١٢٥.

٢- سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا، ص ١٣٠- ١٣١.

٣- تاريخ الخميس ج ١، ص ١٠٠.

الله».[1] لا بل ينسبون إلى النبي حديثاً قاله لعائشة، وهي تطوف معه بالكعبة حين استلم الركن: « لولا ما طبع على هذا الحجر يا عائشة من أرجاس الجاهلية وأنجاسها إذا لاستشفي به من كل عاهة، وإذا لالفي كهيئة يوم أنزله الله، أو ليعيدنه الله إلى ما خلقه أول مرة. وإنه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة، ولكن الله غيره بمعصية العاصين، وستر زينته عن الظلمة والأثمة لأنهم لا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء كان بدؤه من الجنة»[2]

والحجر الأسود كان أيضاً في الابتداء ملكاً صالحاً وسيأتي مع المقام يوم القيامة.. كل واحد مثل أبي قبيس يشهد أن لمن وافاهما بالموافاة.

ومن الأخبار ما يجعل حجارة الأرض التي من الجنة ثلاثة بدل اثنين. قال محمد بن علي: «ثلاثة أحجار من الجنة: الحجر الأسود، والمقام، وحجر بني إسرائيل».[3]

أما الحجر الأسود، فكلما ذكره ياقوت، في مقدار رأس الإنسان. وقد قيل أن القرامطة اقتلعوه سنة ٣١٧ هـ حينما وافى بهم أبو طاهر القرمطي مكة فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم، وذهبوا بالحجر إلى هجر، وبقي عندهم أكثر من عشرين عاماً، ثم حملوه إلى موضعه.[4] وقد حدثني من رآه أن به نقرة كبيرة لما مرَّ عليه من لمس وتقبيل أثناء استلامه عند الطواف طوال هذه الأجيال التي مرت فيه على تقديسه.

وأما المقام فتختلف الروايات فيه أيضاً، على أنها تجمع على أن قداسته إنما هي منبعثة عن صلته بإبراهيم. ومن هذه الروايات قولهم أنه هو الحجر الذي قام فيه إبراهيم حين رفع بناء البيت، وقيل هو الحجر الذي وقف عليه يوم أذن في الناس بالحج، فتطاول له وعلا على الجبل حتى أشرف على ما تحته... فلما فرغ منه، وضعه قبلة... وكذلك رسخت قدما إبراهيم فيه مقدار سبعة أصابع، ووسطه قد استدق من التمسح به، أما ذرعه فمقدار ذراع، وهو على ما يذكر ياقوت، في حوض مربع حوله رصاص. ومن مقداره يظهر أنه أكبر من الركن وهو مثله حجر أسود.

وللركن على ما يظهر المكانة الأولى، فهو يمين الله في الأرض، فمن لم يدرك بيعة النبي وتمسح به فقد بايع الله ورسوله. هذا هو الحجر الأسود الذي نزل من الجنة وهو أشد

١- معجم البلدان، ص ٢١٢.

٢- نهاية الارب في فنون الأدب، ص ٣٠٣.

٣- معجم البلدان. ص ٢١٢.

٤- الكامل في التاريخ ص ١٥٣، ومعجم البلدان ص ٢١٣.

بياضاً من اللبن فسودته- كما ذكر- خطايا البشر. أو اسود- كما يقول البعض- من لمس الحيض في الجاهلية. وليرحم الله الراشد عمر.

لقد حدث أبو سعيد الخدري قال: «خرجنا مع عمر بن الخطاب ﷺ إلى مكة، فلما دخلنا الطواف قام عند الحجر وقال: والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ثم قبله ومضى في الطواف».[1]

محجات العرب:

لم تكن مكة- وإن ارتفعت مكانتها عن سواها من أماكن العبادة- هي القبلة الوحيدة في الجزيرة. فقد كان للعرب كعبات عديدة أخرى تحج إليها في مواسم معينة، وغير معينة، تعتر عندها، وتقدم لها النذور والهدايا، وتطوف بها، ثم ترحل عنها بعد أن تكون قامت بجميع المناسك الدينية المطلوبة.

وليلاحظ أنه لم يكن هنالك لرب من الأرباب بيت أو معبد إلا في بقعة يظهر فيها شيء من الشروع في حياة الاستقرار. والحقيقة إن أهم شعائر البدو الدينية إنما كانت تتجلى في حجهم إلى أماكن العرب الحضريين المقدسة في اليمن أمثال مناة واللات والعزى في المدينة والطائف ومكة.

أما المزارات الثانوية التي كان يؤمها بعض القبائل فكانت- وإن ابتعدت عن المدن أحياناً- كثيراً ما تشاد في بقاع لم يعد أهلها بدواً أقحاحاً.

وكما كان للكعبة خدام وحجاب، وكذلك كانت لهذه البيوت- التي بني بعضها مضاهاة للكعبة نفسها- كهنة وسدنة.

يقول الهمذاني في الإكليلي: «وقد كان للعرب بيوت تحجها».[2]

ويعدد اللات، وذا الخلصة، وكعبة نجران، وكعبة شداد الأيادي وكعبة غطفان، والأخيرة- كما يقول- بناها ظالم بن سعد بن ربيعة وهدمها زهير بن حباب الكلبي، فقال الرسول من بعد: لم يكن شيء من أمر الجاهلية وافق الإسلام إلا ما صنع زهير بن حباب. وفي صفة جزيرة العرب يقول الهمذاني: «مواضع العبادة مكة وإيلياء بأعلى نخلة، وذو الخلصة بناحية بتالة، وكعبة نجران ورئام في بلد همدان، وكنسية الباغوته بالحيرة».[3]

١- نهاية الأرب ص ٣٠٣، وصحيح البخاري ص ١٨٣.

٢- الاكليل للهمذاني، ج ٨، ص ٨٤.

٣- صفة جزيرة العرب للهمذاني ص ١٢٧.

وفي السيرة: «وكانت العرب قد اتخذت من الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدى لها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها».[1]

وهو يذكر فيما يذكر من هذه البيوت- غير ما اشرنا- العزى ومناة ورضاء. وفي كتاب الأصنام يذكر ابن الكلبي كنيسة بناها أبرهة الأشرم على باب صنعاء محاولاً صرف العرب عن مكة إليها. وقد ذكرها ياقوت فقال: ولما استتم أبرهة بنيان القليس كتب إلى النجاشي: «إني قد بنيت لك، أيها الملك، كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب»... ويجري ذكر هذا الكتاب على ألسنة العرب فيغضب أحد النسأة ويرسل من يُحدث فيها، ويقال لأبرهة هذا فعل رجل من أجل البيت الذي تحج إليه العرب بمكة، فيغضب أبرهة وتكون قصة الفيل.[2]

ومن تلخيص ما جاء عن القليس في «الروض الأنف» يستفاد أنها لما تلاشى ملك الحبشة من اليمن، أقفر ما حول الكنيسة ولم يعمرها أحد، وكثرت حولها السباع والحيات، فكان العرب يتخوفون من القرب منها، ويزعمون أن من آخذ شيئاً من أنقاضها استهوته الجن، فاستخرج ما كان وخربها حتى عفا رسمها وانقطع خبرها.

ويظهر أن كعبة نجران، أصبحت بعد دخول النصرانية نجران، كنيسة أو شبه كنيسة يقال أنها بنيت على بناء الكعبة مضاهاة لها، ومن الروايات ما يجعلها قبة من آدم، من ثلاثمائة جلد، إذا جاءها الخائف أمن، أو طالب حاجة قضيت، أو مسترفد أرفد، فإذا كان ذلك، لم تختلف عن غيرها من مضارب الشيوخ الرئيسية التي تجتمع حولها العشيرة، وتكتسب هيبتها وعظمتها من شخصية الأمير وثروته وكرمه، وتكون إذاً كالطرف الذي يتخذه الأغنياء من الأديم، ويذكره الشاعر:

رأيت بني الغبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدد

ويرجح الظن بأن أصحاب هذه الكعبة قد تنصروا، ذكر الأعشى «عبد المسيح»- ويزيد وقيسا- الذي كان من خير أربابها. ومما ذكره ياقوت قال: «وكان فيها أساقفة معتمون».

١- السيرة لابن هشام، ص ٥٤- ٥٥.

٢- معجم البلدان ص ١٧٢.

وذو الخلصة بيت مقدس آخر في الجنوب، وقد مر معنا حديث عنه. ذكر ياقوت أنه بيت أصنام قدسه عدد كبير من القبائل العربية. ولتعظيمهم له دعوه بالكعبة اليمانية مضاهاة للكعبة الشآمية وهي البيت الحرام.

وكذلك رئام. قال الهمداني:

«أما رئام فإنه بيت كان متنسكاً ينسك عنده، ويحج إليه، وهو في رأس جبل أقوى من بلد همذان».

وروى ابن إسحاق قال: وكان رئام بيت لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون منه إذ كانوا على شركهم، فقال الحبران «وقد مر حديثهما» لتبع إنما هو شيطان يفتنهم بذلك فخل بيننا وبينه، قال فشأنكما به، فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن كلباً أسود، فذبحاه ثم هدما ذلك البيت فبقاياه اليوم «زمن ابن إسحاق»- كما ذكر لي- بها آثار الدماء التي كانت تهرق عليه.

غير أن هذه البيوت التي عظمها العرب في الجنوب لم تبلغ مكانة الكعبة، وليس ببعيد أن تكون عظمة البيت الحرام قد ضاهت هذه البيوت مجتمعة. وهي، على مالها من التقديس، لم تكفِ عرب الحجاز فقد كان لهم في مدنهم الشهيرة بيوت أخرى كبيت ثقيف الذي كان له سدنة ويضاهون بذلك قريشاً.[1]

ولعل القصر ذا الشرفات الذي ذكره الأسود بن يعفر في قصيدة له من بارق والخورنق والسدير، من أشهر الأماكن المقدسة في القسم الشمالي الشرقي من جزيرة العرب، وكان لأياد التي كانت تنزل سنداد.

وسنداد نهر فيما بين الحيرة إلى الإبلة. وكان عليه هذا القصر الذي كانت تحج إليه العرب. ومما يروى أن عمر بن عبد العزيز مر لقصر لآل جفنة فتمثل مولاه مزاحم بقصيدة الأسود النهشلي التي يقول فيها:

ماذا آؤمل بعد آل محرق	تركوا منازلهم، وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق	والقصر ذي الشرفات من سنداد

فقال له عمر ألا قرأت:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ۝﴾[2]

١- الحيوان للجاحظ ج ٧ ص ٦٠، وكتاب الأصنام ص ١٦، والسيرة ص ٣٢.

٢- سورة الدخان: الآية ٢٥-٢٨.

وقد دعي هذا القصر بذي الكعبات أيضاً. قال الهمداني: «وكانوا يعبدون بيتاً يسمى ذا الكعبات».[1] وهناك بيوت معظمة كثيرة في أماكن شتى من بلاد العرب أمثال «رضى» أو «رضاء» الذي هدمه المستوغر «عمرو بن ربيعة بن كعب» في الإسلام وقال:

ولقد شددت على رضاء شدة   فتركتها تلا تنازع أسحما

ودعوت عبد الله في مكرورها   ولمثل عبد الله يغشى المحرما

ثم «الفلس» لقبائل طيء عند جبلي سلمى وأجأ[2]. والسعيدة وكان بيتاً تحجه العرب وسدنته بنو عجلان. وقيل أن قبائل الأزد كانت تعبده.[3]

ولا شك في وجود عدد كبير آخر من البيوت التي تحجها العرب وتقدسها، وتقدم لها القرابين والهدايا، وتخصص لها الحجاب والسدنة، وتأتيها إما قصداً وإما عرضاً في أثناء مرورهم. يعرجون عليها ويقيمون عندها أياماً، فيرتاحون عندها ويستسقون. وكثيراً ما تكون هذه المزارات المقدسة عند عين وغدير، أو واحة وشعب.

الحمى:

وكما كان الشرع يُبطل الكثير من أعمال الجاهلية، كذلك هدم ما كان عليه أعزاء العرب وأقرباؤهم من التفرد بالحمى، إذ كان القوي منهم إذا انتجع أرضاً خصبة أوفى بكلب على مرتفع منها واستعواه ثم أوقف له من يسمع منتهى عوائه، فحيث انتهى صوته حمى المكان من كل ناحية لنفسه، ومنع الناس فيه.[4] وفي الأمثال يقولون: «أعز من كليب وائل» رووا عنه قالوا: وقد بلغ من عزه أنه كان يحمي الكلأ فلا يقرب حماه ويجير الصيد فلا يهاج. وكان إذا مر بروضة أعجبته، أو غدير ارتضاه رمى بكلب هناك فحيث بلغ عواؤه كان حمى لا يرعى. وكان اسمه وائلاً فلما حمى كليبه المرمي الكلأ قيل أعز من كليب وائل. ثم غلب هذا الاسم عليه حتى ظنوه اسمه. وكان من عزه أنه لا توقد نار مع ناره، ولا يستبق أحد إلى الورد إلا بأمره.[5]

وهذا ما يخالفه رأي «سميث» Smith القائل بأن التملك في الصحارى كان غير معروف، وهو يرى أيضاً أن فكرة الحمى لم ترتكز على هذا التملك أو الخاصية، وإنما

١ـ صفة جزيرة العرب، ص ١٧١.

٢ـ السيرة ص ٥٦.

٣ـ معجم البلدان، ص ٩٤.

٤ـ لسان العرب، ص ٢١٧، معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤٣.

٥ـ الأمثال للميداني ص ٣٤.

كان يحمى المكان لوجود الإله أو الشيء المقدس. ولا يسعنا أن نتخذ هذا الرأي، ونحن نعتقد أنه قد وجد في الجاهلية «حمى للرجل» و «حمى للإله».

ونعني بالأول تلك المنطقة المعشوشبة التي يحددها الشيخ أو الأمير، ويحرم على الغير الانتجاع، أو حتى السير فيها، وأما حمى الإله- وطالما يكون في مكان طري- فهو المكان الذي تحرّمه السدنة تقديساً للإله، يأمن فيه النبات والحيوان والإنسان.

ولربما عرف الأول قبل الثاني بأجيال. وكثيراً ما كان أمنع منه، ولا سيما إذا كان حاميه ذا جاه عريض وصولة فعالة، وأكاد أرى أن جرم الإله كلما كان المسيطرون عليه أقوياء، كلما كان أقل انتهاكاً.

فحرمته مستمدة من أولئك الذين يسدونه أكثر منها مستمدة من الإله نفسه.

ولنذكر أن عنصر الدين عند البدوي ثانوي بالنسبة إلى العنصر المادي، فهو في عراك حتى في الحصول على القلة. وكثيراً ما كان المنتجع ساحة نضال بين القبائل للانفراد بها. ومما يذكر أن ثقيفاً قد اهتمت بواديها «وج» اهتماماً مادياً أكثر من اهتمامها بحمى «لاتها» بالطائف حتى أنها بنت شبه سور لتمتع باقتصادياتها فيه. ولما جاء بنو عامر ليأخذوا ما عودوا أن يأخذوه منهم منعوهم. وجرت بينهم حروب خرجت منها ثقيف منتصرة، فضرب العرب بامتناعها المثل قال أبو طالب:

منعنا أرضنا من كل حي ... كما امتنعت بطائفها ثقيف

أتاهم معشر يسلبونهم ... فحالت دون ذلك السيوف[1]

وقد مر معنا حمى آخر وهو ما كان يحمى حول قبر بعض الرجال كما فعلوا عندما مات عامر بن الطفيل تعظيماً له.

وكما كانوا يبنون البيوت مضاهاة للكعبة، كذلك كان حمى الآلهة يضاهي الحرم. قال ابن الكلبي في حديثه عن العزى: «كانت قريش قد حمت لها شعباً من وادي حراض يقام له «سقام» يضاهون به حرم الكعبة».[2]

وسقام هذا، كما ذكره ياقوت، واد بالحجاز ورد في شعر أبي خراش الهذلي، قال:

أمسى سقام خلاء لا أنيس به ... إلا السباع ومر الريح بالغرف

١- معجم البلدان ص ٤٩٩.

٢- كتاب الأصنام، ص ١٩.

ومن حرمة الحمى أن لا يأتيه خائف إلا أمن، ولا يطرد حيوان إليه إلا ترك له، وكذلك لا تقرب من الإله الذي يسكنه نساء حُيَّض.

كما كان لا تقرب البيت ميلاث «حائض». وقد دام ذلك حتى في الإسلام. جاءت عائشة مكة وهي حائض، فقال لها الرسول افعلي كما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري.[1] وكنا ذكرنا حمى «ذي الشرى» الذي كان به وشل من ماء يهبط من جبل. فالحمى، كما يظهر دائماً، مكان خصب وخلاء. أما الحرم فلربما بما سكنه الكثير من أهالي مكة أنفسهم. وهنالك أماكن مقدسة أخرى حول بعض الآلهة لا ينتقل سدنتها مهما كانت الظروف، فهم يرثون حجابتها ولا يفارقونها حتى ولو نزعت القبيلة عما حول الإله بخاطرها، أو احتلت مكانها قبيلة أخرى بالقوة. فلهؤلاء السدنة الذين يكونون عادة بيتاً من البيوت أن يعتبروا تلك الأماكن إذا خاصة بهم وبالإله دون غيرهم.[2]

السدنة:

والسدنة في اللغة جمع سادن. وهو القائم بعمل الحجابة على أن هنالك فرقاً بين السادن والحاجب قالوا الحاجب يحجب وأذنه لغيره، وأما السادن فيحجب وأذنه لنفسه.[3] وربما تسمى بعضهم باسم المكان الذي يقومون على سدنته، فيكون بينهم عبد الكعبة وعبد البيت، وعبد الدار... إلخ وكما كان للكعبة حجاب وسدنة تقوم على خدمتها وتولي أمرها وفتح بابها وإغلاقه، كذلك كان للأصنام وبيوتها سدنة يخدمونها ويجعلون أنفسهم واسطة بين الناس وبين الآلهة. وتختلف أهمية السادن باختلاف أهمية الآلهة. ولا شك أن المنزلة التي كان يتمتع بها سدنة العزى أو الربة «اللات» مثلاً تفوق مكانة الكثيرين من سدنة الأصنام المحلية الأخرى.

والسدنة في الجاهلية كثيرو العدد. وهم ليسوا فقط سدنة الآلهة الثابتة في المدن وغيرها من أماكن الاستقرار، وإنما كان أيضاً للآلهة المحمولة أو المنقولة سدنة أخرى تسهر على خدمتها وتساعد عبادها في تقديم ما اعتادوا عليه من الطقوس والمناسك. ولربما فاقوا عدد السدنة الأول بمنصبهم، إذ ليس ببعيد أن يكونوا من رؤساء القبائل أنفسهم. قال الأب لامنس: «إن كثيراً من هؤلاء الأشخاص رؤساء السر، ذوي القباب الحمر، الساهرين على البيت ويعني بين الصنم أو الحجر المؤله- يتصفون بصفات إكليركية، إذ يحق لهم أن يتسموا باسم «الكاهن» أو «الحازر» أو «السادن» أو «الحاجب» وبعضهم باسم «الحكم».

١- صحيح البخاري، ص ١٩٥.

٢- سليم الحوت. - في طريق الميثولوجيا، ص ١٣٩- ١٤٠.

٣- تاج العروس، ص ٢٣٣.

وقد ذكر ولهاوزن أن السدنة الوراثية أحياناً، طالما قام بها عوائل لا تمت بسبب إلى القبيلة التي تمتلك الأراضي التي تحيط بمكان الإله.

وربما فسر ذلك بنزوح قبيلة أو طردها- كما ذكرنا- من مكانها، وحلول قبيلة أخرى، دون أن ترحل العائلة التي تقوم بخدمات الإله وبيته وحماه.

ومما يثبت أن السدانة تكون أحياناً وراثية قول ابن الكلبي بعد أن ذكر حمل عوف بن عذرة بن زيد اللات «ودا» إلى دومة الجندل وجعل «عوف ابنه عامراً الذي يقال له عامر الأجدار سادناً له. فلم تزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالإسلام».[1]

وكذلك القول في سدنة «الفلس» «بني بولان» وسدنة العزى «بني شيبان» الخ. ومما ذكره ابن الكلبي من السدنة بنو عتاب بن مالك بن ثقيف «للات» وبنو لحيان «لسواع» وبنوا مامة من باهلة «لذي الخلصة» والخزاعي ابن عبدنهم من مزينة «لنهم» وذلك في أماكن شتى من كتاب الأصنام.[2]

والكهنة وسطاء بين الآلهة والناس، فهم المطلعون على الأسرار، وهم العالمون بالغيب وهم الذين اختصوا بالمعرفة من بين سائر الناس.

يقضون بالأمر، ويزينون للناس أعمالهم أو ينهونهم عنها ويخاطبون أرواح الأشجار والأحجار، وينطقون باسم الأوثان والأصنام التي كثيراً ما كانوا سدنتها وحفظتها والذابيّن عنها. من هنا ندرك قيمة الدور الذي لعبه الكهان على مسرح الحياة الدينية في الجاهلية إن لجهة تعزيز ظاهر الشرك، وإن لجهة التأثير على عقول البسطاء وعواطفهم. ولا غرو إذا ما نظر إلى أفراد هذه الطبقة المميزة من بين سائر طبقات المجتمع نظرة ملؤها الإكبار والتقدير والاحترام، وربما نظرة التعظيم والتقديس على أنهم آلهة أو أنصاب آلهة، لا سيما إذا ما راحوا يستنطقون الأرواح ويستلهمون الحكمة والوحي ثم يزجونه كلاماً مرصوفاً مسجَّعاً ذا فواصل صوتية متشابهة متناعمة تبعث على الإعجاب والدهشة والرهبة. ذلك أن هؤلاء جميعاً كان يُنظر إليهم على أن ثمة أرواحاً غريبة وشياطين حلت في أجسادهم فأطلقت لألسنتهم ولقرائحهم العنان فألهمتهم الإنشاد وقول الشعر والأرجاز والحكمة والسجع حتى أنه ليصعب التمييز أحياناً بين شاعر وراجز وكاهن وخطيب. على أن الكاهن من بين هؤلاء، وكما يبدو من كثير من النصوص، كان يتمتع بنفوذ كبير ويقوم بدور خطير لأنه هو العالم بالغيب بزعمهم

١ـ كتاب الأصنام، ص ٥٥.

٢ـ سليم الحوت. ـ في طريق الميثولوجيا، ص ١٤٢.

وزعمه، والمطلع على الأفئدة والأسرار والضمائر، وهو الذي يشارك في الحروب ويديرها أحياناً ليضمن لقومه النصر.

وهو الذي يشرف على الاحتفالات الدينية وينظم الطوافات الاستعراضية، ويشهد تقديم القرابين للآلهة والأصنام.[1]

القداح:

واستشارة الآلهة تكون في الاستقسام بالأزلام، أو الضرب بالقداح.

وقد ذكروا أنه كان أمام هبل في جوف الكعبة سبعة أقداح يستقسمون بها إذا اختصموا في أمر، أو أرادوا سفراً أو عملاً فما خرج عملوا به وانتهوا إليه. وقال ابن واضح: «وكانت العرب تستقسم بالأزلام في كل أمورها. وهي القداح. ولا يكون لها سفر ومقام، ولا نكاح ولا معرفة حال إلا رجعت إلى القداح. وكانت القداح سبعة.. فكانوا إذا أرادوا أمراً رجعوا إلى القداح فشربوا بها ثم عملوا بما يخرج القداح لا يتعدونه ولا يجوزونه. وكان لهم أمناء على القداح لا يثقون بغيرهم».[2]

والظاهر أن عدد القداح وما يكتب عليها يختلف باختلاف الأغراض التي يضرب من أجلها. فبينما يكون أمام هبل سبعة أقداح مثلاً، يكون عند ذي الخلصة ثلاثة. وكذلك يختلف ما كتب على القداح السبعة عند ابن الكلبي واليعقوبي.

والقداح أو الأزلام عبارة عن قطع صغيرة من الخشب الرقيق، وهي عبارة عن سهام غير متصلة ولا مراشة يضربونها، أي يستقسمون بها عند بعض الأصنام، وتعرف هذه السهام بالقداح أو الأزلام.

والذي يطالع رسالة الميسر والقداح لابن قتيبة يتبين له أن الاستقسام بالأزلام كان لغرضين: الأول استشارة الإله الصنم بأمر من الأمور.

وهنا يقول: «وكانوا إذا أرادوا الخروج إلى وجه ضربوا بالقداح فإن القدح الأمر نفذ لوجهه راجياً السلامة والصنع، وإذا خرج القدح الناهي أمسك عن الخروج خائفاً النكبة».[3]

والثاني يختلف عن الأول كل الاختلاف، وهو نوع من القمار ليس إلا، يمارسونه عند الشدة والضيق. وهو ما يسمونه بالميسر. أما قداح هذا الضرب من الاستقسام فعشرة متساوية

١- يحيى شامي ـ الشرك الجاهلي، مرجع سابق، ص ٦١، ٦٣.

٢- تاريخ اليعقوبي، ص ٣٠٠.

٣- الميسر والقداح، لابن قتيبة، ص ٤٠.

منها سبعة ذوات خطوط وهي: الفذ، والتوأم، والرقيب، والحلس، والنافس، والمسبل، والمعلىّ. وثلاثة أغفال لا خطوط بها وهي السفيح، والمنيح، والوغد.[1]

وكان على كل قدح من السبعة علامة «حز» فعلى الفذ حز، وعلى التوأم حزان وهكذا... على سبعة على المعلى. ولكل حز نصيب. وأما الثلاثة التي لا نصيب لها، فليس عليها علامات، وإنما تجعل مع تلك السبعة ليكثر بها العدد، ولتؤمن بها حيلة الضارب.

وكانوا لا يضربون على الميسر بالقداح إلا في الشتاء، عند جدب البلاد، وتعذر الأقوات، وكلب الزمان، لينعشوا بذلك الفقير والضرير. فكانوا ييسرون على جزور يقسمونه أجزاء.[2] أو يضربون بالقداح على الإبل الصحاح فيجعلون مكان العُشر من أعشار الجزور بعيراً كاملاً.

ولما كان لهم أمناء على القداح لا يثقون بغيرهم، وجب عليهم أن يرضوا هؤلاء القدّاح بهبات وعطايا لقاء عملهم. قال الأزرقي: «وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً، أو ينكحوا منكحاً، أو يدفنوا ميتاً، أو شكّوا في نسب أحد ذهبوا به إلى هبل وبماية درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح... الخ».[3]

وأمام هبل تخاصمت قريش وعبد المطلب على الغزالين والأسياف والأدراع التي اكتشفها عبد المطلب في حفرة بئر زمزم حيث قالت قريش:

«يا عبد المطلب، لنا في هذا شرك وحق. قال: لا، ولكن هلموا إلى أمر نصف بيني وبينكم نضرب عليها بالقدح. قالوا: وكيف تصنع؟ قال: اجعل للكعبة ولي قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له. قالوا: أنصفت.

فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحين أبيضين لقريش. ثم أعطوا القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل... وضرب صاحب القداح فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب وتخلف قدحا قريش».[4]

والأقداح أو القداح والأزناد والسهام والقلام والأزلام تعطي معنى واحداً. وهي أعواد تسوّى للاستقسام الذي هو من القسم أي النصيب. وهذه الأعواد- كما يقول ابن قتيبة- متشابهة في أقدار الأجسام، وإنما تختلف بالعلامات والوسوم. قالوا يجوز أن تكون إلا كذلك لأنها إذا اختلفت أمكنت الضارب الحيلة فيها.[5]

١- الميسر والقداح، لابن قتيبة، ص ٥٦.

٢- نفس المصدر، ص ٧٥، ٨٢، ٨٣، ١٠٦.

٣- اخبار مكة، ص ٧٣، السيرة ص ٩٧.

٤- السيرة، ص ٩٤.

٥- الميسر والقداح، ص ٨٧.

الحج الجاهلي

والحج أروع ظاهرة في شعائرهم الدينية القديمة. وهي في اللغة كلمة جد قديمة، ومن الممكن أن يكون العمل بمعناها قد جاراها في القدم. ولو خوّ لنا أن نأخذ بقول الرواة الذين تحدثوا عن مكة والبيت، ومجيء إبراهيم، لكانت عادة الحج قد سبقت تكوّن اللغة العربية على ما هي معروفة عليه في الجاهلية.

والمسلم به أن الحج عمل ديني قديم دونما ريب. ومن الصعب على الباحث تحقيق الزمان الذي ابتدأ العربي فيه بالحج. والقرآن الكريم يرجعه إلى عهد إبراهيم حيث قال له تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ...﴾[1]. ولعل هذا القول مما جعل البعض يظن أن العرب في حجها البيت أقدم أمة عرفت عندها عادة الحج قبل سائر الأمم.

والحج في اللغة القدوم والقصد مطلقاً. تقول حججت فلاناً إذا أتيته مرة بعد مرة، فقيل حج البيت لأنهم يأتونه كل سنة ثم أصطلح في استعماله في قصد مكة للنسك.

إن حج البيت على ما كان له من المظاهر، أقل أهمية في الحقيقة، أن يكون ثانوياً بالنسبة إلى دافع داخلي رئيسي... إلى دافع تتوقف عليه حياة البدوي، وغيره، آمتن من الدين وأشد من أواصر القربى... وهو الدافع الاقتصادي، وبكلمة مختصرة: التجارة.[2]

أما أن تفد القبائل إلى مكة، بعد أن يكون بعضها جاب الجزيرة من دومة الجندل... إلى هجر... إلى الشجر... إلى الطائف... ماراً بالكثير من الأسواق قبل آن يحط رحاله في عكاظ.. فمجنة.. فذي المجاز.. وذلك ليطوفوا، ويقفوا على عرفة، ويفيضوا، ويعتروا، فسبب لا أراه وجيهاً إذا اتخذ وحده مهما قيل فيه، فلو لم يكن في مواسم الحج أسواق تجارية يتبادلون فيها المصالح وغيرها من مقومات الحياة.. وبالنتيجة يتعارفون، إذا انتهوا من مهماتهم،

١- سورة الحج: الاية ٢٧.

٢- سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا، ص ١٤٦- ١٤٧.

ويتناشدون الأشعار، ويتجاذبون الأحاديث، وتكون لهم هذه الأسواق أعياداً سنوية، لاكتفت كل قبيلة بما عندها من أصنام وأنصاب، وتقدم لها المناسك ما تقدم في الحج من ذبح، ووقوف، وطواف، ولما تجشمت الحداد من أطراف الجزيرة وأواسطها.. ولما كان- بالنتيجة- لحج البيت عندهم تلك المظاهر الرائعة كلما حلت عليهم الأشهر الحرم.[1]

الأسواق:

ويبتدئ الحج بالأسواق، تلك التي كانت بين الطائف ومكة متجر الناس في الجاهلية. حتى قيل لابن الخطاب مرة: «هل كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال: وهل كانت معيشتنا إلا من التجارة في الحج؟».

ولما كان المسلمون في أوائل الدعوة يأبون ما للجاهلية من عادات ولا سيما الدينية منها، لذلك تأثموا البيع والشراء في أيام المواسم، وكرهوا التجارة في الحج فأبيحت لهم، ورفعت عنهم الجناح الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ...﴾[2]

في مكان من عكاظ- وعكاظ نخل في واد بين مكة والطائف- مستو لا علم فيه ولا جبل كانت تقوم السوق. وكان في هذا المكان الذي عرف بالإثيداء، مياه ونخل. ولم يخل من أنصاب وصخور ملطخة بالدماء، قيل أنهم كانوا يحجون إليها ويطوفون حولها. وكانت تحفل عكاظ بالناس في شوال، ويتم تقاطرهم إليها في ذي القعدة: الزمن الرسمي للسوق. وفي العشرين من هذا الشهر تذهب جماعاتهم- بعد أن يتخلف من لم يكن أنهى بيعه وشراءه- إلى مجنة.

ومجنة قرب جبل يقال له الأصفر بأسفل مكة، تقوم سوقها عشرة أيام[3] إلى أن يهل ذو الحجة حيث يسيرون إلى ذي المجاز.

وذو المجاز موضع على فرسخ من عرفة تقوم سوقه ثمانية أيام أي حتى الثامن من ذي الحجة: وهو يوم التروية، سمي بذلك لأنهم يرتوون من الماء، ويملأون أوعيتهم لما بعده إذ لا ماء بعرفة. وإلى هذه السوق تتقاطر وفود الحجاج من سائر العرب، ممن شهد الأسواق قبلها، أو لم يشهدها وأتى للحج خاصة، إذ إن ذا المجاز من مواسم الحج عندهم.[4]

١- سليم الحوت. ـ في طريق الميثولوجيا، ص ١٤٨.

٢- سورة البقرة: الآية ١٩٨.

٣- معجم البلدان ج ٤، ص ٤٢١.

٤- سعيد الأفغاني. ـ أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ص ٢٤٩ـ ٢٥٠ـ ٣٠٠.

فعكاظ ومجنة وذو المجاز هي الأسواق التي كانوا يتجّرون بها في الجاهلية أيام الموسم، والتي كادت أن تكون قسماً من أعمال الحج ذاته حتى أن قريشاً وغيرها من العرب كانت تقول- على ما روى الأزرقي-: «لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذو المجاز إلا محرمين بالحج».[1] ويكفي بالإحرام تعظيماً لها وتقديساً.

اتخذ العرب من الأسواق منتديات أدبية يتم فيها تطارح الشعر وإجازته ونقده وتقويمه على أيدي كبار الشعراء كالنابغة وزهير، اللذين كانا يجلسان تحت قباب مميزة من آدم يسمعون الشعر ويفاضلون بين الشعراء. وكما اتخذ العرب من السوق مهرجاناً أدبياً وثقافياً، فقد كانت الألوية المختلفة- وهي رايات اتخذها العرب- كل راية وكل لون- أو الأحجام، عن ارتكاب فعل ما، له تأثير في مجموعة الأسس الاجتماعية والأخلاقية في الجماعات والقبائل المختلفة. هذه الألوية كانت ترفع- مثل لواء «العذرة» لمن حنث بوعده أو خان حليفاً أو خذل ولياً.

يقول الحادرة:

اسمّى ويحك هل سمعت بعذرة   رفع اللواء لنابها في مجمع

كذلك اتخذ العربُ من هذه الأسواق مكاناً لتبادل الأسرى أو دفع فديات المأسورين، وتوثيق العقود وإعلان أسماء المولودين الجدد من القبائل، إلى غير ذلك من الوظائف ذات الطبيعة البعيدة عن مجرد النشاط الاقتصادي. ومن ثم فقد أثر الهيكل الاقتصادي والظروف المناخية في ذلك الوقت وما يترتب عليها من نظام قبلي مفتت في ضرورة احتلال السوق لهذه الأهمية، بوصفها المكان العام الذي يتجاوز محلية القبائل والعشائر إلى العمومية المتسعة التي أدت ما أصبحت تقومُ به وظائف الإعلام الآن، نظراً لأن طبيعة الوظائف المعلن عنها في السوق ذات صلة وثيقة بالنظام القبلي والحياة الجاهلية. ولم تكن لغة قريش التي «نزل بها القرآن» سوى واحدة من النتائج الثقافية البارزة للحاجة الماسة إلى لغة موحدة تتجاوز لهجات القبائل، وتفرق ألسنتها عند سماعها الشعر أو غيره من المظاهر الثقافية والاجتماعية.[2]

الوقوف:

من هذه الأسواق كانت العرب ترتحل إلى مكة لحجهم، حيث يبتدئ الحج في التاسع من ذي الحجة، إذ يتركون ذا المجاز مباشرة إلى عرفة. وعلى عرفة يقضون بالوقوف شعيرة من أهم شعائر الحج الدينية.

١ـ اخبار مكة، ص ٣٢.

٢ـ د. ثناء انس الوجود. ـ رؤية العالم عند الجاهليين. الناشر: عين للدراسات والبحوث، القاهرة ٢٠٠١، ص ١٢ـ ١٤.

ويرى «سميث» ما يرى «ولهاوزن» آن ميزة وقوفهم هذا تشبه منظر أولئك الذين يلتفون حول المذبح في خشوع والعتائر مسطحة على الأرض، وذلك يكون إما عند انتهاء الذبح مباشرة أو أثناء هذه العملية، والدماء تسيل في الغبغب أو يلطخ بها السادن رأس النصب.[1]

والناس بعد أن يقضوا يومهم في عرفات يفيضون إلى المزدلفة قبل أن تغرب الشمس عن عيونهم مسرعين جهدهم. وقد دام هذا الإسراع بالنفور إلى مزدلفة حتى الإسلام حيث أمرهم النبي أن يسيروا ببطء.

يصلون المزدلفة، وهو موضع قريب من عرفة. قيل أنه سمي بذلك- في بعض الروايات- لأنهم يزدلفون إلى الله أي يتقربون. وفيه يقضون ليلتهم متعبدين بينما تكون نيران «قزح» ملتهبة هناك، منتظرين شروق «الآلهة».. حيث كانوا لا يفيضون من «جمع» حتى تشرق الشمس على «ثبير». ويقولون: «أشرق ثبير كيما نغير» وثبير جبل بمكة، يقولون له أدخل يا ثبير في الشروق حتى نسرع للنحر. فمع طلوع الشمس إذاً كانوا ينفرون إلى وادي «منى» حيث يرمون الحجارة في أماكن معينة هناك. إما رجماً للشيطان- أو كما يظن البعض- تغطية لذاك المكان بالحصباء خوفاً من زرع المكيّين له.

ويظهر أن أول ما يصلون منى يباشرون في الذبح، فقيل أن منى سمي بذلك لما يمنى به من الدماء التي تراق فيه. ولما كان الذبح من أهم وأقدم الشعائر التي كانوا يتقربون بها إلى آلهتهم، لذلك نرى من الفائدة أن نسهب شيئاً في الكلام عن هذه العادة.[2]

الذبح:

وهي عادة لم تخلق اعتباطاً بين الجاهليين، بل يجب أن يكون للذبح عند الساميين، والعرب خاصة، فلسفة غير مجرد هذا العمل الوحشي، ولا نشك في آن الإطعام سبب من أسبابها المباشرة. ولهذا رووا أن الجاهليين كانوا يعينون شيئاً من حرث ونتاج لله يصرفونه للضيفان والمساكين، «وكثيراً ما حسب هؤلاء وغيرهم، حتى بعض الحيوانات ضيوفاً على الآلهة»، وشيئاً منها لآلهتهم ينفقونه على سدنتها. وبهذا نزلت الآية:

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا...﴾[3]

١- الغبغب حجر ينصب بين يدي الصنم: ص ٧٧٢ ج٣- معجم البلدان.

٢- سليم الحوت - في طريق الميثولوجيا، ص ١٤٩- ١٥٠.

٣- سورة الأنعام: الآية ١٣٦.

وكانوا يرون في التضحية عاملين رئيسيين: الأول انتقال دم الضحية الحار إلى المعبود الذي يكتفي به، ولهذا نراهم يصبون الدماء على رؤوس الأنصاب والأصنام تسكيناً لغضب الإله وطلباً لرضائه. والثاني انحلال لحمها ودمها في لحوم العباد ودمائها... ولربما كان أقدم وصف لعملية الذبح ما جاء به نيلوس سنة ٤١٠ للميلاد. وقد عرَّب الأب شيخو ما وصف هذا الكاتب مما كان دارجاً عند عرب الشمال- ولا سيما عرب بطرا ودومة الجندل في مثل هذه المناسك نثبته فيما يلي: «وليس لهؤلاء الهمج دين إلا أنهم يكرمون كوكب الصبح «العزى» ويخرون له ساجدين، ويضحون له أجود أسراهم الذين أخذوهم في الغزوات، وهم يفضلون لذلك الشبان إذا كانوا في عز الشباب، وصبيحي الوجوه. ويعدون لهذه الغاية مذبحاً من الحجارة والصخور التي يكومونها وينتظرون الفجر حتى إذا لاح كوكب الصبح يضربون الضحية بالسيوف ويشربون دمها.. وعادتهم إذا لم يقع في يدهم أحد من الأسرى أن يضحوا ناقة من العيس خالصة البياض، فينيخونها ويدورون حولها ثلاثاً، ثم يتقدم كاهنهم أو زعيمهم بكل رونق، وهم يتغنون بأغانيهم، فيضرب بسيف أوداج الناقة، ويتلقى دمها فيشربه ثم يركض الباقون، ويقطع كل منهم قطعة من الذبيحة فيأكلونها نيّئة، ويسرعون في ذلك لئلا يبقى شيء من الجزور حتى الجلد والعظام عند طلوع الشمس».[1]

فإذا صدق نيلوس، كان هذا الذبح العربي القديم من أخشن أعمال الإنسان في تقديم القربان، وتكون بذلك الآلهة القديمة أخشن قلوباً من عبادها لتطلبها غير النذور من الحيوان مرضاة لها، فتقدموا لها بالإنسان نفسه.

ومن المحتمل أن تكون هذه الهمجية الدينية المتأتية عن الخوف من الآلهة سبباً من الأسباب التي دفعت أفراداً من العرب في بعض القبائل إلى وأد بناتهم، فقيل بعد أن طال الزمن وعفّى على الأسباب البعيدة للوأد أنهم فعلوا ذلك خشية العار والإملاق، ومن ثم نزلت الآية:

﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ...﴾[2]

كما وأن قصة إقدام إبراهيم على ذبح أحد أبنائه، لا بد وأن تكون معروفة بينهم، يلخصها القرآن بما يلي:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ

١ـ الأب لويس شيخو ـ النصرانية وآدابها، ص ١٦.

٢ـ سورة الإسراء: الآية ٣١.

افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ۝ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ۝ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ۝ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ۝﴾[1]

وكذلك نذر عبد المطلب ذبح ولده عبد الله، والظاهر أن مثل هذه النذور العرضية لم تكف لإرضاء الآلهة القديمة، فقد حدثوا أن في بعض الأماكن من كان يثابر على تقديم الضحية البشرية كل سنة. وممن شهد على ذلك برفيوس الفيلسوف الوثني في القرن الثاني للمسيح قال: «إن أهل دومة الجندل كانوا كل سنة يضحون لآلهتهم رجلاً ثم يدفنونه بقرب المذبح».[2] كما أن البعض في أماكن أخرى كانوا يعلقون الفريسة ما بين السماء والأرض أمام الصنم.

هذا، ولعل أقدم المذابح عند الساميين في الشمال، وعند العرب أنفسهم في بلاد العرب كان - كما يرى سميث- حجراً ضخماً من الحجارة أو ركاماً تسفك عليه دماء العتيرة. وهذا السفك البسيط على الركام، أو ذاك الحجر يقدس الذبح ويجعل العتيرة قرباناً شرعياً. وبهذا لا يكون فرق بين المذبح العبراني البسيط

وبين النصب أو العزى العربي.

ولقد امتدت عادة الذبح في «منى» أيام الحج إلى ما بعد الإسلام. لذلك نرى في القرآن إشارة إلى ما ذكرناه من مشاركة الآلهة عبادها في الفريسة حيث يقول تعالى:

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ...﴾[3]

تقصير الشعور:

في منى بعد الذبح وفي العاشر من ذي الحجة ينتهي الحج وتنتهي مظاهره الكبرى. فالحج الحقيقي، على ما يظهر، هو ما وصفنا من سير الحج بعد انتهاء الأسواق إلى عرفة ووقوفهم هناك. ثم إفاضتهم إلى المزدلفة وبقاؤهم ليلة موقدين النيران، ثم نفورهم إلى وادي منى حيث يذبحون، ويحلق البعض رؤوسهم وينتهي الإحرام.

أما لماذا يحلقون في الحج شعورهم، فلأنه كان من غريب عاداتهم أن يلبدوا شعورهم قبل حجهم حتى وصولهم إلى منى. والتلبيد- كما ذكر الجاحظ- هو أخذهم شيئاً من خطمي

١- سورة الصافات: الآيات ١٠٠-١٠٧.

٢- النصرانية وآدابها، ص ١٦.

٣- سورة الحج: الآية ٣٧.

وآس وسرو، وشيئاً من صمغ. يجعلونه في أصول شعورهم وعلى رؤوسهم كي يتلبد الشعر فلا يفرق ويدخله الغبار ويخم فيقمل.[1]

ولم تكن عملية التقصير والحلق تحصل في منى فقط، إذ كان هنالك بينهم من لا يرى تماماً لحجه إلا إذا جاء صنمه وحلق عنده. ذكر ابن الكلبي حديث رجل من قريش قال: «كانت الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها... يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم. فإذا نفروا أتوه «يعني صنم مناة» فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده. لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك».[2]

وامتدت هذه العادة حتى دخلت الإسلام. وأمر النبي بالحلق أو التقصير، وكان يقول: اللهم ارحم المحلقين والمقصرين.[3]

العمرة والسعي:

أما ما يسمونه «العمرة»- وفيها أيضاً يحرمون، ومن أخص أعمالها الطواف بالبيت- فهي على ما نرى حج أصغر لا يجوز أن يقوموا به في أشهر الحج. حتى إنهم «كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض»[4].

ولعل غالب اعتمارهم في رجب- وإن جاز الاعتمار طوال السنة- والسبب كما أراه واضحاً، هو حرمة هذا الشهر. والأشهر الحرم كما هم معلوم أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ورجب. فلما حرموا العمرة في الثلاثة الأولى، وكان الرابع «رجب» شهراً حراماً رأوا آن يفدوا إلى مكة به حتى يكونوا آمنين على نفوسهم وأموالهم عند الاعتمار. والاعتمار أو العمرة لغةً، القصد، كالحج. وتسمى بالحج الأصغر.

وعملاً، كما قال الزجاج: الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة. كما آنها تفترق عن الحج كونها للإنسان في السنة كلها، والحج وقت واحد في السنة، وذلك في أشهر معلومات: شوال وذي القعدة، وعشرة من ذي الحجة.

وأما السعي بين الصفا والمروة، فعادة وثنية قديمة. وكنا ذكرنا آنه كان على الصفا والمروة أساف ونائلة، يسعون بينهما ويتمسحون بهما. وربما آرجعوا هذه العادة إلى هاجر نفسها،

١- الجاحظ- البيان والتبيين جـ ٥ ص ١١٤.

٢- كتاب الأصنام، ص ١٤.

٣- صحيح البخاري، جـ ٢، ص ٢١٣.

٤- المرجع السابق، ص ١٧٥.

وذلك حينما عطش طفلها إسماعيل، وأخذ يتلوى من شدة العطش في مكان زمزم «قبل أن يكون ماء في زعمهم» يوم أخذت تصعد تارة الصفا وتنحدر طوراً إلى المروة تسعى سعي الإنسان المجهود. ولقد نسبوا تعليق السعي بفعل هاجر إلى النبي قائلاً: فلذلك سعى الناس بينهما.[1]

واستمرت هذه العادة أيضاً حتى أصبحت شعيرة من شعائر الحج في الإسلام. ولما كان السعي عملاً دينياً في الجاهلية، لذلك تهيب الناس القيام به في الإسلام، فجاءتهم الآية:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[2]

الطواف والتلبية:

ولعل الطواف عند الذبح بالصنم أو الحجر المؤله هو أصل الطواف الذي كانت تقوم به قريش والعرب قبل الإسلام حول الكعبة. كما أن التهليلات التي كانوا يرددونها لا يُستبعد أن تكون تطوراً لصراخهم الذي كان يصطحب قتل الضحية، والذي يمكن أن يكون في شكله الأول ندباً على موتها، بل إن «سمث» يرى أن هذا الندب الذي اتخذ شكل مديح مرتل- كما وصف نيلوس- قد انحط إلى ترديد للكلمة: «لبيك» لا معنى له.

وهو يرى أيضاً أن التهليل كان يصطحب الرقص حول المذبح حيث إن الرقص- في نظره- والغناء ما كانا لينفصلا في العصور الأولى. ومن هذا القبيل قولهم: «سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمكُ فيه، أي نصفر صفير المكاء حول الكعبة، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها».[3]

وقد جاء في الكتاب:

﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً...﴾[4]

وهما لا يختلفان كثيراً عن نغم الذين كانوا يطوفون بالأقيصر وغيره. قال ربيع بن ضبع الفزاري:

فإنني والذي نغم الإله له ... حول الأقيصر تسبيح وتهليل[5]

١- تاريخ الخميس، جـ ١، ص ١٠٦

٢- سورة البقرة: الآية ١٥٨.

٣- معجم البلدان، جـ ٤، ص ٦١٦.

٤- سورة الأنفال: الآية ٣٥.

٥- كتاب الأصنام، ص ٣٩.

وأما تلبياتهم فكانت تختلف باختلاف القبائل حتى كاد أن يكون لكل قبيلة كبيرة تلبية خاصة بها.

تلبية قريش:

لبيـــك اللـــهم لبيـــك لبيـــك لا شـــريك لـــك

تملكـــه ومـــا ملـــك

لبيـــك اللـــهم لبيـــك لبيـــك لبيـــك عـــن تمـــيم

قـــد تراهـــا أخلقـــت أثوابهـــا وأثـــواب مـــن وراءهـــا

وأخلـــصت لربهـــا دعاءهـــا

وتلبية ثقيف

لبيـــــــك اللـــــــهم

... إن ثقيفـاً قـد أتـوك وأخلفـوا المـال

وقـــــــد رجـــــــوك

وقد ذكر ابن الكلبي في كتابه الأصنام تلبية نزار:

لبيـــــك اللـــــهم لبيـــــك

لبيـــــك لا شـــــريك لـــــك

إلا شـــريك هـــو لـــك تملكـــه

ومـــــا ملـــــك[1]

هـذا ولم تختلف التلبيـة في الإسـلام عمـا كانـت عليـه مـن صيغها وألفاظهـا. رووا عـن عائشة قالت: إني لا أعلم كيف كان النبي ﷺ يلبي:

لبيـــــك اللـــــهم لبيـــــك

لبيـــك لا شـــريك لـــك لبيـــك

إن الحمـــد والنعمـــة لـــك[2]

١ـ سليم الحوت ـ في طريق الميثولوجيا، ص ١٥٨.

٢ـ صحيح البخاري ـ جـ ٢، ص ١٧٠

ما وراء الطبيعة

اللّه والملائكة

نقصد بعالم ما وراء الطبيعة هنا: عالم الروح، أو كل ما بَعُدَ عن عالم الحسيات والمعقولات. وبكلمة أخرى: ما خالف المادة ومركباتها، أو ما جاوز الموجودات الطبيعية، واختفى وراء الطبيعة. ولما كان الموجود الأول هو منبثق الكليات والجزئيات في الفلسفة والدين، فلنبدأ بذكر شيء مما كان يعرف عنه العرب الجاهليون... عن الله عز وجل... خالق الطبيعة وما وراءها.

من الواضح أن فكرة «الله» لم تكن واضحة إلا لجماعات وأفراد قلائل، أما الأكثرية، وإن سمعت بالله، فإنها كانت وثنية عبدة أصنام وأحجار وظواهر وموجودات أخرى، كما بينا ذلك في فصول سابقة.

ولا يشك في وجود كلمة الله في الجاهلية، ففي القرآن والسيرة والشعر شواهد كثيرة وبراهين لا تقبل الرد على وجودها بمعانيها قبل الإسلام. ويكفي دلالة عليها «اسم عبد الله» على أنه يجب أن يلاحظ أننا لا ندري ما إذا كان هنالك- أو لم يكن- معبود آخر بين مؤلهاتهم الكثيرة اسمه «الله»، فيكون عندئذ «عبد الله» «كعبد قيس» و «عبد مناف» و «عبد شمس»... ضاعت أخباره إما مع ضياع الكثير من الروايات، لعدم التدوين، وموقف الإسلام السلبي من الوثنية، وإما لعدم تمكن الروايات ذاتها منه. ومعلوم أنهم كانوا يطلقون على اللات «الربة»، وأن كلمة «الإله» كانت تطلق أيضاً على الصنم، كما أن المؤنث منها «آلهة» كان يطلق على الشمس. وقد سبق معنا أن الآلهة اسم من أسماء الشمس.[1]

١- سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا، ص ١٩٦- ١٩٧.

والرب كما هو معلوم، من أسماء الله، غير أن جمعه أرباب كان يطلق أيضاً إلى أصنام العرب وآلهتهم. و «الربة» آلهة ثقيف.

وبدهيّ القول أن القرآن والسيرة هما من أوثق المصادر التي يمكن أن يرجع إليها الإنسان لتكوين فكرة عن الله في العصر الجاهلي، أو بالأحرى عن معرفة العرب الجاهليين بالله. ولكن القرآن والسيرة في الوقت نفسه لا يحددان فكرة واضحة عن هذه المعرفة. فالقرآن مثلاً يعطينا فكرة الله كما يعرفها الإسلام، أكثر مما يصور لنا هذه الفكرة عند الجاهليين الذين نخصهم بالذكر في هذا البحث. ولنقرأ قول أمية بن أبي الصلت:

إلى الله أهدي مدحتي وثنائيا وقولاً رضياً لا يني الدهر باقيا

إلى قوله:

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهي ربنا ورجائيا

رضيت بك اللهم رباً فلن أرى أدين إلهاً غيرك الله ثانيا

ثم قول زيد بن عمرو بن نفيل:

أسلمت وجهي للذي أسلمت له الأرض طراً صخوراً صقالا

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزبد تحمل عذباً زلالا

إذا هي سيقت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالا[1]

وكلا الرجلين كما تفيد الأخبار قد تأله، وترك عبادة الأصنام، فلا بد وأن يكونا متشربين بالتعاليم التي بثها اليهود والنصارى في بلاد العرب قبل الإسلام، وما تبقى من تعاليم الحنيفية قبلهما ولا عجب أن يذكرا، وغيرهما من الشعراء، شيئاً عن الله، واليوم الآخر، والجنة، والحساب، والعذاب، ويشير إلى الكثير من أحداث العهدين القديم والجديد. والحقيقة أنه ليس لدينا ما يؤيد أن فكرة الله كانت في البدء غريبة بالكلية عن الوسط الجاهلي، ثم دخلته، وانتشرت به عن طريق ممثلي الأديان في بلاد العرب. أما كلمة «إله» ففي الأصل- كما يرى البعض- سامية من ايل «ال» التي تعطي نفس المعنى. وكذلك «رب» فهي كما يقولون- متخذة من العبرية وتعطي في التوراة معنى العربية حيث تأتي Rab بمعنى العظيم، وبمعنى سيدي، كما تأتي كالعربية تماماً بمعنى النقيض

١- السيرة لابن هشام، ص ١٤٨.

لكلمة عبد.[1] وفي العبرية أيضاً توجد «EL» وElohim وEloah مرادفة لكلمة «إله» العربية وGod الإنجليزية. وليس بعيداً أن تكون الكلمة في الأصل غريبة عن العربية، فالكلمة «يهوه» Yhwh نفسها، كما يظن، لم تكن معروفة بين العبرانيين قبل موسى، ولهذا يؤكد البعض أن الاسم على الأقل- إن لم يكن المعبود نفسه- كان من أصل أجنبي.

أما العرب فتقول إن «الله» أصله إلاه على وزن فعال بمعنى مفعول «كإمام» لأنه مألوه، أي معبود- هكذا يشاء اللغويون- فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته في الكلام. وجوّز سيبويه أن يكون أصلها «لاها». ثم إنهم يستخرجون له جذراً، كعادتهم في الأسماء، فيقولون إن أصله من أله يأله ألهاً بمعنى تحيّر، وله، أو بمعنى لجأ إليه لأن الله هو المفزع الذي يلجأ إليه. ويذكرون لذلك قول الشاعر:

ألهــــتَ إلينــــا والحــــوادث جمــــة

أو قول الآخر:

ألهــــت إليهــــا والركائــــب وُقَّــــف.[2]

هذا وليس بغريب على العربية أن تكون اللفظة من أساسها أجنبية عنها، وأنها ربما كانت هي نفسها أصلاً للجذر «أله» خلافاً لما يدعون من أنها مشتقة من هذا الجذر.

ولعل أهم المعاني التي كانت تحمله فكرة الله وقتئذ «السيادة» ووجوب تقديم العبادة إليه. ولقد جاء في القرآن الكريم على لسان فرعون:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[3]

والآية هذه تعطي ما كان يقصد بالإله الذي كان يطلق على موجودات حية وغير حية تقدس فتعبد. وبهذا ترقى إلى مرتبة الألوهية، كما يطلق على خالق الوجود ومسبب الحياة الدنيا والعليا، وإن كان بعض الجاهليين لا يعتقد- كما بينا سابقاً- بالبعث والنشور وبدء حياة جديدة بعد الموت. وقد جاء في اللسان بهذا المعنى أن «الإله الله عز وجل، وكل ما اتخذ

١- سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا، ص ١٩٨-١٩٩.

٢- لسان العرب ج ١٧، ص ٣٦١

٣- سورة القصص: الآية ٣٨.

من دونه معبوداً إله عند متخذه. والجمع آلهة. والآلهة الأصنام سموا بذلك لاعتقادهم أن العبادة تحق لها وأسماؤها تتبع اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه».[1]

وبعد هذه الكلمة الموجزة نتقدم إلى عرض الكلام عن أقرب المخلوقات إلى الله، وهم سكان السماوات أو الملائكة:

الملائكة:

هم الملأ الأعلى أو سكان السماوات. إن تُحدِّث عنهم في الأرض فإنما هم نازلون من أعلى عليين. ولهذا طلب قوم من قريش إلى النبي في أوائل دعوته أن يكون الرسول ملكاً أو ينزل عليه ملك من السماء يأخذ بيده، كما جاء في الكتاب:

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾[2]

والآية هذه تدل دلالة واضحة على وجود الملك في عقلية الجاهليين، ولا أظن أنه اختلف فيما عرفه الإسلام فيما بعد، لأن المصدر الذي استمدوا منه معلوماتهم عن الملك يكاد يكون واحداً. والملك، مجموعاً، ورد في قول أمية بن أبي الصلت:

وكـــــان برقـــــع والملائـــــك حولـــــه.[3]

لا بل كان يعرف من صفات الملائكة ما عرف النبي نفسه فيما بعد. ومما يروى أن النبي قد تعجب من بيت لأمية جمع بين صور حملة العرش من الملائكة فقال:

رجـل وثـور تحـت يمنـى رجلـه ... والنـسر لليـسرى وليـث ملبـد

وعن ابن عباس أن النبي قال: صدق أمية في قوله.[4] هذا ولا يوجد في القرآن وصف أو إشارة إلى المادة التي نشأ أو خلق منها الملك، لا بل ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ...﴾[5]، وذلك بخلاف الإنسان والجان حيث جاء في القرآن الكريم: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝﴾[6]. والمارج هي النار الصافية الخالصة من الدخان.

١- لسان العرب. - ج ١٧- ص ٣٥٨.

٢- سورة الفرقان: الآية ٧.

٣- لسان العرب. - ج ١٢ ص ٣٨٦.

٤- الأغاني - جزء ٣، ص ١٩٠.

٥- سورة المدثر: الآية ٣١.

٦- سورة الرحمن: الآيات ١٤-١٥.

ويؤثر عن عائشة أن النبي قال: خلقت الملائكة من النور وخلق الجن من مارج من نار. وكذلك ابن عباس يرى آن الملائكة خلقت من نور وأسكنت السماء، والجان خلقت من النار عينها وأسكنت الأرض. وهو يقول أيضاً: «إن الله خلق الفلك وخلق تحته بحراً من نار لا دخان لها، وخلق نوعين من الملائكة: خلق من لهبها نوعاً ومن جمرها نوعاً فالذين خلقهم من لهبها -ويقصد نورها» سماهم الملائكة والذين خلقهم من جمرها سماهم جانا».[1]

وإذا ما اختلف المفسرون في حقيقة الملائكة، فإنهم اتفقوا بالأكثرية على أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بصور مختلفة. ولقد لخص القزويني النظر في الملائكة: «زعموا أن الملك جوهر بسيط ذو حياة ونطق وعقل. والاختلاف بين الملائكة والجن والشياطين بالحقائق كالاختلاف بين الأنواع. وذهب بعضهم إلى أن الاختلاف بينهم كالاختلاف بين الكامل والناقص وبين الخير والشر. واعلم أن الملائكة جواهر مقدسة عن ظلمة الشهوة وكدورة الغضب لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس، وأنسهم بذكر الله تعالى، وفرحهم بعبادته. خلقهم الله تعالى على صور مختلفة وآقدار متفاوتة لإصلاح مصنوعاته والسكان سماواته».[2]

وقد يستدل من القرآن الكريم أن الملائكة خلق مجنحة. والآية:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ...﴾[3].

تدل دلالة واضحة على ذلك. والكثير منهم جميل الصورة جداً حتى لا يستطيع الإنسان أو الملائكة الأخرى أن تنظر إلى نور حسنه الأخاذ، فيضع برقعاً أو يخفي وجهه بأحد الأجنحة لهذا الغرض.

والملائكة تمثل بصور مختلفة. ومما يدل على هذا الاعتقاد ما جاء في السيرة: ومر الرسول ﷺ بنفر من أصحابه بالصُّورَيْن قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مر بكم أحد؟ قالوا يا رسول الله قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج. فقال رسول الله ﷺ: ذلك جبريل؛ بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم.[4]

١- تاريخ الخميس ج ١ ص ٣٦.

٢- سليم الحوت. - في طريق الميثولوجيا، ص ٢٠١- ٢٠٢.

٣- سورة فاطر : الآية ١.

٤- السيرة. ص ٦٨٤- ٦٨٥.

وقيل إن جبريل تمثل لأبي جهل بفحل من الإبل.[1] ويقول ابن كثير إن جبريل كان يأتي النبي في صفات متعددة، فتارة في صورة دحية بن خليفة الكلبي وتارة في صورة أعرابي وتارة في صورته التي خلق عليها. وفي حنين وبدر ظهرت الملائكة في صور مختلفة تحارب مع المسلمين ضد الكفار. وكما تمثل جبريل لمحمد بصورة دحية الكلبي، كذلك كان قد آتى مريم من قبله في صورة آدمي شاب وضيء الوجه جعد الشعر سوي الخلق، لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئاً. ولقد جاء حديث ذلك في سورة مريم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً۝ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً۝﴾[2]

أما الآية: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا...﴾[3]. أي على أرجاء السماء فتدل على كثرة عدد الملائكة الذي لا يحصى، كما تدل الأخبار والأحاديث. روي عن «ابن ذر» قول النبي: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون. أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد...».[4].

ولقد أشرنا إلى القول أن الملائكة لا يعرفهم غير خالقهم، إلا آن صاحب الشريعة- كم يقول القزويني- آخبر بعضهم وهم الملائكة المقربون. ولهذا نرى آن من المفيد تلخيص ما جاء في كتاب «عجائب المخلوقات» عن هذه المخلوقات لتصوير فكرة قديمة عن الملائكة. فمنهم:

١-حملة العرش:

-أعز الملائكة. وهم، كما ذكرنا، على صور مختلفة. وقد قال تعالى فيهم:

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[5]

وقال ابن عباس: وهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة.

٢- الروح:

- كل نفس من أنفاسه تصبح روحاً لحيوان وهو موكل بإدارة الأفلاك وحركات الكواكب.

١- السيرة، ص ١٩١- ٢٨٥.

٢- سورة مريم: الأيات ١٦-١٧.

٣- سورة الحاقة: الأية ١٧.

٤- مسند ابن حنبل: جـ ٥ ص ١٧٣.

٥- سورة الحاقة: الأية ١٧.

٣- إسرافيل:

- قدماه تحت الأرض السابعة ورأسه عند قوائم العرش!. فكيف لا يكون آهول من جبريل؟ وهو نافخ الأرواح، ومدبر الأوامر.

٤- جبريل:

- أمين الوحي، والروح الأمين وأفضل الملائكة. وهو وإن كان، كما يظهر، أضعف من إسرافيل، وأقل حجماً، إلا أنه كما قال تعالى:

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[1]

٥- ميكائيل:

- موكل بالأرزاق للأجساد، والحكمة والمعرفة للنفوس... وهو إن فتح فاه لم تكن السماوات في فيه إلا كخردلة في بحر! وهو لو أشرف على أهل السماوات والأرضين لاحترقوا من نوره.

٦- عزرائيل:

- مسكّن الحركات وفاصل الأرواح عن الأجساد، له أعوان بعدد من يموت. وهو رفيق بأهل التوحيد يقبضهم بيمينه في حريرة بيضاء مغموسة في المسك. وأما أهل الكفر فبشماله في سربال من قطران.

٧- الكروبيون:

- تنبىء أحاديث النبي عنهم أنهم خلق لا يعرفون إلا العكوف في حضرة القدس، والاستغراق في التسبيح ليلاً نهاراً لا يفترون.

٨- ملائكة السماوات السبع:

- يسبحون حتى قيام الساعة، فإذا قامت، يقولون سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. وهم في السماء الدنيا على صور البقر، وفي الثانية على صور العقبان، وفي الثالثة نسور، والرابعة خيل، والخامسة حور عين، والسادسة ولدان، والسابعة بنو آدم!! موكل بهم على الترتيب، الملائكة: إسماعيل، ميخائيل، صاعد يائيل، صلصائيل، كلكائيل، سمحائيل،

١- سورة التكوير: الآية ٢٠.

روبائيل. وفوق السماوات السبع ملائكة أخر لا يعرفون بعضهم لكثرتهم، يسبحون الله بلغات مختلفة كالرعد الصاعق!

٩- الحفظة:

- وهم الكرام الكاتبون، الموكلون بتسطير أفعال الإنسان. قال الله تعالى:

﴿كَلا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ۞ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ۞ كِراماً كَاتِبِينَ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ۞﴾[1]

١٠- المعقبات:

- ينزلون بالبركات ويصعدون بأرواح البشر وأعمالهم ليل نهار.

١١- منكر ونكير:

- الملكان اللذان، يحاسبان المرء في قبره بسؤاله عن ربه ونبيه...الخ.

١٢- السياحون:

- يسيحون في الأرض ويفشون مجالس الذكر، ويرفعون ما يشهدون إلى الله، وهم غير الحفظة.

١٣- هاروت وماروت:

- وقد مر عنهما الحديث في كلامنا عن العزى أو كوكب الحسن التي أغرت حتى الملائكة كما شاهدنا بذلك، الاعتقاد بتركيب شهوة الجسد حتى في صلب الملائكة.

١٤- الموكلون بالكائنات:

- وهؤلاء شأنهم إصلاح الكائنات ودفع الفساد عنها. يقوم بعضهم بهندسة جسم الإنسان أثناء نموه بالتغذي.[2]

ومن الملاحظ أن القزويني في هذا الوصف العام، إنما وافق بين ما جاء في القرآن والسنة وما عرف عن أرسطو والأفلاطونية الحديثة... مستهدفاً ما يرمي إليه في كتابه من رسم صورة للعالم المخلوق في دقائقه وأعاجيبه. ولا شك في أن الكثير من هذه المعلومات الإسلامية عن

١- سورة الإنفطار : الآيات ٩-١٢.

٢- عجائب المخلوقات ص ٥٥- ٦٣. للقزويني.

الملائكة وغيرها، إنما هي دخيلة ومستمدة من الفكر غير الإسلامية «كالفلسفة والمسيحية والثنوية والوثنية». وبها الكثير من الإسرائيليات حتى أن ابن كثير يرى أن حديث هاروت وماروت بالجملة إسرائيلي مرجعه إلى كعب الأحبار. ويقول أيضاً: «وقد ورد في قصتهما وما كان من أمرهما آثار كثيرة غالبها إسرائيليات».[1] وليس غريباً آن يؤخذ من المصادر التي ذكرناها أعلاه بعض المعلومات، وقد احتك بهم العرب الجاهليون منذ عصور خلت. وكيف لا تكون هذه الأخبار وأمثالها غريبة في البدء عن الوسط الجاهلي، وكلمة «ملائكة» الأصليّة إنما هي جمع تكسير- كما يقول_ مكدونالد- للكلمة السامية القديمة «ملأك» بمعنى رسول.[2] والتخفيف في العربية معروف. وهل أسهل من نقل «ملأك» إلى «ملك»؟ والجميل أنك إذا استشرت اللسان وجد أن أبا عبيدة أنشد قول رجل من عبد القيس، جاهلي، يمدح ملكاً فيقول:

فلست لأنسي ولكن لملأك تنزّل من جو السماء يصوب[3]

فاللام في «ملك» كانت ساكنة فحركوها بنقلهم إليها حركة الهمز فإذا جمعوه ردوا في الجمع الهمز الأصلي، فقالوا ملائك وملائكة. وأقرب من ذلك ما جاء في تفسير الطبري من أن أصل الملك «الرسالة» كما قال الشاعر الجاهلي عدي بن زيد:

أبلغ النعمان عني ملأكاً أنه قد طال حبسي وانتظاري[4]

وهذا ما يوافق تماماً قول مكدونالد أن كلمة «ملك» العربية سامية قديمة «بمعنى رسول» اتخذناها عن اللغة العبرية.[5]

الجن:

الاعتقاد بالجن قديم جداً، ولربما كان في نفس قدم الاعتقاد بالآلهة. وتكاد الميثولوجيا العالمية لا تخلو من هذا الاعتقاد الذي حافظ على بقائه منذ أن خشي الإنسان خوافي الطبيعة، أو الأرواح المحتجبة عن عيوننا حتى يومنا هذا.

ولكل أمة قديمة جن وشياطين تلعب دوراً مهماً في حياتها، لا يقل أحياناً كثيرة عن دور الآلهة. وهي تختلف بالأسماء والأفعال بحسب عقلية الشعب وما ورثه من معتقدات ومؤثرات

١- ابن كثير: البداية والنهاية ج ١، ص ٤٨.

٢- ENC. of Islam مجلد ٣، ص ١٨٩.

٣- لسان العرب، ج ١٢، ص ٣٨٦.

٤- تفسير الطبري ج ١- ص ١٥٢

٥- سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا- ص ٢٠٧-٢٠٨.

وقصص. ومن بين تلك الشعوب القديمة أمم الساميين الذين بزغت في أراضيهم الديانات الثلاث الكبرى... ونخص بالذكر هنا الشعب العربي الذي سكن بلاد العرب، وحافظ في وجوده الخالد وحياة لغته على تراث الساميين أكثر من غيره.[1]

والبحث يطول ويتسع مهما أسهبنا فيه، فلا نستطيع هنا إلا آن نحيط بمختصر مفيد يشمل حديث هذا الفصل. لقد عم الاعتقاد في الجن الخاصة والعامة، «فلم يخالف أحد- كما يقول ابن تيمية- من طوائف المسلمين في وجود الجن، وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن. أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، كما يوجد بعض طوائف المسلمين، كالجهمية والمعتزلة».[2]

وبهذا يقول الدميري: «فاعلم أن الأحاديث في وجود الجن والشياطين لا تحصى، وكذلك أشعار العرب وأخبارها، فالنزاع في ذلك مكابرة فيما هو معلوم بالتواتر».[3]

ما هي الجن؟

ومن الصعب تحديد الجن بتعريف خاص، ولا أظن أن تعريفاً محدوداً يعطينا ما تعطينا هذه اللفظة وحدها: «الجن». قال القزويني: - والكلام، كما يقول القاسمي، لابن سينا في كتاب الحدود- «زعموا أن الجن حيوان هوائي مشف الجرم من شأنه أن يتشكل بأشكال مختلفة».[4]

وفي حياة الحيوان، قال الدميري في تعريف الجن إنها أجسام هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، لها عقول وأفهام وقدرة على الأعمال الشاقة.[5]

وما هذان التحديدان إلا عبارة عن محاولة لتعريف الجن بحسب ما وصلت للمؤلفين الأخبار منذ الجاهلية. والتعريفان يكادان يجمعان أهم النقاط التي وردت في غيرهما من تعاريف العلماء والمفسرين والفلاسفة.

وخير ما يتحصل من كلامهم أنها مخلوقات مجردة عن الجسمية قادرة على التشكل

١- the Mythology of the world V.5 semetic0 p.352.

٢- آكام المرجان في أحكام الجان لبدر الدين الشبلي ص ٩- ١٠.

٣- حياة الحيوان الكبرى للدميري، ج ١ ص ١٨٨.

٤- عجائب المخلوقات للقزويني، ص ٣٦٨.

٥- الدميري- جـ ١، ص ١٨٥

وهم مخطئون في تحديدهم للجن، لأنهم لا يفرقون بين نوع وآخر، فهي، كما نستدل من اعتقاد القوم الذي تحمله لنا الأخبار، أصناف مختلفة: منها ما يقدر على التشكل ويملأ حيزاً، ومنها ما يتشكل وهو جرم خيالي.

والسائد أن الله خلق الملائكة- كما ذكرنا- من نور، وخلق الجن والشياطين من اللهب والدخان. وقد ورد في الكتاب آيات تخبر أن النار عنصر الجن. قال تعالى:

﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾[1]

وفي مكان آخر:

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[2]

وعلى لسان إبليس حينما عصى ربه ولم يمتثل بالسجود لآدم:

﴿...خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[3]

جن سليمان:

والجن كما جاء في الأخبار، هم سكان الأرض قبل النوع البشري: أربعون فرقة كل فرقة ستمائة ألف... أكثروا في الأرض فساداً وثاروا على الآلهة، فلاحقتهم الملائكة وحاربتهم، ثم شتتهم وطردتهم إلى أطراف الجزائر في البحور بعد أن أسرت منهم الكثير. كل ذلك وآدم لم يخلق بعد، ولم يسكن الأرض.

ولعلهم لم يحشدوا ثانية إلا لسليمان، حيث نادى جبريل: أيتها الجن والشياطين، أجيبوا بإذن الله تعالى نبيه سليمان بن داوود، فخرجت الجن والشياطين من المغارات ومن الجبال والآكام والأودية والفلوات والآجام وهي تقول: لبيك لبيك... والملائكة تسوقها سوق الراعي غنمه حتى حشرت لسليمان طائعة ذليلة.

ثم وقفوا بين يديه فجعل ينظر إلى خلقها وعجائب صورها وهم بيض وسود وصفر وشقر وبلق، على صور الخيل والبغال والسباع... ولها خراطيم وأذناب وحوافر وقرون... ثم قام سليمان وبيده الخاتم، فخرّت الجن والشياطين ساجدة، فأخذ يسألهم عن أديانهم وقبائلهم ومساكنهم وطعامهم وشرابهم... ورأى المردة منهم يهمون بالفساد، ففرقهم على الأعمال الشاقة ليدعم قوة ملكه.[4]

١- سورة الحجر: الآية ٢٧.

٢- سورة الرحمن: الآية ١٥.

٣- سورة الأعراف: الآية ١٢.

٤- سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا، ص ٢١٠- ٢١١.

قال وهب بن منبّه: لما حشدت الريح الصرصر الجن لسليمان، وجدهم على صور عجيبة. منهم من كان وجهه على قفاه يخرج من فيه النار، ومنهم من كان يمشي على أربع، ومنهم من كان له رأسان، والبعض له رؤوس الأسد وأبدان الفيلة. ورأى سليمان شيطاناً نصفه على صورة كلب، والنصف الآخر صورة سنور، وله خرطوم طويل، فسأله عن نفسه وقال صنعتي الغناء وعصر الخمر وشربه، وتزيين ذلك للبشر. فصفده وسأل آخر قبيح الشكل يقطر الدم من كل شعرة على بدنه، فأجابه أن عمله سفك الدماء، فأمر بتصفيده، ولكنه قدم عهداً بأن لا يفسد، فختم على عنقه وأطلقه. ومر به ثالث في صورة قرد له أظافر كالمناجل، وهو قابض على بريط، فسأله عن اسمه وعمله، فقال أنا مرة بن الحارس، أول من وضع هذا البريط وحركه، فلا يجد أحد لذة الملاهي إلا بي، فأمر بتصفيده.[1]

مواطن الجن في بلاد العرب:

ولعل للوهم والخوف أكبر الأثر في تحديد أماكن الجن ومسكنها عند الأعراب، وإلا فلماذا لا تكثر معارضات الجن للأعراب إلا في البوادي الجرداء، وبطون الأودية؟ وألا لماذا لا تعبث وتحوم إلا في الخرائب والأماكن المهجورة، حيث تحاك من حولها الخرافات المخيفة والأساطير التي تحذر الناس من الاقتراب من هذه المواضع؟ ينقل الجاحظ عن بعض أصحاب التفاسير: «إن جماعة من العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض وتوسطوا بلاد الحوش، خافوا عبث الجنّان والسعالي والغيلان والشياطين، فيقوم أحدهم فيرفع صوته: إنا عائذون بسيد هذا الوادي، فلا يؤذيهم أحد، وتصير لهم بذلك حفاوة».[2]

والملاحظ أن الجن، التي قالوا عنها أنها حشدت لسليمان خرجت من المغاور والجبال والآكام والأودية والفلوات... وكلها أماكن رهيبة تلقي الرعب- وبخاصة في هدأة الليل- في قلوب الناس. وكثيراً ما تذكر الشعراء مواضع للجن يضرب بها المثل، وهي في أماكن شتى في بلاد العرب، كقولهم: جن البديّ وجن البقّار، وأبرق الحنّان الذي يسمع فيه عزيف الجن، وذو سمار، وعبقر وغيرها.

١- القزويني، ص ٢٧٢- ٣٧٤.

٢- البيان والتبيين للجاحظ- ج ٦، ص ٦٧.

عبقر:

ولعل عبقر أشهر ما يلفت النظر من هذه الأماكن فهي مجنة كثر الاختلاف في تعيين موقعها. يقولون إنها في أرض اليمن، ويقولون إنها موضع بنواحي اليمامة، ويقولون إن عبقر اسم لجبل بالجزيرة كان يصنع به الوشي. ويعلق ياقوت بعد ذلك بقوله: ولعله كان بلداً قديماً وخرب، كان ينسب إليه الوشي، فلما لم يعرفوه نسبوه إلى الجن، ومن ثم نسب كل شيء جيد إلى عبقر.[1]

وخير ما في المعاجم اللغوية أن عبقر قرية يسكنها الجن فيما زعموا، ينسبون إليها كل عمل دقيق وعظيم.

ومما جاء في مقدمة «عبقر المعلوف» أن عبقر على رأي «ادي اشير» فارسية من كلمة «ابكار» بمعنى الرونق والعزة والكمال. أو على رأي الأستاذ انستاس الكرملي يونانية من كلمة Hyper Khrir بمعنى «الذي تنال يده ما وراء مكنته» أو كلمة Hyper Kheria بمعنى «المحامية القوية اليد والقديرة» وهذا لقب يونون أوهيرا اليونانية Hera التي كرمها القدماء، وكل ذلك من معاني العبقرية أي الكمال من كل شيء أو التفوق والقوة.[2]

انتقال قرى الجن[3]:

وكثيرة تلك الروايات التي من شأنها إثبات اعتقادهم بانتقال قرى الجن بكاملها من مكان إلى مكان بسرعة مدهشة، كأن يقولوا مثلاً: مررنا بقوم ونزلنا للراحة عندهم، ثم غادرناهم، وعدنا بعد قليل فلم نجد للقوم أثراً فعلمنا أنهم الجن. والشبلي في كتابه: «آكام المرجان في أحكام الجان» ينقل عن الزمخشري، قال: «تقول الأعراب ربما نزلنا بجمع كثير، ورأينا خياماً وناساً ثم فقدناهم من ساعتنا. يعتقدون أنهم الجن وأن تلك خيامهم وقبابهم».

ولا يستبعد أن يكون هذا الاعتقاد ناتجاً عن سرعة انتقال البدو من منتجع إلى منتجع، حتى إذا مر بهم قافل لم يجد إلا آثارهم، فيقول في نفسه كأنهم الجن. والبدوي لا يعوقه شيء في السفر، وهل سفر البدوي غير هد ورحيل؟.

١- معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٠٦- ٦٠٧.

٢- عبقر شفيق المعلوف- ص ٥.

٣- إن العربي لا يستطيع أن يتخيل صورة الجن بصورة خيالية مخيفة بعيدة عن المادة بل توهمها بصورة الحيوان مثل الحية والنعامة والأرنب، وتصور الروح في شكل الهامة (البومة) والعمر الطويل في شكل النسر والأمانة في شكل الكلب، والصبر في الحمار.

مطايا الجن:

ومن لطيف ما يروى أن الجن تركب أنواعاً كثيرة من الحيوانات والطيور والزواحف والحشرات. ذكر الراغب الأصفهاني قال: «ادّعوا أن الجن يركب كل وحش من البهائم والطيور إلا الأرانب.. والضباع.. والقرود.. وقالوا يكثر ركوبها القنفذ والورل... وقالوا من قتل من أول الليل بعض هذه المراكب لم يأمن على فحل إبله. ومتى اعتراه غم أو مرض في ماله وأهله حكموا بأن ذلك عقوبة من قتلهم».

وكثيراً ما يمتطون الظباء في البوادي. قال بعض الأعراب: «أحلف بالله لقد كنت أجد بالظباء التوقيع في ظهورها والسمة في الآذان».[1]

على أن أشهر مطايا الجن، وأحب المركوبات إليها، النعام، كما يظهر من أخبارهم.

ولم يكن المعتقد بركوب الجن للنعامة عند الأعراب فحسب، فلقد كان للنعامة صلة بالجن في الميثولوجيا العربية، كما كان لها علاقة بالجن في الميثولوجيا البابلية أيضاً.[2]

أصناف الجن:

وتختلف الروايات التي تضع الجن في مراتب وتقسمها إلى أصناف. وقد نقل الشبلي قول أبي عمرو، بن عبد البر، قال: «الجن عند أهل الكلام والعلو منزلون على مراتب، فإذا ذكروا الجن خالصاً قالوا جني، فإن أرادوا أنه ممكن يسكن مع الناس قالوا عامر، والجمع عمّار. فإن كان ممن يعرض للصبيان قالوا أرواح، فإن خبث وتعزّم فهو شيطان، فإن زاد على ذلك فهو مارد، فإن زاد على ذلك وقوي أمره قالوا عفريت، والجمع عفاريت».[3]

وهم في الجملة جني وخواف فإذا ظهر الجني ونطق واتقى وصار كله خيراً فهو ملك.

وجاء في عيون الأخبار أن الشياطين مردة الجن، والجان ضعفه الجن.[4]

وقد سئل وهب بن منبه عن الجن فقال: «هم أجناس، فأما الصميم الخالص من الجن. فإنهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون في الدنيا ولا يتوالدون. ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون وهم السعالي والغيلان والقطارب وأشباه ذلك».[5]

١ـ البيان والتبيين للجاحظ، ص ٧٤، جـ ٦.

٢ـ سليم الحوت ـ في طريق الميثولوجيا، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

٣ـ البيان والتبيين، جـ ٦، ص ٨٥ ـ ٩٥

٤ـ عيون الأخبار لابن قتيبة، جـ ٢، ص ١٠٩.

٥ـ الدميري ـ جـ ١، ص ١٩٢.

وفي عرض الحديث عن الجن يقوا ابن كثير: «والمقصود أن الجان خلقوا من النار وهم كبني آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون».[1]

وينسبون إلى النبي أحاديث يؤخذ منها أن الجن أصناف: منها ما هو كالريح يطير في الهواء وبأجنحة، ومنها حيوانات كالحيات والعقارب وخشاش الأرض، ومنها ما يحل ويظعن كالآدميين وعليهم الحساب والعقاب. وفي عجائب المخلوقات يأتي القزويني على فصل في ذكر بعض المتشيطنة وأشهرها الغول والسعلاة. وقبل أن نذكر شيئاً عنهما نود أن نسوق كلمة عن شيخ الشياطين...

إبليس:

في رواية للطبري أن إبليس كان على رأس الملائكة الذين أرسلهم الله إلى محاربة الجن في الأرض قبل آدم. وفي الأخبار، كما نقل القزويني- أن إبليس كان في الأرض صغيراً حينما هبطت جند الملائكة وشتت الجن وأسرت منهم الكثير. وكان نفسه بين الأسرى حيث نشأ مع الملائكة حتى سادهم... إلى أن كانت قصة العصيان...

ففي الأولى نجد أن إبليس ملك تقي ثم انقلب إلى شيطان رجيم، وفي الثانية نجده في الأصل شيطاناً... وارتفع إلى مصاف الملائكة ثم انحدر من علياء الجنان ملعوناً إلى جحيم الأرض، ولا بأس فقد مرّ معنا إمكانية انتقال الجني إلى ملك إذا اتقى وصار خيراً كله، أو بالعكس كما حدث لهاروت وماروت.

وفي الكتاب آيتان يستدل من الأولى أن إبليس ملك من الملائكة وهي:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2]

وفي الثانية نرى تصريحاً بأن إبليس كان من الجن وهي:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ...﴾[3]

أما القائلين أن إبليس من أصل جني فأكثر وأشهر. يقول البيضاوي «على آن الملك لا يعصي، وإنما عصى إبليس لأنه جنياً في أصله».[4]

١- البداية والنهاية جـ ١، ص ٥٦.

٢- سورة البقرة: الآية ٣٤.

٣- سورة الكهف: الآية ٥٠.

٤- البيضاوي، أنوار التنزيل، جـ ١، ص ٥٦٥.

وذكر المسعودي «أن الله خلق الجان من نار السموم وخلق منه زوجته كما خلق حواء من آدم وأن الجان غشيها فحملت منه».[1]

وقال الدميري «وأعلم أن المشهور أن جميع الجن من ذرية إبليس، وبذلك يستدل على أنه ليس من الملائكة، لأن الملائكة لا يتناسلون لأنهم ليس فيهم إناث».[2]

ثورته:

وتتلخص غضبة الله على إبليس بكبريائه وترفعه بعنصره «النار» «وهذا ما يؤيد أنه من مصاف الجان». على الصلصال والحمأ المسنون.

ويبتدئ النضال الروحي بين ذريته وذرية خصمه آدم. وقد طلب منذ البدء من الله أن ينظره إلى يوم يبعثون ليضل الإنسان عن سبيله. وقد جاء على لسانه:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3]

بعد هذا كله نرى أن إبليس: اسمه وقصة عصيانه، إنما هما من مستوردات العرب، وليس لنا بهما شيء أصلي البتة. قال النووي «إبليس كنيته أبو مرة. واختلف العلماء في أنه هل هو من الملائكة من طائفة يقال لهم الجن أم ليس من الملائكة، وفي اسمه هل هو اسم أعجمي أم عربي»؟[4]

وقد عرض لذلك Langdon في كتابه «الميثولوجيا السامية» فرأى أن أسطورة عصيان إبليس الإسلامية على الخالق إنما هي مستمدة من القصة المسيحية اليهودية المذكورة في «أسفار آدم وحواء».

أصل الكلمة:

ويرى كذلك أن الكلمة نفسها «إبليس» مستعارة في العربية من اليونانية Diabolos بمعنى الشيطان Devil. ومن هذا القبيل يرى «نلدكه» أن كلمة جن نفسها ربما كانت متعلقة باصطلاحات دينية استعملت في بعض اللغات السامية، وإن كان يرى أن جمعها «جنان» ذو شبه كبير بالكلمة Ganen الحبشية التي تعطي نفس المعنى، وكذلك يرى أن كلمة «شيطان» مستعارة في اللغة العربية فهي تتفق كل الاتفاق مع «شيطان» الحبشية المشتقة من Satan العبرية.[5]

١- المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ٣٢٠.

٢- الدميري، جـ ١، ص ١٩١.

٣- سورة الحجر: الآية ٣٩.

٤- الدميري، جـ ١، ص ١٩١.

٥- سليم الحوت، في طريق الميثولوجيا- ص ٢١٩- ٢٢٠.

فتنته للبشر:

هذا، ويتخذ إبليس عرشه على الماء. ومن هناك يرسل الشياطين لفتنة البشر، وتكون المكافأة نسبية مع مقدار هذه الفتنة. أعظمهم عنده منزلة أشدهم فتنة. والظاهر أن التفريق بين الرجل وزوجه شيء مستحب عنده. وهو يجازي أولئك الذين يعجزون عن فتنة البشر مجازاة قاسية. جاء في «آكام المرجان في أحكام الجان»: «أن إبليس اتخذ عرشاً على الماء ووكل بكل رجل شيطانين وأجلهما سنة، فإن فتناه، وألا قطع أيديهما وأرجلهما، وصلبهما ثم بعث له شيطانين آخرين».[1]

أولاد إبليس:

ومن الشياطين الأبطال خمسة، يزينون الصغائر والكبائر للناس، وهم أولاد إبليس على رأي مجاهد، قالك «لإبليس خمسة من الأولاد، وقد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره، فذكر أن أسماءهم: ثبر، والأعور، ومبسوط، وداسم، وزلنبور! أما ثبر فصاحب المصايب يأمر بالثبور وشق الجيوب، وأما الأعور فإنه صاحب- الزناء يأمر به ويزينه في أعينهم.. وأما مبسوط فصاحب الكذب، وأما داسم فيدخل بين الزوجين ويوقع بينهما البغضاء.. وأما زلنبور فهو صاحب السوق، وبسببه لا يزال أهل السوق مخاصمين».[2]

مصايده:

النساء! ومن لطيف ما ينسبون إلى النبي- عن أبي إمامة- قوله: «إن إبليس لما نزل إلى الأرض قال: يا رب أنزلتني وجعلتني رجيماً فاجعل لي بيتاً، قال: الحمام.. قال: فاجعل لي مجلساً، قال: الأسواق، ومجامع الطرق.. قال: فاجعل لي طعاماً، قال: ما لم يذكر اسم الله عليه... قال: فاجعل لي شراباً، قال: كل مسكر.. قال: فاجعل لي مؤذناً. قال: المزامير، قال: فاجعل لي قرآناً، قال: الشعر.. قال: فاجعل لي خطاً، قال: الوشم... قال: فاجعل لي حديثاً، قال: الكذب. قال: فاجعل لي مصايد، قال: النساء.. ».[3]

١- بدر الدين الشبلي، آكام المرجان. ص ١٧٦.

٢- القزويني ص ٣٦٨.

٣- المرجع السابق، ص ٣٦٨.

الغيلان والسعالي:

الغول أشهر المتشيطنة في رأي القزويني. وهو، كما زعموا «حيوان مشوه لم تحكمه الطبيعة، وأنه لما خرج مفرداً لم يستأنس وتوحشن وطلب القفار، وهو يناسب الإنسان والبهيمة، وأنه يتراءى لمن يسافر وحده في الليالي وأوقات الفلوات، فيتوهم أنه إنسان فيصد الإنسان عن الطريق»[1]. وقد حدده الجاحظ قبل ذلك فقال: «الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ويتكون في ضروب الصور والثياب ذكراً كان أم أنثى».[2]

والدميري يقول: «الغول بالضم أحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين وهم سحرتهم». ونقل عن الجوهري قوله: «هو من السعالي والجمع أغوال وغيلان، وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول، والتغول التكون... ويقال تغولت المرأة إذا تلونت. ويقال غالته غول، إذا وقع في مهلكة».[3]

وقال المسعودي: «وللعرب في الغيلان والتغول أخبار طريفة لأنهم يزعمون أن الغول يتلون لهم عند الخلوات، وأنها تظهر لخواصهم في أنواع من الصور يخاطبونها، وربما باضعوها، وقد أكثروا من ذلك في أشعارهم».[4]

ويزعمون أن رجليه رجلا عير، فكانوا إذا اعترضتهم الغول في الفيافي يرتجزون فيقولون:

يا رجل عير انهقي نهيقاً ... لن نترك السبسب والطريقا

وذلك أنها كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات، فيتواهمون أنها منهم، فيتبعونها فتزيلهم عن الطريق الذي هم عليه، وتتيههم.

وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه، فلم يكونوا يزولون عما هم عليه من القصد. فإذا صيح بها على ما وصفنا شردت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال.

ومن غريب ما يروون عن الغول أنها إذا ضربت ضربة واحدة ماتت، إلا آن يعيد عليها الضارب قبل أن تقضي ضربة أخرى، فإن فعل ذلك لم تمت.

١- القزويني، ص ٣٧٠.

٢- البيان والتبيين ص ٤٨ جـ ٦.

٣- الدميري، ص ١٦٧ جـ ٢.

٤- المسعودي، مروج الذهب، جـ ٣، ص ٣١٤.

وأما السعلاة فلا أراها تفترق عن الغول. قال الجاحظ: «والسعلاة اسم لواحدة من نساء الجن تتغول لتفتن السفار. قالوا وإنما هذا على العبث أو لعلها أن تفزع إنساناً فيتغير عقله من أجل عند ذلك، لأنهم لم يسلطوا على الصحيح العقل».(1)

ويرى الدميري أنها أخبث الغيلان، ونقل عن غيره أن السعالي سحرة الجن.

وأخذ عن السهيلي قوله أن «السعلاة ما يتراءى للناس بالنهار والغول ما يتراءى للناس في الليل».(2)

وأما القزويني فيرى أن « السعلاة نوع من المتشيطنة متغايرة للغول.

وأنها أكثر ما توجد في الغياض، وإذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب الهر بالفأرة... ويذكر أن الذئب يفترسها فتستغيث، إلا أن القوم يعلمون أنها السعلاة فلا يغيثها أحد فيأكلها الذئب».(3)

ولا أدري كيف يتمكن الذئب من افتراس من يلعب بالإنسان كما يلعب القط بالفأر؟ وكثيرون من الناس من يفترسون الذئب نفسه!!

ومما ذكره ابن منظور أن السعلاة ساحرة الجن كما ذكر الدميري، على أنه أشار إلى القول بأنها هي الغول عينها التي تذكرها العرب في أشعارها.

تشكل الغيلان والشياطين:

وكما أن للملائكة القدرة على التشكل، كذلك الغيلان وغيرها من الجن في صور مختلفة. وقد ضرب ابن زهير تلون الغول مثلاً لتحول «سعاد» فقال:

وما تزال على حال تكون بها ... كما تكون في أثوابها الغول

وقد زعموا أن الجن والشياطين والغيلان يتحولون في أي صورة شاؤوا إلا الغول فإنها تتحول في جميع صور المرأة ولباسها إلا رجليها فلا بد أن يكونا رجلي حمار(4). وقال الشبلي لا شك أن الجن يتطورون ويتشكلون في صور الإنس والبهائم فيتصورون في صور الحيات والعقارب، وفي صور الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير، وفي صور الطير، وفي صور بني آدم كما أتى الشيطان قريشاً في صورة سراقه بن مالك بن جعشم لما أرادوا الخروج إلى بدر

1- الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ٦ ص ٤٨، ٧٢.

2- الدميرين جـ ٢، ص ٢٠.

3- القزويني ص ٣٧٠-٣٧١.

4-البيان والتبيين، جـ ٦، ص ٦٨.

وكما يروى أنه تصور في صورة شيخ نجدي لما اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في أمر الرسول ﷺ هل يقتلونه أو يحبسونه أو يخرجونه. كذلك تمثل إبليس في صورة شيخ نجدي وجاء قريشاً في أمر الركن والتجأت إلى محمد.

صياح الديكة:

والجن كما تظهر «في اعتقادهم» للناس أحياناً، خفية، على الأكثر، عن العيون، في حين أنها تظهر لبعض الحيوانات. رووا عن أبي هريرة أن النبي قال: «إذا سمعتم صياح الديكة، فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت ملكاً. وإذا سمعتم نهيق الحمار، فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً».

معارك الجن:

وكنا ذكرنا في الكلام عن مراتب الجن أن منها من لا يأكل ولا ينام ولا يتوالد. ومنها ما هو على عكس ذلك، يعيش بأسباب الحياة كلها، بل يتنازع البقاء ويحارب بعضه بعضاً. قال «سميث» إن الزوابع في كثير من الأساطير العربية، عبارة عن الظواهر المرئية لمعركة بين عشيرتين من الجن.

إبليس وجمعه بين الذكورة والأنوثة:

وذكرنا أيضاً أن لإبليس نفسه خمسة أولاد، على أن الشياطين كلها من ذريته كما أن البشر من ذرية آدم. على أننا لا نعرف لإبليس زوجة، وإن قيل أنها خلقت منه كما خلقت حواء من آدم، بينما نعرف عن أمنا حواء الأخبار الطوال.

على أنهم يذكرون أن في الجن ذكوراً وإناثاً «خلاف الملائكة» فيتوالدون من ذلك... ومن الطريف قولهم أن في إبليس وحده أعضاء الذكورة والأنوثة معاً وذلك في فخذيه... وبذلك يتوالد فيخرج له كل يوم عشر بيضات في كل بيضة سبعون شيطاناً وشيطانة.

التوابع والقرناء:

وخلاصة القول في الجن أنها مخلوقات خفية سخروا لفتنة الناس.

وكما لكل إنسان ملك موكل به، كذلك له قرناء من الشياطين.

رووا في حديث لعائشة أن النبي خرج من عندها ليلاً ورجع فتوسم فيها الغيرة، فقال: مالك يا عائشة؟ أغرت؟ فقالت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال الرسول: أفأخذك

شيطانك؟ فقالت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟ قال: نعم، ومع كل إنسان. قالت: ومعك يا رسول الله؟ قال: نعم... ولكن ربي عزَّ وجل أعانني عليه.

وكثيراً ما أجمعوا أن لكل إنسان قريناً من الشيطان. ولقد مر معنا أن عمرو بن لحي كان كاهناً، وله رئيّ، وكذلك غيره من الكهان الذين يسخرون توابعهم في أغراضهم وحيلهم. كما ظن القرشيون أن في محمد رئياً. فقالوا له إنهم مستعدون أن يلتمسوا له الطب والتعاويذ! ولعل أشهر هذه التوابع والقرناء أولئك الذين يلقون الشعر على ألسنة الفحول من الشعراء، ويعرفون «بشياطين الشعراء».

الخوف من الجن وعبادتها:

وكانت العرب في خوف دائم من الجن، فلذلك كانوا إذا احتوتهم هوجل، يستجيرون منها رهبة لا رغبة. قال الراغب: «كانت العرب إذا سار أحدهم في تيه من الأرض، وخاف الجن يقول رافعاً صوته: أنا مستجير بسيد هذا الوادي. ويصير له بذلك خفارة».[١]

وقد أشار الكتاب إلى هذه الاستعاذة فقال:

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾[٢]

ولم يقفوا عند حد الإعاذة والاستجارة بهم، فقد قدموا لهم الذبائح، وذبائح الجن أن يشتري الرجل الدار أو يستخرج العين أو ما أشبه ذلك فيذبح لها ذبيحة للطيرة.

وكانوا في الجاهلية يقولون إذا فعل ذلك لم يضر أهلها من الجن.[٣] ويستفاد من بعض الأخبار أن هذه العادة أو هذا الخوف من الجن قد استمر حتى بعد أن نهى النبي عن ذبائح الجن، وعن أكل ما ذبح لهم وعلى اسمهم. وقيل أن بعض الخلفاء قد ذبح للجن حينما استنبط عيناً، وذلك خوفاً من أن يغوروا ماءها.

والعامة حتى في أيامنا هذه، لم تخل من الاعتقاد بهذه الخزعبلات حيث يقولون إن هذه الدار مأهولة بالجن، وذاك المكان عامر بالأرواح! هذا، وقد غالوا في الجاهلية حتى عبدوا الجن، كما مر سابقاً.

١- الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، جـ ٢، ص ٢٨٠.

٢- سورة الجن: الآية ٦.

٣- الدميري، جـ ١، ص ١٩٦.

ومنهم من روى أن الآية:

﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ...﴾[1]

إنما نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن. كل ذلك لأن الجن تستهوي الأنس وتخطفهم. ولم تكتف الجن باستهواء الأنس، فقد كانوا يقتلونهم عند الإساءة إليهم. وهذان «حرب بن أمية» و «مرداس بن أبي عامر السلمي»- رجلان عاشا قبل محمد بجيل- تقتلهما الجن لاحراقهما شجر القرية. قال أبو الفرج: «وهذا شيء قد ذكرته العرب في أشعارها، وتواترت الروايات بذكره». وكذلك قتلت علقمة بن صفوان وسعد بن عبادة.[2]

وكثيراً ما يروون أن الأنس يقتلون الجن، وهذا تأبط شراً يحمل إلى قومه رأس الغول، وذاك عمر بن الخطاب يصرع جنياً. وذلك عمار بن ياسر يقاتل مع النبي الأنس والجن، ويروي عن نفسه يقول: «أرسلني رسول الله ﷺ، إلى بئر أستقي منها، فرأيت الشيطان في صورته، فصارعني فصرعته، ثم جعلت أدمي أنفه بفهر كان معي أو حجر».[3]

الغرام بين الثقلين:

على أن هذا الصراع الغريب المتواصل لم يمنع الثقلين من الوقوع في حب بعضهما البعض. وقد مرت معنا قصة الجني عاشق الجارية الفزارية.

ومن الجنيات من يقعن في رجال من الأنس. ويستدل من قصة ذكرها الجاحظ أن الصرع نفسه «وهو لا يقع إلا للأنس رجالاً كانوا أم نساء» إنما هو نتيجة لهذا الحب، وهو ليس عندهم إلاّ على جهة ما يعرفون من الضجاع.[4] وهم يزعمون إذا صرعته الجنية، وأن المجنونة إذا صرعها الجني، أن ذلك إنما هو على طريق العشق والهوى وشهوة النكاح، وأن الشيطان يعشق المرأة منا، وأن نَظَرهُ إليها من طريق العجب بها أشد عليها من حمى، وأن عين الجان أشد من عين الإنسان. وتشير الآية:

﴿...لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ...﴾[5]

١- سورة الإسراء: الآية ٥٧.

٢- البان والتبيين للجاحظ جـ ٦، ص ٦٤.

٣- الدميري، جـ ١، ص ١٨٩.

٤- البيان والتبيين، جـ ٦، ص ٨١.

٥- سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

إلى اعتقاد القوم بالصرع أو مخالطة الجن للأنس، وامتلاكهم مدة عنيفة من الزمن. هذا الاعتقاد الذي يظنه «نلدكه» غريباً، وإن كان معروفاً لدى العرب في عصورهم التاريخية، أو- كما يقول- زاده الاحتكاك مع الأجانب متانة على الأقل.[1]

وتتردد مثل هذه الصلات بين الجن والأنس، كما دعا الشبلي في كتابه «آكام المرجان في أحكام الجان» يقول إنه كما تجري مناكحة الجن فيما بينهم، كذلك يمكن وقوع المناكحة بين الأنس والجنية وبالعكس.[2] وجاء في الدميري: قال الجاحظ وزعموا أن التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والأنس لقوله تعالى: ﴿...وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ...﴾[3] وهذا ظاهر، وذلك أن الجنيات إنما تتعرض لصرع رجال الأنس على جهة العشق في طلب الفساد. وكذلك رجال الجن لنساء الأنس. ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال والنساء للنساء.

وتكثر القصص والروايات في ذلك. ومن حديث لامرأة قالت: «معي جني يأتيني في اليوم مراراً، وأجد في نفسي ما أجد إذا جامعني زوجي»، وقالت أخرى: «إن جنياً يأتيني كما يأتي الرجل المرأة».[4]

وقد استمر الاعتقاد بنكاح الجن للأنس إلى ما بعد العصور الجاهلية.

النتاج المشترك:

والكلام يجرنا إلى النتاج المشترك، فقد زعموا أن رجلاً من الأعراب تزوج السعلاة وأنها كانت عنده زماناً، وولدت منه، حتى رأت ذات ليلة برقاً على بلاد السعالي؛ فطارت إليهن. ومن هذا النتاج المشترك، وهذا الخلق المركب عندهم بنو السعلاة من بني عمرو بن يربوع. وبلقيس ملكة سبأ. وجرهم، حيث زعموا أن أباها من الملائكة الذين عصوا في السماء، فأنزلوا إلى الأرض، كما حدث لهاروت وماروت.[5]

وفي آكام المرجان أن أحد أبوي بلقيس كان جنياً... كان أبوها من عظماء ملوك اليمن، تزوج امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن، فولدت له بلقيس. وتسمى بلقمة، ويقال أن مؤخر قدميها كان مثل حافر الدابة.[6]

١- جـ ١ ص ٦٧٠ ENC. Rel

٢- الشبلي. ص ٦٦.

٣- سورة الإسراء: الآية ٦٤.

٤- الدميري جـ ٢، ص ٢٠

٥- البيان والتبيين، جـ ٦، ص ٦٠- ٦١.

٦- الشبلي، ص ٧٠.

فعمرو بن يربوع متولد من السعلاة والإنسان! ولذلك دعوا قومه بني السعلاة، وبلقيس من الإنسان والجنية، وجرهم تولدت من وقوع الملائكة على بنات آدم! ورووا أيضاً أن ذا القرنين من هذا النوع الأخير، أي أن أمه آدمية وآباه ملك! ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب- كما يذكر الدميري- رجلاً ينادي يا ذا القرنين، قال: أفرغتم من أسماء الأنبياء، فارتفعتم إلى أسماء الملائكة.

هذا، وزيدان، تعليقاً على ما ذكرنا سابقاً من تشخيص العرب للأجرام السماوية، وما ذكرنا هنا من أخبار بلقيس وسواها من النتاج المشترك، يقولك وأما أصل هذه الاعتقادات، فإما هندي أو يوناني أو مصري. أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بأمثال ذلك.[1]

صلة الجن بالكهان والأوثان:

وللجن، في الجاهلية، صلة وثيق بالكهان. وفي الحديث أن الشياطين كانت تسترق السمع في الجاهلية، وتلقيه إلى الكهنة فتزيد فيه ما تزيد الكفار منهم.[2] ويقول النويري: وكانت كهنة العرب، لهم أتباع من الشياطين يسترقون السمع، ويأتونهم بالأخبار، فيلقونها لمن يتبعهم ويسألهم عن خفيات الأمور حتى جاء الإسلام.[3]

فالكهانة هي استخدام الجن في معرفة الأمور المغيبة. ويقول إن هذه الصناعة كانت معروفة عند العرب، فكان إذا ناب أحدهم أمر يريد معرفة داخليته أو مستقبله منه، ذهب إلى الكاهن فأخبره بما يهمه. وكان لكل كاهن منهم صاحب من الجن يحضر إليه فيخبره بما يريده.[4] ويرى ابن خلدون الكهانة من خواص النفس الإنسانية التي لها استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية. والكاهن لا يقوى على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان... ولهذا يعرض له الصدق والكذب... فيفزع إلى الظنون والتخمينات والسجع «سجع الكهان» حرصاً على الظفر بزعمه وتمويهاً على السائلين. ويرى أيضاً أن علوم الكهان كما تكون من الشياطين، كذلك تكون من نفوسهم... ولهذا لم تبطل الكهانة في رأيه، وهو رد على من يقول إنها انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب.[5]

١ـ زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، جـ ١، ص ١٨٥.

٢ـ لسان العرب جـ ١٧، ص ٢٤٤.

٣ـ النويري: نهاية الإرب ص ١٢٨ جـ ٣.

٤ـ دائرة معارف القرن العشرين. جـ ٨، ص ٢٢٥.

٥ـ طاش كبري زادة: مفتاح السعادة جـ ١، ص ٣٠١.

والبعض يقول إن الكهانة متعلقة فقط بالإنباء عن المستقبل كما ذكر زادة في تعريف علم الكهانة، قال: «وهو مناسبة الأرواح البشرية مع الأرواح المجردة من الجن والشياطين واستعلامها «منها» الأحوال الجزئية الجارية في عالم الكون والفساد، لكنها مخصوصة بالأمور المستقبلية».[1]

ومما يذكر أن الأرواح الخفية هذه، كانت تسكن الأصنام وتحل الأوثان، وكثيراً ما يسمعون- على رأيهم- من أجوافها همهمة وأصواتاً. على أن الجاحظ يعرّض بذلك فيقول: «وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب». أما الأعراب فيرون بذلك أن الكهنة واقعون تحت تأثير الإله المباشر، ولهذا اعتقدوا بأن فيهم قوى الأخبار عن أمور الناس المستقبلية.

الكهان:

وكما كان للقبيلة خطيبها وشاعرها، كذلك كان لها كاهنها، أو كاهنتها. ولم يكن عمل الكاهن مقتصراً على ما ذكرنا من كشف غيوب المستقبل، فهو أيضاً ساجع القبيلة، وخطيبها أحياناً، ومستشارها، وطبيبها، وحكمها. إذا بت في مشكلة فكلامه القول الفصل الذي لا استئناف بعده. وكثيراً ما يكون الكاهن شريفاً أرستقراطياً ذا مكانة عائلية مرموقة في الجاهلية، يفتخر به المفاخرات كأن يقول مثلاً: «ومنا المأمور الحارثي، والديّان بن عبد المدان الحارثي، والشريفان الكاهنان».[2]

قال لامنس: «وقد يدعى الكاهن أحياناً بالحكم، وهي رتبة تفرض عادة رتبة السعادة، وتدعو الناس إلى استشارة صاحبها ضرورة قبل القيام بأي غزوة أو غارة. ولا يخفى أن تأثير هؤلاء الحكام، واختبارهم الشخصي، إذا قرن بما كان ينسب إليهم من أنوار علوية، أفادنا مبلغ النفوذ الذي كان لهم، والأثر البعيد الذي كان لأقوالهم وإشاراتهم، وإذاً فليس بغريب أن يستشيرهم القوم في طريق الغزو، وأن يطلبوا إليهم الدلالة على الغيب. هذا إذا لم يلجأوا إلى ساحرة أو كاهنة أو «ساحرة عجوز» يرجون منها معاونتهم على الأعداء فترسلن الأسجاع، النافذة».[3]

ومما هو مأثور أن لفظة «كاهن» تشبه Kohen العبرية، و«Kahen» Kahna - بمعنى قسيس- الآرامية. وكذلك «حازي»، وإن كانت عربية، إلا أنها تشبه كلمة «hoza» العبرية أيضاً.[4]

١- طاش كبري زادة: مفتاح السعادة جـ ١، ص ٣٠١.

٢- كتاب الحيوان للجاحظ جـ ١ ص ٢٨٠.

٣- سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا، ص ٢٣١- ٢٣٢.

٤- ص ٦٢٤- ٦٢٥، جـ ٢، ENC.of Islam .

وعليه يعتقد زيدان أن الكهانة من العلوم الدخيلة على العرب، ويرجح أن الكلدان حملوها إليهم مع علم النجوم، ويؤيد ترجيحه هذا بأن الكاهن يسمى بالعبرية «حازي» أو «حزاء» وهو على ما ذكر لفظ كلداني معناه الاشتقاقي- كما يقول الناظر أو الرائي أو البصير. وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي. وأما لفظ الكاهن فقد اقتبسه العرب- على رأيه- من اليهود الذين نزحوا إليهم على أثر ما أصابهم من النكبات في أورشليم ولا سيما بعد خرابها على يد طيطس سنة ٧٠ للميلاد.[١]

هذا والكهان كثيرون تمتلئ بأخبارهم كتب الأدب. ولقد مر معنا ذكر طريفة، وزرقاء اليمامة. ولمحنا إلى لغتهم الخاصة التي تمتاز بالسجع المعروف بسجع الكهان.

شق وسطيح:

واشتهر من بين هؤلاء الكهان أكثر من غيرهم اثنان: شق وسطيح. وهما اللذان فسرا لملك اليمن رؤياه واتفقا بالتفسير على انفراد وأن اختلفا في فقراتهما المسجعة.[٢] واللذان يقول فيهما الطبري: «ولم يكن في زمانهما مثلهما من الكهان».[٣]

أما الأول- فكما تخبرنا عنه كتب الأدب- كان شق إنسان بيد ورجل وعين. وإنما سمي بشق لأنه ولد شقاً واحداً. وأما الثاني فكان يدرج كما يدرج الثوب، ولا عظم فيه إلا الجمجمة. ولشق وسطيح أخبار كثيرة عجيبة منها رؤيا تبع الحميري، وما فسراه له، وكذلك خبر سطيح في رؤيا الموبذان وارتجاج الإيوان. ولا يمكننا هنا الإسهاب في أخبار الكهان وبخاصة شق وسطيح لضيق المقام وللنظرة الشاملة في الموضوع. على أن في أخبارهما في ابن هشام، والطبري، والمسعودي، والدينوري، وابن عبد ربه، والقزويني، والدميري، والديار بكري، والأبشيهي، وغيرهم من المؤرخين والأدباء غنى عما يمكننا أن نذكره مختصراً في هذا الباب.

العرافة وغيرها:

والعرافة أخت الكهانة، وإن كانت مختصة بالأمور الماضية، فبعض العرب يسمي الكاهن عرّافاً أيضاً. وقد حدد زاده علم العرافة بقوله: «وهو الاستدلال ببعض الحوادث

١- تاريخ آداب اللغة العربية، جـ ١، ص ١٨٧.

٢- سيرة ابن هشام- جـ ١، ص ٩- ١٢.

٣- تاريخ الطبري- جـ ١، ص ٩١١.

الحالية على الحوادث الآتية بمناسبة بينهما أو مشابهة خفية. أو ارتباط بينهما إما لكونهما معلولي أمر واحد أو لكون ما في الحال علة لما في الاستقبال بشرط أن يمون الارتباط بينهما خفياً لا يطلع عليه إلا الأفراد إما بتجارب شاهدوها في أمثالها أو بحالة مودعة في نفوسهم عند الفطرة. بحيث يغلب على طالعهم سهم الغيب».[1]

وقد كثر العرافون بين العرب وذكروهم في أشعارهم، قال أحدهم:

فقلت لعراف اليمامة داوني ... فإنك إن داويتني لطبيب

وقال آخر:

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفياني

فقالوا شفاك الله ما لنا ... بما حملت منك الضلوع يدان

قال ابن خلدون: «وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة، وعراف نجد الأبلق الأسدي».[2] وتلحق بهذه الأمور علوم أخرى دعوها العيافة، والقيافة، والريافة، والطيرة، وزجر الطير، والفال، وتعبير الرؤيا، والطرق بالحصى، وغيرها من المعتقدات والممارسات.

السحر:

على أن أوثق هذه الأشياء التي تتصل بالكهانة والعرافة هو السحر. والسحر أمر لم يتخلص منه ومن ممارسته الإنسان حتى يومنا هذا. هنالك اختلاف فيما إذا كان الاعتقاد في الجن والشياطين قد سبق الاعتقاد بالآلهة نفسها. أما السحر فقد اعتبر سابقاً لديانات وميثولوجيا الأمم والشعوب المتمدنة. وهو معروف ومتداول بين عرب الجاهلية منذ القدم. قال ابن هشام إنه كان في قرية من قرى نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر.[3]

وأراد نفر من قريش أن يجمع على رأي في النبي فقالوا للمغيرة: «نقول كاهن! قال لا والله ما هو بكاهن! لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه! قالوا فنقول مجنون! قال: ما هو بمجنون! لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته! قالوا: فنقول شاعر! قال ما هو بشاعر لقد عرفنا الخعر كله: رجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه. فما هو بالشعر! قالوا: فنقول ساحر، قال ما هو بساحر! لقد رأينا السحار وسحرهم

١ـ مفتاح السعادة، ج ١، ص ٢٩٣.

٢ـ مقدمة ابن خلدون ص ١٠٨.

٣ـ السيرة، ص ٢٣.

فما هو بنفثه ولا عقده».[1] ويدعو النبي شجرة- كما يزعمون- أمام ركانة بن عبد يزيد «ليتقي الله ويتبع أمر رسوله»، فتقبل حتى تقف بين يدي محمد! ثم يقول لها: ارجعي مكانك فترجع! وعندئذ يرجع ركانة إلى قومه مندهشاً فيقول: « يا بني عبد مناف. ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فوالله ما رأيت أسحر منه قط».[2]

والذي نلاحظه أنهم كانوا يرمون بالسحر كل من يأتي بشيء يثير دهشتهم كما رمي الأنبياء من قبل، وكما رمي محمد من بعدهم:

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ۝ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ۝﴾[3]

والسحر كما عرفه زاده «ما خفي على أكثر العقول سببه وصعب استنباطه، وحقيقته كل ما سحر العقول، وانقادت إليه النفوس بالتعجب والاستحسان والإصغاء من الأقوال والأفعال فهو علم باحث عن معرفة الأحوال الفلكية، وأوضاع الكواكب وارتباطها مع الأمور الأرضية من المواليد الثلاثة على الوجه الخاص ليظهر من هذا الامتزاج افعال غريبة وأسرار عجيبة خفية الأسباب والعلل». ثم يقول: «واعلم أن استحداث الحوادث إن كان بمجرد التأثير النفساني فهو السحر، وإن كان على سبيل الاستعاذة بالفلكيات فهو دعوة الكواكب، وإن كان على سبيل تمزيج القوى السماوية بالأرضية فهو الطلسمات!!».[4]

الساحر الجاهلي:

ولا أظن أن الساحر الجاهلي «لبساطته» توصل في سحره إلى أنظمة وتعاليم كالتي يبسطها زاده وغيره، فالجاهلي الساحر إنما كان على ما أرى كاهناً أو شبه كاهن يتوصل- على زعمه- «ولسذاجة الأعراب»! بتسخير الجن وغيرها من الأرواح الخفية إلى أرواح يحسبها الناس أحداثاً مفتعلة. وهو أقرب إلى أصحاب العزائم والرقي منه إلى السحرة الذين يفوقونه بضروب الإخفاء والحيل. ولعل طرقه لا تختلف كثيراً عن طرق السدنة والكهان في طلب الرزق.[5] قال الجاحظ: « وما أشك أنه كان للسدنة حيل وألطاف لمكان التكسب».[6]

١- السيرة، ص ١٧١.

٢- المصدر نفسه، ص ٢٥٨.

٣- سورة ص: الأيات ٤-٥.

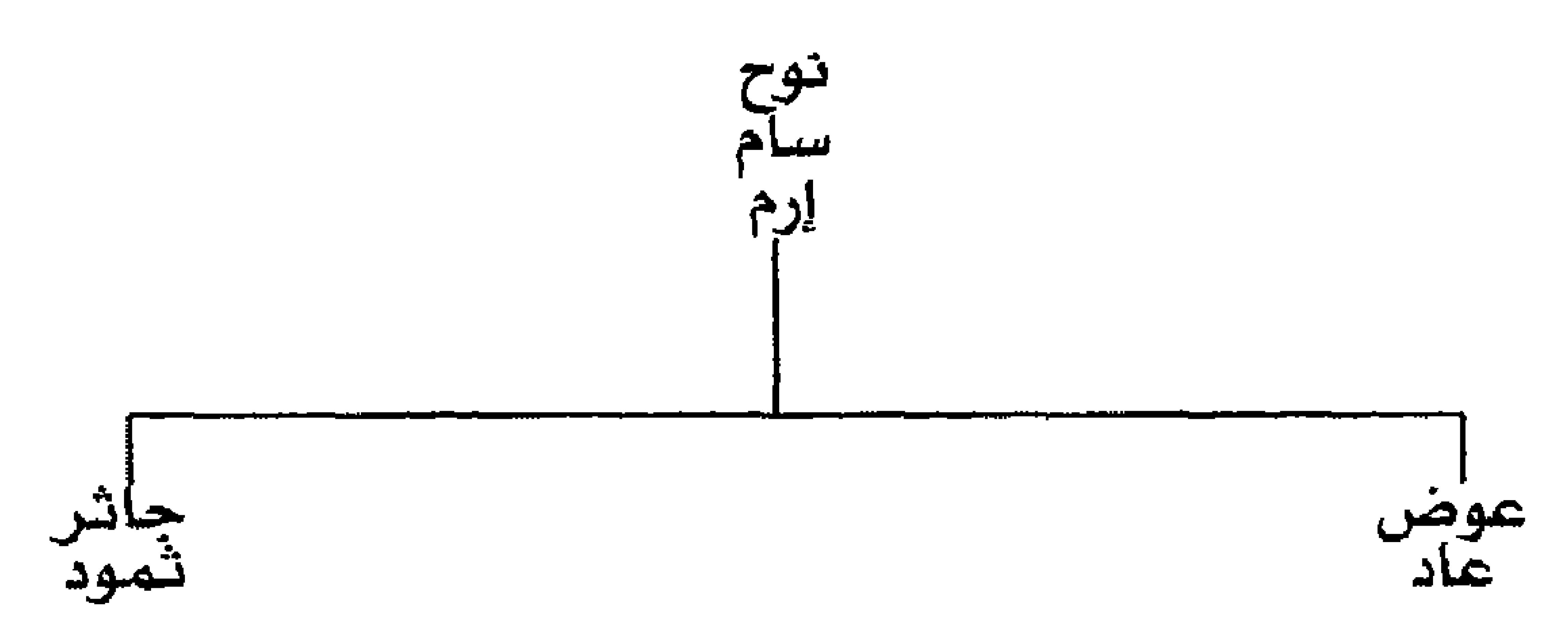
٤- مفتاح السعادة، ص ٢٧٦- ٢٧٧- ٣٠٠.

٥- سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا، ص ٢٣٥- ٢٣٦.

٦- البيان والتبيين، ص ٦٢ جـ ٦.

أساطير العرب البائدة

من المعلوم أن هناك أساطير خاصة تناولت أقواماً قد شأت «عدنان» في القدم عفى عليها الزمن وأبادها الدهر. وهم من اعتدنا أن نطلق عليهم اسم العرب البائدة. وأشهر قبائلهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعمالقة. أما عاد وثمود فشقيقتان في النسب، آو هما بالأحرى بنات أعمام أشير إلى مصيرهما في القرآن وعيداً وموعظة للذين كفروا. وهما من طغى بعد آن أهلك الله الناس بطوفان نوح الذي تنتسبان إليه عن طريق إرم وسام فالنسب كما جاء في الطبري[1]. يوضحه الرسم الآتي:



كانت منازل عاد، كما يذكر ياقوت، الأحقاف.[2] ويقول ابن قتيبة: «وكانت عاد ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل، وبلادهم أخصب بلاد الله، وكثرتهم وديارهم بالدو والدهناء ويبرين ووبار إلى عمان إلى حضرموت إلى اليمن». ولا ندري كيف نوفق بين نزولهم الأحقاف، تلك المنطقة العقيمة الجرداء، أو على الرمل على رأي ابن قتيبة، وبين قوله: وبلادهم أخصب بلاد الله. ؟

١ـ تاريخ الطبري، جـ ١، ص ٢٣١.

٢ـ معجم البلدان جـ ٤، ص ١٠٢٧.

ولعل الآية:

﴿...وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً...﴾[1]

هي التي جعلت المؤرخين العرب والمفسرين يوقنون بأن هؤلاء الأقوام عاشوا بعد نوح وأنهم كانوا عمالقة جبارين حتى قيل: «كان أقصرهم ستين ذراعاً وأطولهم مائة ذراع».[2]

هؤلاء الذين قيل فيهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[3]. كانوا أهل أوثان يعبدونها. وهي على رأي الطبري صدا، وصمودا، وهبا.[4] ثم ظلموا في الأرض وجحدوا: ﴿...وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[5]. فأرسل الله إليهم أخاهم هوداً فعصوه وكذبوه إلا قليلاً منهم. فأصابهم القحط الشديد فجهزوا منهم وفداً إلى مكة يستسقون لهم فنزل الوفد بظاهر مكة في خارج الحرم ضيوفاً على سيد المكان معاوية بن بكر، وأقاموا عنده شهراً يشربون ويقصفون وتغنيهم الجرادتان- قينتان لمعاوية- حتى نسوا الغاية التي وفدوا من أجلها. فأوعز معاوية إلى قينتيه فذكرتاهما، غناءً، بالأمر الذي جاؤوا من أجله فخرجوا إلى مكة يستسقون لعاد. وهنالك ظهرت لهم سحائب ثلاث: بيضاء وحمراء وسوداء. ثم نادى من السحب مناد: يا قيل «أحد رؤساء الوفد وكان بينهم لقمان صاحب لبد» اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب.

فاختار السوداء طمعاً بكثرة مائها. فقال المنادي:

اخترت رماداً رمدداً   لا تبقي من عاد أحدا

وطارت السحابة إلى مغيث، وادي عاد، فاستبشروا، وقالوا هذا عارض ممطرنا، فقيل لهم:

﴿...بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا...﴾[6]

فصمدوا للسحابة يصدونها، وأخذوا يرمونها بالسهام ويقولون: بأسنا أشد من بأسك يا رب هود!! غير أنها كانت تحمل الواحد منهم فتدق عنقه، وهكذا حتى قيل بهم:

١- سورة الأعراف: الآية ٦٩.

٢- الكشاف للزمخشري، جـ ١، ص ٢٦٧.

٣- سورة الشعراء: الآية ١٣٠.

٤- تاريخ الطبري جـ ١، ص ٢٣١.

٥- سورة هود: الآية ٥٩.

٦- سورة الأحقاف: الآيات ٢٤-٢٥.

﴿....فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ۞﴾[1]

ولم يهلكوا فحسب، وإنما أرسلت عليهم طيور سود فنقلتهم إلى البحر.

ثم ارتحل هود ومن آمن معه إلى مكة- على رأي ابن قتيبة- فلم يزالوا بها حتى ماتوا. وفي رواية أخرى إلى بلاد اليمن حيث نزلوا هناك، وأقاموا حولين كاملين. وأدركت هوداً الوفاة ودفن في أرض حضرموت.[2] وقد أشارت الآية إلى نجاة هود وصحبه فقالت:

﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا...﴾[3]

إرم ذات العماد:

ذكر القرآن هذه المدينة في سورة الفجر فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ۞﴾[4]

وكان لعاد ولدان: شداد وشديد، ملكا زمناً وقهرا. ولما مات شديد انفرد شداد بالحكم، وملك الدنيا ودانت له ملوكها. وقد سمع بذكر الجنة فأراد أن يضاهيها ببنائه «إرم» في بعض صحاري عدن. وكيف لا يبني شداد مثل هذه المدينة العظيمة، وعنده من الرجال ما يبلغ الواحد منهم، ليس فقط ستين ذراعاً أو مائة ذراع- كما نقلنا- وإنما أربعمائة ذراع، إذا أتى الصخرة العظيمة، حملها وألقاها على الحي بكامله فأهلكه![5]

يقول الهمداني: «إن إرم ذات العماد في تيه «أبين» وهو غائط بين حضرموت وبين «أبين». وما سمعنا أحداً قال إنه عاينها إلا ما يذكر من خبر الرجل الذي ضل إبله في تيه «آبين» فالتقطها ووصف بناءها وعجائبها في زمن معاوية. ».[6] ولقد أسهب ياقوت في وصفها ولهذا نلخص ما جاء عنها في معجمه.

١- سورة الحاقة: الأيات ٦-٧.

٢- يراجع للقصة تاريخ الطبري، جـ ١ ص ٢٣١- ٢٤٤ وقصص الأنبياء ص ١٠٣- ١١٠

٣- سورة هود: الآية ٥٨.

٤- سورة الفجر: الأيات ٦-٨.

٥- الكشاف للزمخشري، جـ ٢، ص ٤٧٠.

٦- الإكليل للهمداني، جـ ٨، ص ٤٠

رووا أن شداد بن عاد، لما سمع بالجنة قال لكبرائه إني متخذ في الأرض مدينة على صفتها، ثم وجه لعملائه في الأرض أن يجمعوا ما في البلاد من أموال وأحجار كريمة، واختار فضاء فلاة من أرض اليمن. فجعل طول المدينة اثني عشر فرسخاً وعرضها كذلك، وأحاطها بسور عال مشرف. وبنى فيها ثلاثمائة ألف قصر، وجعل لها غرفاً فوقها غرف معمدة بأساطين الزبرجد والجزع والياقوت. ثم أجرى تحت المدينة وادياً ساق إليها تحت الأرض أربعين فرسخاً، ثم أمر فأجرى في شوارعها المتضوعة بالمسك والزعفران سواقي مطلية بالذهب وجعل حصاها أنواع الجواهر وهي تجري بالماء الصافي.

وكان قصره وسط المدينة مشرفاً على القصور الضاربة في السماء ثلاثمائة ذراع، وبنى خارج المدينة وسورها الشاهق أكماً محدقة ينزلها جنوده. ومكث في بناء المدينة خمسمائة عام...

ولم يستجب هود... فلما وافاه الموكلون ببناء المدينة وأخبروه بالفراغ منها عزم على الخروج إليها في جنوده، فخرج في ثلاثمائة ألف من حرسه وشاكريته ومواليه. وخلّف على ملكه بحضرموت ابنه «مرثد». ولم يقتربوا منها حتى أخذتهم صيحة من السماء!

ومات بالصيحة جميع من كان في المدينة من الوكلاء والعمال... وبقيت خلاء لا أنيس بها... وساخت المدينة في الأرض، فلم يدخلها بعد ذلك أحد إلا رجل واحد في أيام معاوية يقال له عبد الله بن قلابة.[1]

ثمود:

وكذلك أفسدت ثمود في الأرض فألحقها بعاد، ولهذا جاء في النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى۝ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى۝﴾[2]. وكما أنذر هود قومه عاداً كذلك أرسل صالح من بعده إلى ثمود التي كانت تنحت الجبال بيوتاً لها، فكان يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عن عباداتهم، فشكوا في دعوته وكذبوه وعصوه. وكانت ثمود بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله[3] لا يلتفتون إلى دعوات هذا النبي الجديد. ولما ألح صالح في دعوته طلبوا منه أن يأتي لهم بمعجزة شأن كل الذين أرسلت لهم أنبياء... وأخيراً استقر رأيهم على أن تكون آيته ناقة بيضاء تحلب لهم لبناً صافياً، ويتبعها فصيلها وتنطق لصالح

١ـ معجم البلدان، جـ ١، ص ٢١٢ـ ٢١٤.

٢ـ سورة النجم: الآيات ٥٠ـ٥١.

٣ـ تاريخ الطبري، جـ ١ن ص ٢٤٥، ٢١٥.

بالرسالة، ولله بالوحدانية. واشترط هو بدوره عليهم أن لا يركبها أحد، ولا يرميها بحجر أوسهم، ولا يمنع شربها ولا مرعاها...ثم أخرجهم إلى صخرة، فإذا هي تئن كما تئن المرأة عند الطلق، وتتمخض كما تتمخض الحامل!! والناقة تدور في جوانبها كما يدور الولد في بطن أمه. ثم تفرجت عن ناقة كأنها قطعة جبل. ووقفت بين يدي صالح وبعينها شعاع ونور، وعليها زمام من اللؤلؤ ومن سنامها إلى ذنبها سبعمائة ذراع وعرضها سبعون ذراعاً ولها أربعة أضرع، لكل ضرع اثنتا عشرة حلمة، وما بين الحلمة إلى الأخرى عشرة أذرع وطول كل قائمة من قوائمها مائة وخمسون ذراعاً... ثم وضعت فصيلها على صفتها... وكانت ترعى في رؤوس الجبال تاركة مراعي ثمود إلى مواشيهم... ثم تدخل المدينة بلسان فصيح: من أراد اللبن فليخرج!!

وكان في القوم امرأتان ذواتا مواش كثيرة... عرضت الأولى، ذات الجمال البارع نفسها على من يعقر الناقة، والأخرى عرضت إحدى بناتها الجميلات على آخر لهذا الغرض... وهكذا كان عقر ناقة صالح أو ناقة الله.[1] التي أُمروا أن لا يمسوها بسوء فكان ذلك شؤماً عليهم، حتى قيل: «أشأم من أحمر عاد»- قدار بن قديرة- الذي أهلك الله بفعله قبيلة ثمود.[2]

ولقد صعد الفيصل بعد عقر أمه جبلاً ثم رغا، فأتاهم العذاب ولهذا تقول العرب: «رغا فوقهم سقب السماء» إذاً هلكوا... وكانوا قد أنذروا ثلاثة أيام حيث اصفرت وجوههم في اليوم الأول كأنها طليت بالحلوق. واحمرت في اليوم الثاني كأنها خضبت بالدماء. واسودت في اليوم الثالث كأنها طليت بالقار. ولما أصبحوا في اليوم الرابع أتتهم الصيحة من السماء... وهكذا: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[3]. وارتحل صالح ومن آمن معه فسار إلى الشام ونزل فلسطين... ثم انتقل إلى مكة.[4]

على أن ثمود خلاف عاد قد أوجدت لها مكاناً في التاريخ، فلم تُفن بالكلية، حتى أن بطليموس وديودورس الصقلي يذكرانها على أنها كانت موجودة في زمنهما، لا بل يرى البعض براهين تثبت على بقاء ثمود في عالم الوجود حتى القرن الخامس للميلاد.

١- قصص الأنبياء، ص ١١٥- ١١٨.

٢- الأمثال للميداني- جـ١، ص ٣٢١.

٣- سورة هود: الآية ٦٧.

٤- ابن الأثير، الكامل في التاريخ جـ١ ص ٦٧.

الحجر:

بلد ثمود. ذكرها الأصطخري فقال: والحجر قرية صغيرة قليلة السكان، وهي من وادي القرى على يوم بين الجبال. وبها كانت ديار ثمود الذين قال الله فيهم: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾[1] ورأيت تلك الجبال ونحتهم الذي قال الله فيه: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾[2]. ورأيتها بيوتاً مثل بيوتنا في أضعاف جبال، وتسمى تلك الجبال الآثالب. وهي جبال في العيان متصلة حتى إذا توسطتها رأيت كل قطعة منها قائمة بنفسها يطوف بكل قطعة منها الطائف، وحواليها رمل لا يكاد يرتقي إلى ذروة كل قطعة منها أحد إلا بمشقة شديدة. وبها بئر ثمود التي قال الله في الناقة: ﴿...لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[3]. وقول الأصطخري: «ورأيتها بيوتاً مثل بيوتنا» بنفي ما يروى من المبالغات في أجسام تلك الأقوام. وعلى ذلك يعلق Sale فيقول: إن مساكن الثموديين ذوات النسبة العادية لحجة على هؤلاء المخطئين الذين يدعون أنه كان للثموديين أجسام المردة.[4] أما البلدة، فلا توجد اليوم وإن بقيت بعض الصخور المنحوتة والآثار التي تدل عليها.

والظاهر أن أسطورة عاد وثمود، والإشارة إلى نبيهما هود وصالح لا ذكر لها في التوراة، وإن كان أمرهم مشهوراً عند العرب في الجاهلية والإسلام. وبهذا يلمح الطبري ويوافقه كندر Coder أنه يستثنى من الأساطير العربية الواردة في القرآن أسطورتان لم يوجد لهما أثر في غير البلاد العربية، وهما حديث ناقة صالح، ورسالة هود إلى عاد في إرم[5]

طسم وجديس:

إن لم تكن هاتان القبيلتان شقيقتين فهما تقريباً أبناء أعمام. وعلى كل فهما تنتسبان إلى نوح مثل عاد وثمود عن طريق إرم وسام. ولا بأس من وضع سلسلة توضح حلقاتها نسب هذه القبائل التي تكتنفها الخرافات من كل جانب، نستمدها من ابن قتيبة ونرسمها على الوجه الآتي:

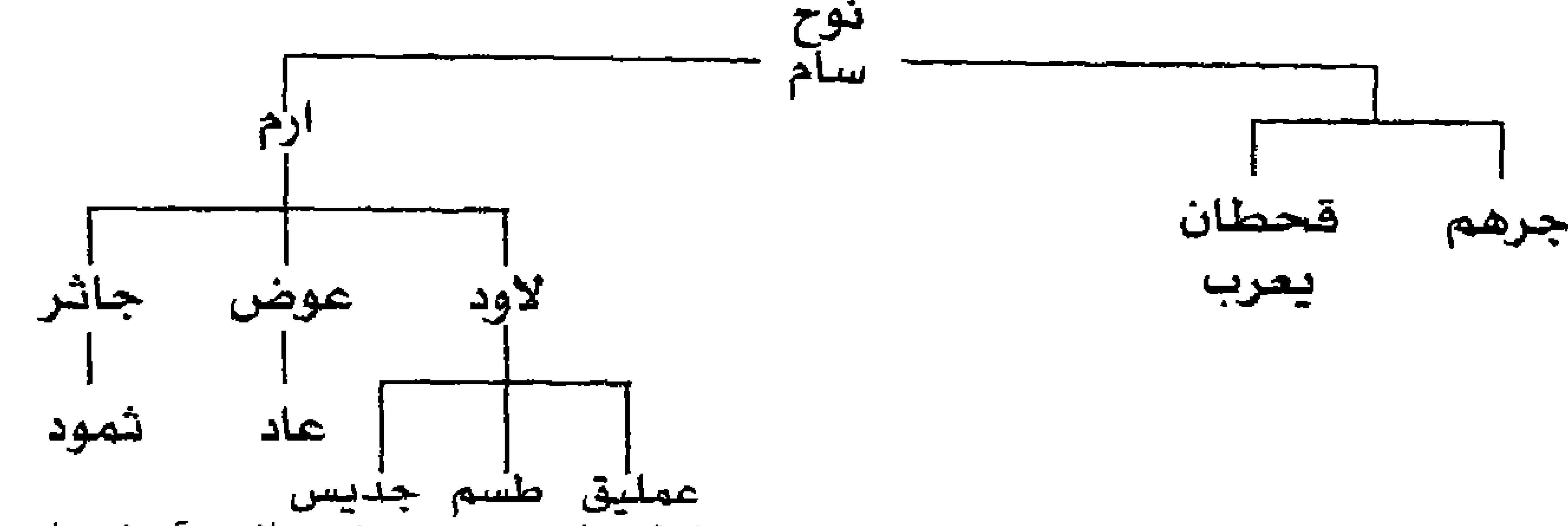
١ـ سورة الفجر: الآية ٩.

٢ـ سورة الشعراء: الآية ١٤٩.

٣ـ نفس السورة: الآية ١٥٥.

٤ـ G.Sale: the Koran,P.7.

٥ـ ENC.of Islam جـ ٢، ص ٣٠١.



وكما اعتاد المؤرخون ربط عاد وثمود وحوادثهما متفقين ذكر القرآن لهما معاً، كذلك اعتادوا أن يربطوا بين «طسم» و «جديس» اللتين لا تكادان أن تذكرا إلا معاً، لا بل إنهما بخلاف عاد وثمود قد عاشا في زمن واحد، ومكان واحد، واقتسما أسباب الحياة، فتاريخهما أو بالحقيقة أساطيرهما لا تكاد تنفصل لوثيق العلاقات بينهما.(١)

ولقد ورد لطسم وجديس ذكر في جغرافية بطليموس، فلا سبيل إلى القول بأنهما لم يكن لهما وجود وكيان. ويقال آن حوادثهما، كما يرىCaussin de perseval قد امتدت حتى أواسط القرن الثالث للميلاد.(٢)

وتلخص الروايات عن طسم وجديس بأنهما كانت قبيلتين تسكنان اليمامة «جو» وما حولها إلى البحرين. وحدث أن تملكت طسم حتى حكم رجل منهم يقال له «عمليق». وقد تمادى في الظلم إلى أن تنازعت امرأة من جديس يقال لها «هزيلة» وزوجها على غلام لهما. فخاصمته إلى زعيم طسم الذي ما كان منه، بعد استماعه إلى أقوالهما، إلا أن آمر بأن تباع هي وزوجها فتعطى عشر ثمنه، ويُعطى خمس ثمنها، وأمر بالغلام أن ينزع منهما ويجعل في غلمانه وهكذا استرقوا جميعاً، فغضبت المرأة وأنشأت أبياتاً سمعها عمليق فأثارت غضبه. وعندئذ أمر أن لا تزف بكر من جديس حتى تساق إليه فيفترعها قبل زوجها.

وذلت جديس زمناً حتى تزوجت أخت سيد جديس «الأسود بن غفار» وكانت تسمى «عفيرة» ويقال لها «الشموس». فلما دخلت على عمليق امتنعت، إلا أنها خرجت أخيراً من عنده بدماء العار شاقة ثوبها، ومارة بأخيها وهو في جمع من قومه تندب وتنتحب وتنشد الأشعار حتى نكست رؤوسهم خجلاً وذلة، وألهبت نفوسهم غضباً وحمية. وتفتقت الحيلة لأخيها الأسود بعد آن سارعت جديس إلى طاعته، فقالت لهم: لقد رأيت أن أصنع للملك طعاماً ثم أدعوه وقومه

١- سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا، ص ١٧٨- ١٧٩

٢- ENC. Of Islam، ص ٩٩٢

فإذا جاؤوا يرفلون في الحلل قمت إلى الملك وقتلته، وقام كل واحد منكم إلى رئيس من رؤسائهم، حتى إذا فرغنا من الأعيان، لم يبق للآخرين قوة.

ونهتهم الشموس عن الغدر على الرغم من الحادث الجلل، فلم يأبه الأسود، وصنع الطعام في ظاهر البلد، ودفنوا السيوف مشهورة تحت الرمال.

وجاء الملك وأعيانه، فلما جلسوا للأكل وثب الأسود على عمليق فقتله، ووثب كل رجل على جليسه من رجال طسم حتى أبادوهم.

وهرب رجل من طسم يقال له رياح بن مرة حتى لحق مع بقية ضئيلة من طسم بـ «حسان بن تبّع» الحميري، فاستغاثه على جديس، فأجابه إلى طلبه، وبعث بجيوشه- ويقال سار بنفسه- إلى اليمامة.

ولما كان على ليلة من منازل جديس استوقفه «رياح» وقال له إن أختاً متزوجة في جديس يقال لها «يمامة» ترى الشخص على مسيرة يوم وليلة، وهي أبصر خلق الله على بعد. فخشوا أن تراهم وتنذر بهم القوم، فأمر الملك رجلاً أن يصعد الجبل فيكشف أمرهم، فأبصرته «زرقاء اليمامة»- وهي زرقاء العينين- وأنذرت به قومها بعد أن أخبرتهم بماذا يصنع فوق الجبل، فكذبوها.

وطلب رياح من الملك أن يأمر أصحابه فيقطع كل رجل شجرة ويسير بها أمامه، وهكذا كان حتى إذا دنوا من اليمامة ليلاً، نظرت زرقاء اليمامة فأبصرت القوم، وأنذرت بهم جديساً فكذبوها ثانية... وصابحهم «حسان» بحمير فأبادهم وضرب بلادهم ودك حصونهم وقصورهم، وقبض على زرقاء اليمامة وقلع عينيها فرأى عروقهما محشوة بالأثمد... وهو حجر أسود كانت تدقه وتكتحل به، فهي أول من اكتحل بالأثمد من العرب.

وفرَّ الأسود بن غفار وأخته الشموس ومعه نفر من قومه ولحق بجبلي «طيء» قبل أن تنزلهما «طيء»- وكانت تنزل الجوف من اليمن- فنزل هناك. ورجع حسان إلى بلاده بعد أن أطلق على «جو» اليمامة تسمية لها بالتي كانت أبصر خلق الله على بعد، والتي ضرب بحدة نظرها المثل فقيل: أبصر من زرقاء اليمامة.[1]

جرهم والعماليق:

ومن بين الأقوام العربية البائدة يذكرون «جرهم» التي سكنت، كما يقول ياقوت تهائم اليمن ثم لحقت بمكة، ونزلت على إسماعيل الذي نشأ فيها وتزوج منها. وقد مر حديث نزولها نحو مكة، فلا مجال لإعادته.

١- راجع تاريخ الطبري، جـ١، ص ٧٧١- ٧٧٥، والأغاني جـ ١٠، ص ٤٨- ٥٠ والكامل في التاريخ جـ١، ص ٢٥١- ٢٥٤.

ومن بينها أيضاً «العماليق» الذين كانت منازلهم موضع «صنعاء» ثم خرجوا فنزلوا أيضاً حول مكة، ولحقت طائفة منهم بالشام ومصر وتفرقت طائفة منهم في جزيرة العرب إلى العراق، والبحرين إلى عمان.[1]

ولا يكتفي ابن قتيبة بمصر والشام، وإنما ينسب إليهم قسماً من ملوك فارس وخراسان.[2] وكذلك ينسبون لهم شعوباً قديمة جداً كالكنعانيين والفلسطينيين. ولهذا يطلقون على من سكن ديار الشام في ذلك الزمن «الجبارين». قال ابن عباس ذاكراً أريحا في غور فلسطين: «أريحا قرية الجبارين. كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق».[3]

عوج بن عناق:

وجميل ما يروونه عن عوج وأمه عنق أو «عناق»: لقد كانت أمه إحدى بنات آدم لصلبه... هائلة مخيفة... كل إصبع من أصابعها ثلاثة أذرع في عرض ذراعين... وفي رأس كل إصبع منها ظفران حديدان مثل المنجلين... وكان موضع جلوسها جريباً من الأرض... وهي أول من بغى على وجه الأرض... وعمل الفجور والسحر، وجاهر بالمعاصي... ولهذا أرسل الله عليها أسوداً كالفيلة، وذئاباً كالإبل، ونسوراً كالحمر فقتلوها... وأراحوا الأرض من شرها!!

ولدت عوجا- رحم الله أباه- فكان يحتجز السحاب فيشرب منه، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس، ثم يأكله! وعمّر حتى أدرك الطوفان الذي طبق الأرض وعلا رؤوس الجبال، فما جاوز ركبتيه! لا بل أنه طلب السفينة ليغرقها!!

وامتد به العمر حتى أدرك موسى الذي لما استقر لقومه الأمر بمصر أمر أن يرتحلوا إلى أريحا، قرية الجبارين الذين سموا بذلك لامتناعهم وطول قاماتهم وقوة أجسادهم، وهم كما ذكرنا من العمالقة وبقية قوم عاد.

واختار موسى اثني عشر نقيباً من كل سبط من أسباطهم نقيباً، وبعثهم لما قربوا من المدينة يتجسسون أخبار قومها فلقيهم عوج وعلى رأسه حزمة من الحطب فوضعهم فوقها- أو في كمه- وسار إلى امرأته، ونثرهم أمامها يريد طحنهم، فقالت امرأته، بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم فتركهم كما طلبت منه.

ثم ذهب عوج إلى الجبل وقوَّر صخرة على قدر معسكر موسى، وحملها ليطبق عليهم، فبعث الله هدهداً فنقر الصخرة ونزلت من رأسه إلى عنقه الحركة... ووثب موسى وقومه فجهزوا عليه!![4]

١- معجم البلدان، جـ ٤، ص ١٠٢٨.

٢- ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ١٤.

٣- تاريخ الخميس، جـ ١، ص ٧٠.

٤- نفس المرجع، ص ٧١- ٧٢.

أساطير العرب الباقية

وللعرب الباقية من قحطان وعدنان أساطير وخرافات غير التي اعتدناها من أحداث العهد القديم، وهي تتعلق بأزمان ليست جد بعيدة من العصر الجاهلي المعروف، أو المدة التي نعبر عنها أحياناً بما قبل الإسلام.

وليس لنا في هذا المقام إلا أن نختار من بين هذه الأساطير بعضاً مما كثر ذكره في الجاهلية. ولا بأس هنا من الكلام عن سد مأرب، والقصور المشهورة في الأدب العربي، وحادثة الفيل، وأخيراً أيام العرب.[1]

مأرب:

شيد سد مأرب «ذمر علي وتر» الذي يعتبر أعظم سد شيد في الجزيرة ومن أعاجيب العالم القديم. ويرد ذكر هذا السد في القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ[2] وَأَثْلٍ[3] وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ[4] قَلِيلٍ۝ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ۝ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ۝ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ۝﴾[5]

١- سليم الحوت- في طريق الميثولوجيا، ص ١٨٢- ١٨٣.

٢- الخمط: الحامض او المر من كل شيء.

٣- الأثل: شجر خشن صلب تصنع منه القصاع والجفان.

٤- السدر: شجر النبق.

٥- سورة سبأ: الآيات ١٥-١٩.

والجنتان، كما يقول الهمداني، عن يمين السد ويساره[1]. ولا شك أن ما جاء في القرآن، وما قاله الهمداني الذي وقف على حقيقة مأرب في زيارته لتلك الأماكن هما أوثق الأخبار القديمة عن هذا السد، وأكثر مطابقة لوصف الأثريين وغيرهم ممن اكتشفوا آثار السد المشهور.[2]

ولقد حدَّث من شاهد مأرب- على ذمة ياقوت- فقال عن السد: «هو بين ثلاثة جبال، يصب ماء السيل إلى موضع واحد، وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة، فكان الأوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يختص من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه إذا أرادوا»[3].

الأسطورة:

«كان في قديم الزمان ملك كاهن يقال له «عمران»... وكان بيده علم من بقايا دعاة «سليمان». وفي أواخر أيامه أخذ ينذر قومه بخراب بلادهم وتشتيتهم في البلدان فيقولون: شيخ كبر! ولما حضرته الوفاة، وقد بلغ أرذل العمر، طاوياً أربعة قرون، دعا أخاه «عمراً بن عامر»- الذي كان قد بلغ ثلاثمائة عام- وقال له: إن امرأة من قومه يقال لها ظريفة سترث علمه... ثم أنذره ثانية بخراب البلاد ومات... فولي عمرو الملك وتزوج ظريفة.

١- الإكليل للهمداني- ج ٨، ص ٥٢.

٢- زار مدينة مأرب آرنولد ١٨٤٣، وهاليفي ١٨٦٩، وغلازر ١٨٨٨، ويتبين من الأوصاف القديمة والحديثة أن السد يقع على ارتفاع ٣٩٠٠ قدم فوق سطح البحر وأن طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراع، وقد بني على مقطع وادي أذنة الذي تتجمع فيه معظم مياه السيول التي تكون من الأمطار الساقطة على الجبال الواقعة في اطراف صنعاء. وبناؤه من التراب والحجارة. وقد أضيفت إلى السد إضافات متعددة حتى اتخذ شكله النهائي على عهد (شمر يرعش حوالي ٣٠٠ ق. م). وقد ادى اضطراب الأحوال في أواخر عهد الحميريين الى إهماله وحدوث تصدع فيه، وقد حاول ابرهة الأشرم إصلاحه ولكنه تخرب فيما بعد فأغرق الأراضي واثر على الزراعة. وللعرب روايات متعددة حول خراب السد تميل إلى الأسطورة ويعزون الى هذا الخراب هجرات الغساسنة والمناذرة والأزد. وليس من شك في انهم مغالون في هذا إذ إن تخريبه ادى الى تدمير الزراعة في المنطقة المزروعة حول مأرب فقط. (تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي- نبيه عاقل- مرجع سابق، ص ٨٧ وما بعد.

٣- معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٨٣

وكان عمرو هذا ملكاً عظيماً بمأرب. وكان له تحت السد من الجنان ما لا يحاط به، حتى أن المرأة كانت تمشي من بيتها وعلى رأسها إناء، فلا تصل إلى بيت جارتها إلا وهو ملآن بالفواكه دون أن تمس منها شيئاً! وكان الرجل يمشي تحت ظلال الشجر شهرين فلا تصل إليه الشمس!

وحدث أن كانت ظريفة نائمة ذات ليلة فرأت كأن أتيساً جاءها وقال لها: ما تحبين يا ظريفة؟ علماً تطيب به نفسك، أو مولوداً تقر به عينك؟ فاختارت العلم... فجر بيده على صدرها، ومسح بظاهر كفه بطنها فعقمت ولكنها اتسعت في العلم!!

وكانت مرة نائمة إلى جانب عمرو، فهبت مذعورة إذ رأت كأن سحابة غشيت اليمن وهي تبرق وترعد... فسألها: ما لك يا ظريفة؟!

فقالت: أزف بكم الغرق، وأتاكم من الأمر ما قدِّر وسبق... ولم يلبث عمرو أياماً حتى خرج ومعه قينتان إلى بعض حدائقه، فطلبت ظريفة ومعها وصائفها... فاعترضها في طريقها ثلاث مناجذ «وهي دواب تشبه اليرابيع» منتصبات على أرجلهن... ثم غبن، فتابعت سيرها، فوثبت أمامها من خليج ماء سلحفاة ووقعت على التراب، واستلقت على ظهرها، ثم عادت إلى الماء. فعلمت ظريفة من المناجذ والسلحفاة أشياء... وتابعت سيرها، حتى دخلت الحديقة نصف النهار، فرأت شجرها يتمايل من غير ريح! وظن عمرو أن غيرتها حملتها على القدوم، فأخرج الجاريتين، وقال لها: مرحباً يا ظريفة، هلمي إلى فراشك... فقالت: هيهات! والنور والظلماء، والأرض والسماء، ليهلكن الشجر بالماء. وعلم أنها كرهت إخباره وعنده القينتان فأبعدهما... وعندئذ أنذرته بالخطب... وكان لا يزال متكئاً على الأرائك فاستوى جالساً، وقال لها: صدقت، فما وجه ما تذكرين؟

فقالت انطلقوا إلى ظهر الوادي، فسترون الجرذ العادي، يجر كل صخرة صيخاد بأنياب حداد، وآظافر شداد.

فانطلق حتى أشرف على السد، فإذا بجرذان حمر تحفر السد وتبحث برجليها، فتقلع الصخرة التي لا يستقلها مائة رجل... ثم تدفعها بمخالب رجليها... فاغتم وصدق قول ظريفة، ثم رجع مهموماً فسألته: ما وراءك؟ فأجابها بما رأى «شعراً»...

فقالت يا عمرو، إذا ظهر الجرذ الحفار، فاستبدل لنفسك داراً من دار وجاراً من جار، فعندها تنزل الأقدار.

وطلبت منه النجاة... فترتب حيلة لكي يترك ملكه، ونفذها، ثم باع ملكه كما باع ذووه ضياعهم، وارتحلوا عن أرض اليمن... وكان ذلك الجرذ قد خرَّب السد، فطغى

الماء وأغرق البلاد حتى لم يبق من جميع الزروع والعمار إلا ما كان في رؤوس الجبال، والأمكنة البعيدة. وكان أكثر ما خرب بلاد كهلان وعامة بلاد حمير! أما القبائل اليمنية التي ارتحلت عن اليمن فقد سكنت الحجاز والشام والعراق وعمان وغيرها من بلاد العرب.

والقصة[1] تمتد فتذكر حروب هذه القبائل مع سكان المنازل الجديدة مما يطول ذكره... ولنكتف إذاً بخبر النكبة التي حلت باليمن على أثر انفجار السد.[2]

القصور:

والقصور التي ذكرها الأدب العربي كثيرة نكتفي هنا بالإشارة إلى اثنين منها وهما غمدان والخورنق.

غمدان:

أول قصور اليمن وأعجبها ذكراً، وأبعدها صيتاً يرجعون بناءه إلى «سام بن نوح» فهو أول من أسسه... ومنهم من ينسب بناءه إلى «أبي شرح بن يحصب». وقال قوم إنه أحد القصور الثلاثة التي أمر سليمان الجن ببنائها لبلقيس. وقيل وجد حجر فيه مكتوب بالمسند: «بناه غمدان»... وعلى كل فإن صاحبه الذي بناه حينما أراد أن يتخذ قصراً باليمن، أحضر البنائين والمقدرين، فمدوا الخيط ليقدروه، فانقض على الخيط طير وخطفه... فتبعوه حتى ألقاه في موضع غمدان فبناه صاحبه هناك على أربعة أوجه: وجه بحجارة سوداء، ووجه بحجارة بيض، ووجه بحجارة حمر، ووجه بحجارة خضر.[3]

ويزعمون أنه بني ساعة طلوع «الثور» وفيه «الزهرة» و «المريخ»... ومن خاصية هذا البرج ثبات الأشياء وقلة تغيرها... ولقد بلغ القصر في بعض الروايات سبعة سقوف، بين كل سقف وسقف أربعون ذراعاً. والثابت عند الهمداني أنه عشرون سقفاً، كل سقف عشرة أذرع، وبهذا يكون مائتي ذراع، ولا يتعذر في رأيه ذلك عليهم لقدرتهم على كل معجز من البناء.[4]

١- تراجع القصة في: (الإكليل الهمداني جـ ٨ ص ٢٦٣- ٢٨٧، ومروج الذهب للمسعودي جـ ٣، ص ٣٧٨- ٣٩٤ ومعجم البلدان لياقوت الحموي ص ٣٨٤- ٣٨٨- جـ ٤.

٢- الإكليل ج ٨، ص ٥.

٣- الإكليل، جـ ٨، ص ٦- ٧، ٢٤- ٢٥. ومعجم البلدان جـ ٣ ص ٨١١.

٤- الإكليل، جـ ٨، ص ٢٣- ٢٤.

ولما بلغ صاحب غمدان غرفته العليا التي يبلغ ارتفاعها اثني عشر ذراعاً- وهي مجلس الملك- أطبق سقفها برخامة واحدة، فكان يستلقي على فراشه في الغرفة، فيمر بها الطائر فيعرف بها الغراب من الحدأة... وكان للغرفة أربعة أبواب قبالة الصبا والدبور والشمال والجنوب... وفي زوايا القصر الأربع تماثيل أربعة أسود من نحاس مجوفة... إذا هبت الريح زأرت كما تزأر الأسود.

وكان صاحب القصر يأمر بالمصابيح أحياناً، فتسرج فيه ليلاً، فكان سائر القصر يلمع من ظاهره، حتى إذا أشرف على الإنسان من بعض الطرق ظنه برقاً ولا يعلم أن ذلك من ضوء المصابيح.[1]

وفيه يقول علقمة:

مصابيح السليت يلحن فيه ... إذا يمسي كتوماض البروق

ويروى أنه كان في الغرفة العليا منه ستور فيها أجراس، إذا ضربت الريح تلك الستور. سمعت أصواتاً من الأجراس من مكان بعيد. وإلى جانب القصر نخلة يانعة سحوق تطرح بعسبانها إلى بعض أبهائه. وإذا صح، كما يرى زيدان، قول الهمذاني وياقوت الحموي أن بانيه هو «اليشرح بن يحصب» كان بناؤه في القرن الأول للميلاد. ويكون قد عاش نحواً من ٦٢٠ عاماً.[2]

الخورنق:

ولعله أشهر القصور التي كانت نواحي العراق، والتي كان طالما يذكر بعضها معه في أحاديث العرب وأشعارهم ولقد مر معنا قول بعضهم:

أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد

وإذا ما اختلفوا في باني الخورنق فإنهم لا يختلفون في بنّائه «سنمار» فابن الأثير يذكر أن بانيه «يزدجرد الأثيم»، حيث سأل عن منزل صحي، فدل على ظاهر الحيرة، فدفع ابنه «بهرام جور» إلى «النعمان» يأمره ببناء الخورنق مسكناً له في بوادي العرب.

وقال الهيثم بن عدي إن الذي أمر ببنائه هو «النعمان بن امرئ القيس». وكان قد ملك ثمانين سنة، وبنى الخورنق في ستين سنة. بناه رجل له من الروم يقال له سنمار فكان يبني السنتين

١- معجم البلدان جـ ٣، ص ٨١١.

٢- جرجي زيدان، تارخ العرب قبل الإسلام، ص ١٤٥.

والثلاث ويغيب الخمس سنين، وأكثر من ذلك وأقل، فيطلب فلا يوجد ثم يأتي فيحتجب... ولم يزل هكذا ستين عاماً حتى فرغ من بنائه. وصعد النعمان على رأس القصر ونظر إلى البحر تجاهه والبر خلفه فرأى الحوت والظبي والنخل، فقال ما رأيت مثل هذا البناء قط. وتشاء المنية لسنمار أن يتفلسف فقال: إني أعلم موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله، فقال النعمان: أيعرفها أحد غيرك؟ فقال: لا، فقال: لا جرم لادعنها وما يعرفها أحد. ثم أمر به فقذف من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع.[1] فضربت العرب فيه المثل فقالوا: «جزاء سنمار للذي يصنع خيراً فيجازى شراً»[2].

عام الفيل:

صار أبرهة والياً على الحبشة، فأراد أن يعيد إلى الدين المسيحي شأنه، ويرجع إلى قوته، ولما رأى الناس جميعاً يقصدون مكة، يحجون بيتها الحرام وكعبتها المقدسة، فكر في أن يغتصب ذلك الإكليل الذي ازّينت به قريش، وأراد أن يصرف الناس عن مكة وبيتها، ويجذب قلوب الناس نحو بلاده، ويستميلهم إلى دينه، فبنى كنيسة بصنعاء، وزينها بما يبهر الأبصار، ويأخذ بالألباب، وعُني بزخرفتها غاية العناية، وجلب لها فاخر الأثاث وثمين الرياش ما خُيل إليه أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم إليه.

ولكنه رأى أن العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن أنفسهم يدعون البيت الذي بناه، وينصرفون إلى مكة. واشتد غيظ العرب، واشتعلت نيران الحقد في نفوسهم، إذ رأوا لبيتهم مناوئاً، ولموئل أصنامهم عدواً، فعمدوا إلى تحقير بيته، والحط من قدره، فأحدث فيه رجل من كنانة ليلاً! ولما علم أبرهة بذلك اشتد غضبه، وغلى مرجل غيظه، وأقسم ليهدمن الكعبة، وليزيلن بيت إبراهيم وإسماعيل، وليثأرن لكنيسته من العرب، حتى ينصرفوا عن كعبتهم، ويولوا وجوههم نحو بيته.

تهيأ للحرب، وقاد الجحافل تتقدمها الأفيال، وسار نحو مكة ليهدم بيت العرب، الذي هو موئل حجيجهم، ومعقد آمالهم، ومكان اجتماعهم.[3]

وفي طريقه إلى مكة خرج إليه رجل من أشراف اليمن يقال له: «ذو نفر» ليصده فأسره أبرهة... ولما كان هذا في أرض «خثعم» عرض له «نفيل بن حبيب» الخثعمي بقبيلتي خثعم «شهران وناهس». ومن تبعهم، فكان نصيبه ما أصاب «ذا نفر».

١- معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩١.

٢- الميداني، ج ١، ص ١٣٤.

٣- محمد أحمد جاد المولى: قصص القرآن، دار القلم العربي- حلب، ١٩٨٤، ص ٢٤٥.

وتابع أبرهة حتى مر بالطائف، فخرجت له ثقيف يقدمون الطاعة ليصرفوه عن بيتهم «اللات» وأرسلوا معه «ابا رغال» يدله على طريق مكة، إلا أنه مات عند «المغمس» فرجمت العرب قبره، ولما نزل أبرهة هناك، بعث بجيش «الأسود بن مفصود» فاستاق أموال تهامة- وكان أهلها قتلوا رجلاً آمره «أبرهة» أن ينادي بحجيج القليس- وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب كبير قريش وسيدها... وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالجرم بقتاله، إلا انهم عرفوا أن لا طاقة لهم به. وطلب أبرهة من سيد قريش بعد أن أخبره أنه لم يجئ إلا لهدم البيت، ولا حاجة له بحربهم... فانطلق عبد المطلب إليه فقابله أبرهة بالترحاب، وكان بينهما ما ذكرناه سابقاً، من طلب ابن هاشم إبله فقط لأنه ربها ولأن للبيت رباً يحميه.

وخرج عبد المطلب بإبله، وأمر قريشاً أن يتحرزوا في شعاف الجبال، وأخذ مع نفر من قومه يستنصرون رب البيت على أبرهة، ثم انطلقوا من مكة إلى الجبال ينتظرون ما أبرهة فاعل. وأصبح أبرهة مجتمعاً على هدم البيت فعبأ جيشه وهيأ فيله، وكان اسم الفيل محموداً، وعندئذ أقبل نفيل بن حبيب وأخذ بأذن الفيل وقال: «ابرك محموداً وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام». ثم أرسل أذنه فبرك الفيل، ونفر ابن حبيب حتى صعد الجبل.

وضربوا الفيل ليقوم فأبى، وفعلوا به الكثير عبثاً، فوجهوه إلى اليمن فقام يهرول، وكذلك إلى كل الجهات إلا جهة مكة إن وجهوه إليها برك.

وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة أحجار بمنقاره ورجليه، كالحمص والعدس، لا يصيب الحجر منها أحداً إلا هلك، لأنها كانت تخترق جسد الرجل من رأسه.

وطلبوا النجاة ولكن أين المفر؟ وخرجوا يتساقطون بكل طريق، وأصيب أبرهة في جسده، فكان يتساقط أنملة أنملة، حتى ما وصلوا به صنعاء إلا وهو مثل فرخ الطير ومات هنالك.[1]

وفي هذه الحادثة يقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ۝﴾[2]

١- براجع، السيرة، ص ٢٩- ٣٨.

٢- سورة الفيل.

أيام العرب:

يقول تتشر Thatcher إنه لا يوجد بين القصص المتداولة في زمن محمد ذات قيمة إلا أيام العرب أو تلك المعارك الداخلية التي كانت تقع في البلاد العربية بين القبائل.

وبدهي أن لا نتحدث هنا عن كل هذه الأيام فهي كثيرة، والحديث عنها، وحدها، يحتاج إلى كتب ولهذا نقف على بعضها كحرب البسوس ويوم ذي قار.

البسوس:

تجاور «جساساً بن مرة» خالته «البسوس» التميمية، وكان لها ناقة- وفي رواية أخرى لجار لها من جرم اسمه سعد يقال لها سراب.

وتمر لكليب إبل بالناقة، فتتنازع عقالها حتى تقطعه، وتتبع الإبل، وكليب وائل حامي مواقع السحاب ومجير الوحش، فكيف ترد سراب مع إبله؟

ولهذا أنكرها حينما رآها واشتد عليها بسهم فرمى ضرعها. وتنفر الناقة المسكينة وهي ترغو حتى تجيء البسوس فتصيح هذه وأذلاه وأجاراه!

وتنشد أشعاراً يلتهب لها جساس.

فيهب ومعه صديقه «عمرو بن الحارث» حتى يدخلا على كليب. ويعاتبه جساس فيجيبه: أتراك مانعي أن أذبّ عن حماي؟ فيطعنه جساس وعمرو... وبهذا يجران على بكر الحرب. وترتحل بنو شيبان.

ويتشمر أخو اللهو «عدي بن زيد» شقيق القتيل ثم يهلّ، وهو المهلهل الشاعر المعروف، ويستعد لحرب بكر... فيقصر شعره... ويترك النساء والغزل... ويحرم القمار والشراب طلباً للثأر الرهيب. وتشتعل نار حرب شعواء بين «بكر» و «تغلب» وتتجلى البطولة في أروع مظاهرها، وتنتظم الحرب ملحمة على أجمل ما تكون الملاحم، لا ينقصها إلا عنصر الآلهة حتى ترتقي إلى ذروات القصص البطولي والملحمي الخالد.

ولا يبالي المهلهل بأي قبيلة من قبائل بكر أوقع، وتطول هذه الحرب التي أثارها قتل ناقة وتستمر أربعين عاماً حتى يصلح بين الفريقين «عمرو بن هند» ويردهم عن القتال.

هذا القتال الذي كان شؤماً على بكر وتغلب بالسواء فضُربَ بالبسوس وناقتها المثل فقيل: «أشأم من البسوس» و «أشأم من سراب».[1]

١- يراجع: العقد الفريد، جـ ٣، ص ٣٥٥- ٣٦١ والميداني: ص ٣١٩- ٣٢٠ جـ ١، الكامل في التاريخ جـ ١ ص ٣٨٤- ٣٩٧.

وختاماً لا يسعنا إلا أن نشير إلى حرب الفجار بين هوازن وكنانة. ثم إلى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، قبل أن نذكر شيئاً عن ذي قار، أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم.

ذي قار:

ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة. وبطل هذه الوقيعة، على ما هو مشهور، هانئ بن مسعود الذي استودعه النعمان سلاحه، فامتنع عن تسليمها إلى كسرى، غير أن ابن عبد ربه يقول: «لم يكن هانئ بن مسعود المستودع حلقة النعمان، وإنما هو ابن ابنه واسمه «هانئ بن قبيصة» بن «هانئ بن مسعود» لأن وقعة ذي قار كانت وقد بعث النبي ﷺ وخبر أصحابه بها».[1]

وهكذا تتضارب الآراء فيما إذا كان ابن هانئ بن مسعود بطل ذي قار أو حفيده هانئ بن قبيصة ولعل هذا التضارب راجع إلى مشابهة الاسمين...

وعلى كل فالبطل هو هانئ.

يقتل النعمان «عدي بن زيد» لأسباب... فيسعى ابنه «زيد بن عديّ» عند كسرى حتى يهيجه عليه ويستثمر غضبه... فيخرج النعمان يطوف بالقبائل محتمياً من كسرى، فلا تجيره حتى يصل إلى بني شيبان فيلتقي بهانئ، ويقيم عنده في ذي قار.

ويرد كتاب من كسرى إلى النعمان يستدعيه على الأمان، فاستودع هانئاً سلاحه وماله وأهله...

وسار إلى كسرى... فما كان من هذا الملك إلا أن سجنه- وقيل قتله- حتى مات... وولى مكانه طائياً على العرب. ثم يطلب من هانيء ودائع النعمان... ولكن هيهات! آيسلمها بطل شيبان ويخون. عندئذ يرسل ملك الفرس جيوشه لحرب العرب.

والتقت الأعاجم والعرب في ذي قار.

وتفتك نبال الفرس أولاً بالعرب فيحملون حملة المستميت دفعة واحدة على الفرس.

ويفتك العطش بالفرس فيميلون إلى الشرب، فيشتد العرب عليهم فيشتّتون شملهم. وتبلي «بنو عجل» في ذلك اليوم بلاء حسناً، وتفتخر «بكر بن وائل» كلها بهذا الظفر، وينتشر صيت البطل هانئ بالآفاق، وترجّع العرب أشعار الانتصار في كل صقع.[2]

١- العقد الفريد لابن عبد ربه، جـ ٣، ص ٣٨٣.

٢- راجع تاريخ الطبري، جـ ١ ص ١٠٢٨- ١٠٣٧، والعقد الفريد، جـ ٣، ص ٣٨٣- ٣٨٧.

الفهرس

منشورات دار علاء الدين في مجال التاريخ والميثولوجيا

- سويداء سوريا موسوعة شاملة عن جبل العرب
إسماعيل الملحم، هايل القنطار، وهيب سراي الدين، فياض نعيم
- دراسات حول الأكراد
ب. ليرخ
- التاريخ السري
بروكوبيوس
- الجنس في العالم القديم
بول فريشاور
- فتح بلاد الغال يوليوس قيصر
بيتي راديس
- السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية
جان كلود مارغرون
- من هم الموحدون الدروز
جميل أبو ترابي
- أميرات سوريات حكمن روما
جودفري تورتون
- أساطير في أصل النار
جيمس فريزر
- الاقتباس والجنس في التوراة
خالص مسور
- اليوم الآخر ونهاية الزمان
د. خالد صناديقي
- في أصل العرب ومواطنهم
د. ماجد عبد الله الشمس
- القاهرة وبيت المقدس ودمشق
دافيد صموئيل مارجوليوت
- المراحل التاريخية والسياسية
دنحو داوود
- سلسلة الأساطير السورية
رينيه لابات، موريس سنايزر، موريس فييرا، أندره كاكو
- طقوس الجنس المقدس
س. كريمر
- بنو معروف في التاريخ
سعيد الصغير
- صفحات منسية من نضال الجزيرة السورية
صالح هواش المسلط
- من أنساب العرب العاربة
صالح هواش المسلط
- التشريعات البابلية
عبد الحكيم الذنون
- بدايات الحضارة
عبد الحكيم الذنون
- تاريخ القانون في العراق
عبد الحكيم الذنون
- الأسطورة في بلاد الرافدين الخلق والتكوين
عبد الحميد محمد
- العادات والتقاليد في جبل العرب
عطا الله الزاقوت
- أضواء على الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥-١٩٢٧
عطا الله الزاقوت
- ستالينغراد ملحمة العصر
ف. تشويكوف
- الحضارات القديمة ١-٢
ف. دياكوف / س. كوفاليف
- صراع بين الحرية والاستبداد
فارس الحناوي

منشورات دار علاء الدين في مجال التاريخ والميثولوجيا

- الأسطورة والمعنى
  .... فراس السواح
- التاو تي تشينغ إنجيل الحكمة التاوية في الصين
  .... فراس السواح
- الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
  .... فراس السواح
- الرحمن والشيطان
  .... فراس السواح
- آرام دمشق وإسرائيل
  .... فراس السواح
- تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود
  .... فراس السواح
- جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة
  .... فراس السواح
- دين الإنسان
  .... فراس السواح
- لغز عشتار
  .... فراس السواح
- مغامرة العقل الأولى
  .... فراس السواح
- موسوعة تاريخ الأديان الكتاب الأول
  .... فراس السواح
- موسوعة تاريخ الأديان الكتاب الثاني
  .... فراس السواح
- سلطان باشا الأطرش تاريخ وطن
  .... فريد عبد الكريم فياض
- الحضور اليماني
  .... فضل عبد الله الجثام
- المصادر التاريخية العربية في الأندلس
  .... لك بويكا
- الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم
  .... ماجد عبد الله الشمس
- معجم الأساطير
  .... ماكس شابيرو، رودا هندريكس
- شريعة حمورابي
  .... مجموعة من المؤلفين
- كليوباترا وعصرها
  .... مجموعة من المؤلفين
- الاثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية
  .... محمد الخطيب
- الفكر الإفريقي
  .... محمد الخطيب
- ديانة مصر الفرعونية
  .... محمد الخطيب
- مصر أيام الفراعنة
  .... محمد الخطيب
- موسوعة تاريخ القفقاس والجركس
  .... محمد جمال صادق إبه زاو
- هل هبط آدم في القفقاس
  .... محمد عمر بغداي
- صرح ومهد الحضارة السورية
  .... مفيد عرنوق
- الديانة الزرادشتية مزديسنا
  .... نوري إسماعيل
- الديانة الفرعونية
  .... واليس بدج

الدين و الأسطورة

عند العرب في الجاهلية

يدرس هذا الكتاب الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية، ويتناول الأديان السماوية الثلاثة، وآلهة العرب وعبادة النجوم والحيوان والنبات، والمقامات الدينية والحج الجاهلي وأساطير العرب البائدة والباقية.

واتبع الكاتب المنهجية في محاولة التعرف على الظواهر المتعددة التي يتضمنها الدين قبل تناوله النسق الديني كوحدة متكاملة، مؤكداً أن مظاهر الحياة الجاهلية تشبه إلى حد بعيد مظاهر الحياة ذاتها عند جميـ
والمجتمعات في طور بداوتها وقبل أن تصل إلـ
الفكري والتكامل العقلي.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy